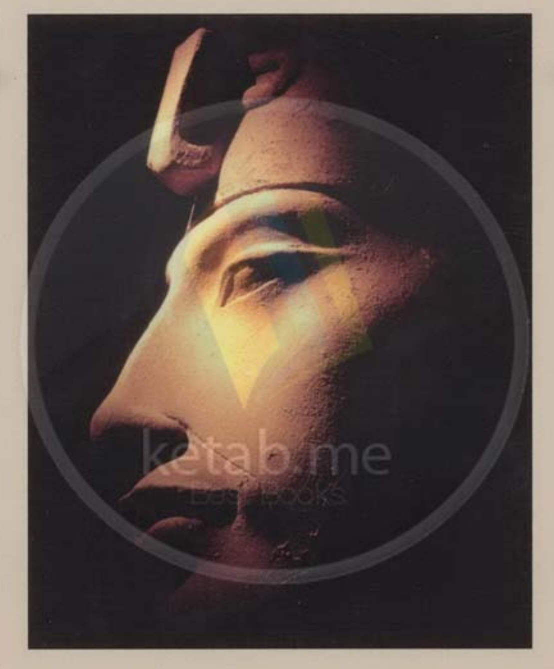
جيلبرت سينويه

أخناتون..
الإله اللعين







ترجمة: عبدالسلام المودني

منشورات الجمل

رواية

جيلبرت سينويه

أخناتون..
الإله اللعين

رواية

ترجمة: عبدالسلام المودني

منشورات الجمل

جيلبرت سينويه: روائي فرنسي ولد بالقاهرة ١٩٤٧. درس بمصر ثم أكمل دراساته الموسيقية بباريس حيث تحصّل على شهادة الإستاذية في آلة القيثارة. صدر له عن منشورات الجمل: **ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان**، رواية (١٩٩٩)؛ **المصرية**، رواية (٢٠٠٥)؛ **ابنة النيل**، رواية (٢٠٠٨)؛ **اللوح الأزرق**، رواية (٢٠٠٨).

جيلبرت سينويه: أخناتون.. الإله اللعين، ترجمة: عبدالسلام المودني
الطبعة الأولى ٢٠١١

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان
Gilbert Sinoué: Akhenaton, le dieu maudit, 2004

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

بحسب فرويد في (موسى والتوحيد)، فالقليل من الاختلاف يؤدي إلى العنصرية، أما الكثير منه فإنه يبعد عنها بصفة قطعية.

فتحقيق المساواة، والديمقراطية، والتكتل، كل هذه الجهود لا تستطيع أن تطرد «الاختلاف البسيط»، الذي هو بذرة كل تعصب عرقي.

إن ما يلزم وبلا هوادة، هو التعددية والانتزاع.

رولان بارت

تقديم

يعد الانكباب على سيرة أخناتون تحديا كبيراً ومغامرة حقيقية، فالأعمال المتخصصة الكثيرة التي تناولته جعلتنا إزاء حقيقة لا مراء فيها، وهي أننا نعرف الشيء القليل فقط عنه، وحتى هذا النزر الذي وصلنا عن أخناتون يبقى مثار نقاش وجدال واسعين في صفوف المختصين. وكل محاولة مشابهة هي بمثابة مجابهة لغز محير، عدا بعض الاستثناءات القليلة، حتى عندما يتعلق الأمر بالفرعون نفسه، أو بالرجال والنساء الذين أحاطوا به، أو كل من ساهم ولعب دورا في مدينة الشمس، إضافة إلى أنه يصعب التعرف عليهم، وتتبع شجرة أنسابهم. وعلى الرغم من الفجوات الكثيرة التي تخترق الفترة العمارنية[1] إلا أنها ما انفكت تغري الخيال، وذلك لأنها الفترة التي توافق المحاولة الأولى لتوحيد آلهة مصر القديمة، بما في ذلك الإله «آمون رع»، في شكل الإله الواحد «آتون».

ويلف الغموض العديد من الجوانب المتعلقة بحياة أخناتون ومن أحاط به. من تكون نفرتيتي؟ هل هي أميرة ميتانية أم إنها مصرية

---

(١) نسبة إلى تل العمارنة العاصمة الجديدة التي أنشأها أخناتون وكانت تدعى «أخِت آتون» أي أفق آتون (المترجم).

خالصة؟ ما كانت دواعي الفراق، إذا كان هناك من فراق أصلاً، بينها وبين زوجها الإله في آخر سنوات حكمه؟ ما هي ظروف موت من يعني اسمها «الجميلة أتت»؟ وأين يوجد قبرها؟

أما بخصوص أخناتون فالأمر أكثر تعقيداً. هل كان ضحية لخلل في نظام الإفرازات الغددية وهو ما منحه شكلاً خنثوياً حتى لا نقول أنثوياً؟ وهل مات ميتة طبيعية أم إنه اغتيل؟ وأين دفن؟ وهل كان متنوراً متبصراً فعلاً؟ وهل كان صاحب فكرة تقديس إله واحد دون الآلهة الأخرى أم إن ذلك الاعتقاد تواجد قبله، أم تراه كان وحياً من قبل أحد المحيطين به؟ جثة من تلك التي ترقد في القبر الذي أطلق عليه إسم KV55 والذي أعيد تحديثه سنة ١٩٠٧ من قبل المحامي الأمريكي المهتم بعلم الآثار المصرية ثيودور ديفيس؟

ثم يحضر بقوة السؤال الذي كان مثار نقاش طويل ونقطة خلاف كبرى بين المختصين وهو هل كان هناك نظام حكم مشترك؟ وفي حال الإيجاب، هل حكم أخناتون مع أبيه أمنحوتب الثالث[١] لمدة طويلة أم فقط لسنتين أو ثلاث سنوات؟

ليس من الدقة، نظراً لقصور معرفتنا الحالية، أن نجزم بأحد هذه الأمور، إذا ما وضعنا في الاعتبار غياب وثائق تشير إن كانت إحدى سنوات تولي الأب لزمام الحكم توافق سنة تولي الإبن لمقاليد الحكم أيضاً.

ويذهب العديد من علماء التاريخ إلى أن أخناتون حكم فقط مباشرة

---

(١) معروف أيضاً بالاسم اليوناني أمينوفيس.

بعد وفاة أبيه، ودامت فترة حكمه سبع عشرة سنة، كما يشير إلى ذلك سيريل ألدريد عندما يكتب: «هذه الفرضية تجنبنا الوقوع في العديد من المشاكل المستعصية من قبيل وجود بلاطين في الوقت نفسه لمدة إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة (المدة النظرية المعمول بها من أجل نظام الحكم المشترك)، وتزيح عن طريقنا الصعوبات المطروحة من مثل التحكم في السلط، وتقسيم المسؤوليات، ومواضيع أخرى محيرة ومعقدة بحسب طريقتنا الحديثة في التفكير، كوجود طقسين دينيين متعارضين تمارسهما فئتان وينظر كل طرف إلى طقس الطرف الآخر على أنه حرام»[١]. ومع ذلك، فبعض المؤشرات تدفعنا إلى الاعتقاد بأن سنوات الحكم الأولى لأخناتون كانت معاصرة للسنوات الأخيرة لحكم أمنحوتب الثالث.

من الصعب إذن الحكم بالجزم في أي من القضايا المطروحة، فالأسئلة ما تزال قائمة، والأهم يبقى إلى اليوم مدفوناً تحت الرمال المصرية.

يضاف إلى ذلك أن التواريخ المتعلقة بنهاية الأسرة الملكية الثامنة عشرة غير مضبوطة، الشيء الذي ما زال يثير الاختلاف بين العلماء حول تلك الفترة، وقد اخترت، شأني في ذلك شأن العديد من علماء الآثار المصرية، الاعتماد على سنوات الحكم أكثر منها على التقويم المتعارف عليه. وبالفعل فقد تم، إقحام نظام جديد من قبل كتاب الأسرة الملكية الثامنة عشرة، ابتداء من الدولة الحديثة، إذ قاموا بتحديد سنة اعتلاء أول

---

(١) Akhenaton, roi d'Egypte, présenté et traduit de l'anglais par Alan Zivi, Paris, Seuil, 1972

عاهل وتسلمه لمقاليد الحكم كنقطة انطلاق، وعاودوا الكرة مع كل ملك جديد. ومع أن العديد من اللوائح الملكية قد وصلتنا إلا أنه من المستحيل، واعتمادا على نظام تاريخنا الحديث، أن نصنفهم بطريقة مضبوطة، وبالتالي فسنوات حكم أخناتون تظل موضع شك أيضاً.

وأمام الغموض الذي يلف عدداً من أحداث وتفاصيل تلك الفترة، يفرض أحد الاختيارات نفسه، كما يتوجه إلى ذلك مارك كَابولد، وهو أستاذ محاضر في علم الآثار المصرية بجامعة بول فاليري بمونبوليه، وصاحب نصوص هامة عن أخناتون[١]، فقد شرح في أحد كتبه نظرية هامة إذ كتب «حتى نصقل النموذج التاريخي، كان اللجوء إلى الاستنتاج دائم الحدوث»، وكان يلجأ إلى التقدير كثيراً وهي الطريق التي اخترت سلكها.

ولم يكن عرضياً استعمال التعابير المعاصرة، وإن كان الأمر ينطوي على مفارقة تاريخية، كما أني تعمدت أن أمنح بعض المدن أسماءها الحديثة عوض استعمال الإسم المعتمد في تلك الفترة الذي كان في بعض الأحيان مشكوكا فيه، كأن أدعو طيبة[٢] «واسط»، أو ممفيس «من نفر»، وهو الأمر الذي كان سيؤدي في رأيي إلى خلق التباس وارتباك لدى القارئ.

إن كتابة سيرة حامل اسم «الملحد» تبدو مستحيلة، وبدا لي أن إضافة نفحة روائية أمر لا مفر منه، وأنا هنا أطلب عفو كل باحث عن الدقة في عملي هذا. فالكتب التعليمية المنجزة من قبل أعلام في علم

---

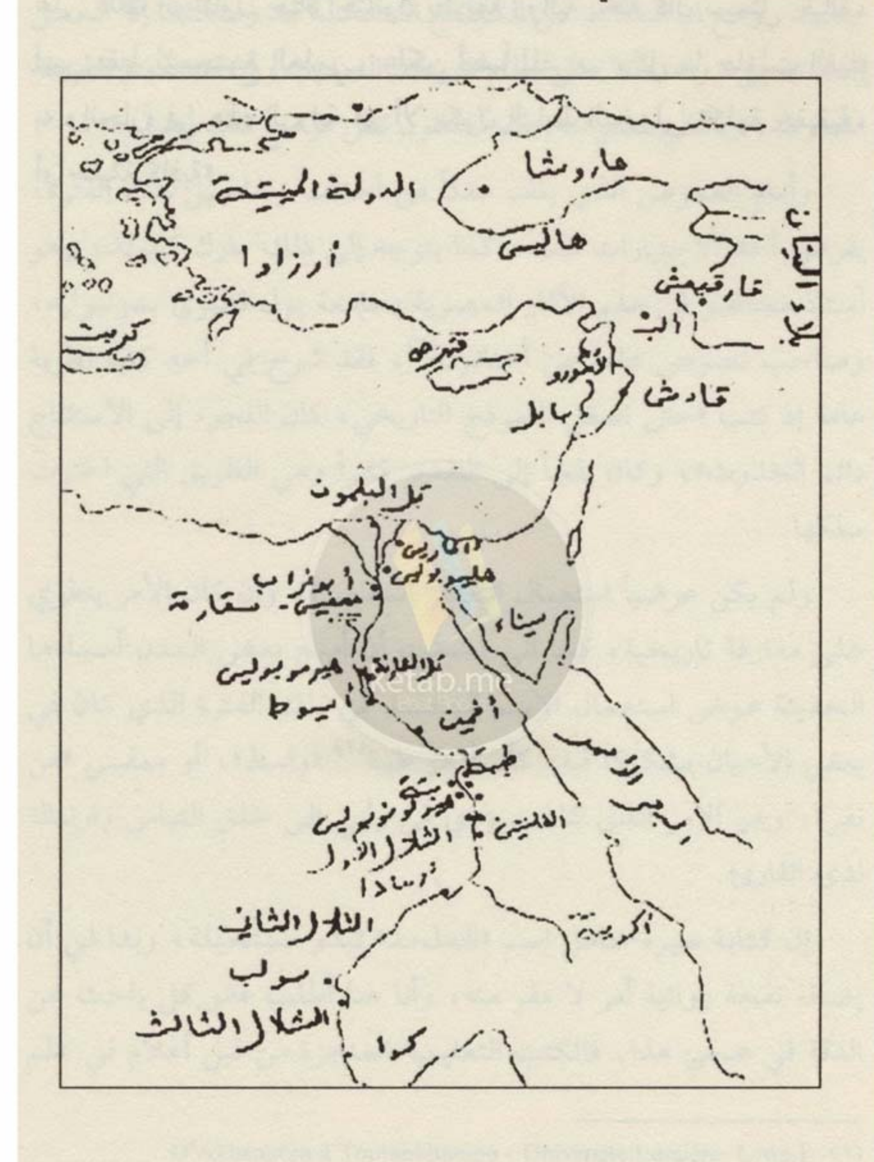
(١) D'Akhenaton à Toutankhamon - Université Lumière- Lyon,1

(٢) طيبة إسم أطلقه على المدينة مسافرون يونان.

الآثار المصرية متوفرة، وإضافة كتاب آخر، بحسبي، لم يكن مهماً، زد على ذلك أن تناول حياة أخناتون بطريقة روائية بحتة كان سيمثل خيانة، ليس فقط للمجتمع العلمي، ولكن أيضاً للقراء. وكل ما حاولت القيام به وإنجازه في هذه الرواية هو ألا يكون الرابط التخييلي «كذبة حقيقية، أو حقيقة كاذبة».

مصر والشرق الأوسط

في عهد أمنحوتب الرابع - أخناتون - أ



كرونولوجيا فراعنة الإمبراطورية الجديدة ـ بحسب دونالد ريدفورد:

الاسم	اللقب	التاريخ ق.م
أحموسيس الأول	نب پهتي رع	١٥٦٩ ـ ١٥٤٥
أمنتحب الأول	دجسر كارع	١٥٤٥ ـ ١٥١٤
تحوتمس الأول	آخپر كارع	١٥٢٥ ـ ١٥١٤
تحوتمس الثاني	آخپر كارع	١٥١٤ ـ ١٥٠٤
تحوتمس الثالث	من خپر رع	١٥٠٤ ـ ١٤٥١
حتشبسوت	ماعاط كارع	١٥٠٢ ـ ١٤٨٣
أمنتحب الثاني	آخبرو رع	١٤٥٣ ـ ١٤٢٦
تحوتمس الرابع	من خبرو رع	١٤٢٦ ـ ١٤١٦
أمنتحب الثالث	نب معاط رع	١٤١٦ ـ ١٣٧٧
أمنتحب الرابع أو أخناتون	نفر خبرو رع	١٣٧٧ ـ ١٣٦٠
سمنخ كارع	عنخ خپرو رع	١٣٦٠
توت عنخ آمون	نب خپرو رع	١٣٦٠ ـ ١٣٥٠
آي	خبر خبپرو رع	١٣٥٠ ـ ١٣٤٧
حور محب	دجسر خِپرو رع	١٣٤٧ ـ ١٣١٨

طيبة.. سنة حورمحب[1] الأولى.. الثالث من شهر أبيب[2].. اليوم العاشر.

من أنوكيس إلى كيبر

ليكن يومك رائقاً أيها الصديق. تسلمت ردك على خطابي وأشكرك عليه. نعم، وكما قرأت فأنا أعمل حاليا على كتابة نبذة عن «من كان

---

(١) آخر ملوك الأسرة الملكية الثامنة عشرة في تاريخ مصر القديم، وكان فرعونا مصريا حكم حوالي ٣٠ سنة بحسب ما ذكرت المصادر التاريخية (من ١٣٣٨ إلى ١٣٠٨ قبل الميلاد) (المترجم).

(٢) يعد المصريون بدون شك أول شعب وضع تقويما شمسيا دقيقا ومنظما. وكانت السنة تتكون من ٣٦٥ يوما مقسمة إلى ١٢ شهراً (٣٠ يوما لكل شهر)، وتضاف ٥ أيام في آخر السنة. وقد اعتمد المصريون في وضع تقويمهم على حساب نجم يظهر في الشمال في فجر أول أيام فيضان النيل، ويعرف نجم الشعرى اليمنية أو (Sirius) وقاموا بتقسيم السنة إلى ثلاثة فصول، في كل فصل أربعة أشهر، وقُسم الشهر إلى ثلاثة أسابيع في كل أسبوع عشرة أيام. أما الفصول الثلاثة فهي آخت وهو فصل الفيضان ويضم الأشهر التالية: توت، وبابه، وهاتور، وكيهك، والثاني هو بيريت وهو فصل الزرع وبدوره يضم أربعة أشهر وهي: طوبة، وأمشير، وبرمهات، وبرمودة. أما الثالث فهو فصل شمو وهو فصل الحصاد ويضم بشنس، وبؤونه، وأبيب، ومسرى. وسجلت السنة الفرعونية تأخيرا لأنها تضم ٣٦٥ يوما بينما تستغرق دورة الشمس ونجم الشعرى اليمنية ٣٦٥ وربع اليوم، وهكذا كانت تسجل السنة الرسمية تأخر يوم كل أربع سنوات.

مفيداً لآتون»[١]. لماذا تستغرب؟ فباعتباري من القلة الأحياء الذين عاشوا إلى جواره، كان لزاماً عليّ الاضطلاع بهذه المهمة. لقد تعرضت سيرته للكذب، وعبثت الأيادي بذكراه كثيراً، حتى خلصت إلى أنه من الضروري وضع الأجيال القادمة أمام صورة مغايرة عن تلك المتداولة في البلادين. تسألني ولمَ الآن بعد انقضاء ثلاث عشرة سنة على وفاته؟ بدوري أستغرب سؤالك. فعندما أعقبه سمنخ كا رع ومن بعده «الأب الإله» آي، اعتقدت أن الأفكار التي دافع عنها أخناتون ستتحدى عوامل الزمن لتبقى حية. كنت أعلم المعارضة القوية التي واجهتها أفكاره بين أشياع آمون من رجال الدين، كما كنت أعلم الكراهية الرابضة له. بيد أني تمنيت، وأعترف هنا بسذاجتي، أنه بمرور السنين ستزول الأحقاد، وسيتسلل حب الإله الواحد إلى قلوب الناس ليتخذ منها مقراً ومستقراً. اعتقدت أيضاً أنه وبعد وفاة سيدنا المحبوب، لن يجرؤ أحد من خلفائه على وضع إرثه موضع تساؤل، لكني أحسست بخيانة مضاعفة. فعلى غير المتوقع، حدثت الخيانة في وقت أبكر، ومن كل جانب، خاصة من أخيه توت عنخ آتون.

كان علي أن أملك الشجاعة حين شرع توت عنخ آتون في تجديفه واختار اسم توت عنخ آمون، وأقر هنا أني تراجعت ليس خوفاً على حياتي، فأنا في خريف العمر، ولم أجعل حياتي من أولوياتي أبداً، إنما خشيت على آنخري زوجتي وابني طهور. واليوم، وبعدما كاد صمتي يخنقني، لم أعد أستطيع الاستمرار فيه.

---

(١) قدمت العديد من التفسيرات لاسم أخناتون ومنها: «من كان مرض لآتون»، و«من كان لصالح أتون»، و«من كان لفائدة أتون»، وذهب عالم الآثار الإنجليزي سيريل ألدريد إلى اقتراح «روح آتون الفعّالة». ومن الصعب تحديد تعريف نهائي لاسم أخناتون.

صديقي كبير: كنت من القلائل الذين وقفوا على حقيقة درجة متانة الروابط التي جمعتني والفرعون الراحل. تعلم كم أحببته. أحببت بطء خطواته، وقده المائس، وكتفيه المشدودين، وصدره النافر، وفخذي المرأة لديه، وردفيه المكتنزين. أحببت الشرب من شفتيه الغليظتين، ولطالما رأيت النبل في وجهه النحيف.

وبما أنه كان سيدي وعشيقي، فقد أحببت كل شيء فيه. ومنذ التحاقه بالغروب الجميل، فقدت الشمس بريقها ووهجها، لذلك أنا حزين. حزين ومتيبس مثل حقول الليمون القاحلة في مواسم آخيت، عندما تخلف الفيضانات مواعيدها.

في هذه اللحظة بالذات التي أسود فيها ورق البردي أمامي، تنهال الضربات المجدفة في الكرنك. لقد دمرت كل الإطارات، وتهشمت كل النصب والتماثيل. هذا المقيت حورمحب ألقى أوامره إلى خدّامه الأشرار بطمس كل آثار الحبيب. وفي الغد ستقتلع كل أحجار المعبد المقدس، وستدنس كل رسوم جدرانه. وفي القريب، لن يظل شيء من سبعة عشر سنة من حكم أخناتون، وعدا الرياح التي تلامس الكثبان لن يهمس أحد باسمه.

من المعلوم لديك أن الإله تهوت[١] بعدما أوجد الكتابة، أنعم بها على الناس. واليوم، وبطراً بتلك النعمة، أخذ الناس يغتالون الكتابة. أخبرني لِمَ كل هذه الكراهية؟ ماذا فعل سيدي ليستحق هذه اللعنة كلها؟

---

(١) تهوت أو تحوت إله الحكمة والعلوم والفنون والاختراعات ومخترع الكتابة ومقسم الزمن. (المترجم).

أمازال ذاك الإحساس نفسه حياً حتى السنة الثالثة عشرة بعد موته؟ آه! لست غراً. إنه قلبي الذي يطرح السؤال، وكلانا أدرى بالجواب.

قبل الشروع في خط هذه النبذة، أتمنى أن أتقاسم معك الانطباعات حول تلك السنين السبع عشرة من الحكم التي احتفظت بذكراها. قد تخونني الذاكرة. فلا تتردد أرجوك، في تصويب أخطائي، أو ملء الفراغات التي ستحدثها كتابتي.

من جهة أخرى، لا تستغرب إذا ما رأيتني أشرح أو أبرر بعض العبارات التي هي اليوم في نظرنا واضحة جلية. غريب هو القدر الذي يأخذنا في أعنته إلى حيث يشاء. وما أدرانا، فقد تسقط كتاباتنا بين يدي قارئ يكون قد ألمّ به النسيان أو لم يسمع أبداً عن طقوسنا وعاداتنا، وأنا هنا لا أتحدث عن الغد القريب، ولكن عن المستقبل البعيد حين تغيّب الشمس الإمبراطورية كما تغرب كل الإمبراطوريات. عندما لن يتبقى من حكم الفراعنة إلا صور على الحيطان. فأنت تعلم، وقد كنت كاتباً ملكياً، أن القوة هشة، وأن الأقوياء يختفون مخلّفين مواقعهم للأكثر قوة منهم، وألاّ أحد سيبقى في الأخير إلا النهر، ذلك الإله الخالد، النيل. بعدها سأضع ما كتبت تحت تصرف حكمك مع علمي المسبق بعدلك، وخاصة بإيمانك، أو هل أقول «عدم إيمانك». ألم أعاملك دوماً كملحد عابث بالمقدسات؟.

إليك الآن قصة الإله اللعين. ولد أخناتون في السنة الثانية والعشرين لحكم والده أمنحوتب الثالث[١]. تدعى أمه المنحدرة من بلاد نوبة

(١) هناك اختلاف كبير حول تاريخ حكم أخناتون ومن الصعب تحديده وحسب بعض علماء=

الجنوبية، تيي. ومع أنه لم تسر في عروقها دماء ملكية إلا أنها كانت تنتمي إلى عائلة عريقة تنتهي إلى أحمس نفرتاري، تلك الملكة الإلهة التي كانت زوجة الفرعون أحمس الأول المشهود له انتصاره الكبير على الغزاة الهكسوس[١]. كان الملك يذكّر دوماً بأصلها في ألقابها إذ كانت تنعت بأنها «الوريثة»، و«المفضلة جداً»، و«سيدة البلاد كلها»، و«صاحبة السعادة التي تملأ القصر حباً»، و«سيدة البلادين»، و«عاهلة مصر العليا والسفلى». على كل حال، هل هناك أهمية لأصل الملكات؟ وهل من المهم الالتفات إلى إن كن من العامة أم لا؟ أليست الآلهة من تزرع في أحشائهن بذورها؟ أليس الإله من يأخذ مكان الفرعون في غرفة الأزواج فيخصب زوجته؟ وبعد تسعة أشهر، أليس أحد الآلهة من يأخذ بيد الملكة معيناً لها في وضعها؟ نعم، لا أهمية لأصل الملكات.

كانت تيي امرأة معكرة المزاج. لا، ليس هذا هو الوصف اللائق. كانت امرأة مشوّشة. كانت بالكاد بالغة في يوم عرسها، وكان زوجها يكبرها سناً. لكنها تمكنت وبسرعة من التخلص من رعونة الشباب وعدم الثقة إلى قوة الشخصية وامتلاك روح المبادرة مع احتفاظها بأحاسيسها الأولى. وبجعلها ملكة، أخلّ أمنحوتب الثالث بكل التقاليد الملكية القاضية بأن تكون زوجة الملك الكبرى[٢] ابنة فرعون.

=الأثار المصرية ومن بينهم دونالد ريدفورد، تمتد فترة حكمه من ١٣٧٧ إلى ١٣٦٠ قبل الميلاد، في حين يذهب آخرون إلى أنها تبدأ من ١٣٦٤ إلى ١٣٤٧ قبل الميلاد، وهناك من يرى أنها من ١٣٥٢ إلى ١٣٣٨ قبل الميلاد. كثيرة هي الفرضيات ومن الصعب حصرها أو التأكد من صحتها.

(١) هو اللقب الذي منح لغزاة آسيويين احتلوا مصر من سنة ١٧٣٠ إلى حوالي ١٥٦٠ قبل الميلاد.

(٢) لقب يطلق على زوجة الفرعون يوم تتويجه (المترجم).

وباختياره ذاك عبر عن شجاعة كبيرة متجاهلاً الانتقادات الكثيرة التي وجهت له، والزلة الدبلوماسية. في ليلة الزفاف، قام بإخراج عدد مهم من الجعارين التذكارية الكبيرة حيث لم يتردد في ذكر أصول الملكة المتواضعة تحت اسمها. فيما بعد، ستطلق على تلك الجعارين «جعارين البحيرة» وهو الإسم المستوحى من حوض الري الكبير المحاذي لقرية الملكة جاروخا. وهكذا فرض الفرعون اسم تيي من نهرين[1] إلى صيدون ومن مجيدو إلى قلب بابل.

وكان والد تيي يدعى يايا وهو اسم غير شائع عندنا، في حين حملت أمها اسم تيويو. وكانا ينتميان معاً إلى صفوة تنعم بالسعة والرخاء وقدرٍ من العلم. كانت تيويو السيدة في حريم آمون في طيبة، كما أنها كانت تشغل منصباً مهماً في حريم الإله مين[2] في أخميم. أما يايا فبعد أن ارتقى في سلالم الإدارة، احتل منصب مساعد جنرال في وحدة العجلات الحربية. وكان الفرعون يقدر هذين الزوجين تقديراً خاصاً حد أنه منحهما ميزة غير مسبوقة وذلك بتفويت غرفة جنائزية لهما بوادي الملوك.

وكان لتيي أخ يدعى أنين. وكان رجل دين مؤثر إذ شغل منصب «النبي الثاني لآمون»، و«كبير العرافين». وبالنسبة إلى سنه فقد توفي وهو بعد شاب قبل موت أخته بسنوات، وعوّضه في مناصبه ومهامه ساموت، ووري جسده الثرى في مقبرة غرب طيبة.

---

(١) أحد الأسماء التي تطلق على حدود المملكة الميتانية.

(٢) إله مدينتي قفط وبانوبوليس، وهو حامي طرق الصحراء الشرقية. وكان يمثل على شكل رجل يضع قلنسوة بريش مرتفع مثل آمون. وهو إله مخصب.

ومع توالي السنين، وجرياً على عادة الملوك الذين سبقوه، قام الملك بإنشاء حريم واسع تذبل فيه أعداد كبيرة من زوجاته المصريات والأجنبيات. بعضهن كن ممن قدّمن له على شكل هدايا بينما كان بعضهن الآخر بنات التابعين. وكان المكان أشبه بخلية نحل تطن فيه الأخوات والعمات والخالات وما لا يحصى من الأطفال، إضافة إلى خدم يسهرون على راحة الجميع. ولم يشكّل كون المرأة منهن زوجة ثانية أو حتى قاصراً انتقاصاً من قيمتها، على العكس من ذلك تماماً، فمجرد أن الملك اختارها يعد امتيازاً كبيراً.

على أي، لم تكن لتيي أي علاقة بتلك المخلوقات، إذ كانت زوجة الملك الكبرى، وهي الوحيدة التي تحتل ذلك المنصب. وقد كانت السباقة في تبني قرني هاتور وكرة الشمس في حلاقتها الرسمية. وهي الأولى أيضاً التي ألفت نفسها شريكة في استعمال السيستر، تعلم تلك الآلة ذات المقبض المنمق برأس هاتور[١]، والقادرة على إصدار موسيقى تريح الآلهة عند الصلاة. وطيلة فترة حكمها، أظهرت تيي إخلاصاً مثالياً لابنة رع معاط المجسدة للحقيقة.

صديقي كيبر: أتصور أنك تقرأني مبتسماً ومتسائلاً عن دواعي ذكري لتفاصيل بسيطة حتى لا أقول غير ذات جدوى، لكن لكل شيء في هذا الموضوع أهمية خاصة. وقدر سيدي أشبه بفسيفساء شكلت من قطع متناقضة تمنحك الانطباع ألا شيء مشترك يجمعها، بينما هي في الواقع موثوقة بحميمية إلى بعضها.

---

(١) هاتور إلهة قديمة، توجد آثار بداية ذكرها في مخطوطات قديمة وهي إلهة متعددة الوظائف: إلهة الحب والفرح، والجمال والموسيقى والرقص...

فلنتحدث الآن عن والد أخناتون.

كان أمنحوتب متوسط القامة، وبرأيي كان أميراً بدون بريق كبير. وكان وجهه يحمل أهم ما يميز مصريي الجنوب. فقد كان بذقن محدودبة قليلاً كمقدمة حذاء، وأنف مسطح، ومثل زوجته كان ذا عينين ضيقتين. ومع أنه كان يحب الصيد كثيراً إلا أنه لم يكن يحمل من صفات المحارب الصنديد شيئاً. لكنه لم يكن محتاجاً ليحارب ما دامت المملكة كانت تنعم بسلام بعدما رُدع كل أعداء مصر.

فقبل وقت طويل، غزا توت ميس الأول سورية واحتل ضفاف الفرات. كان مدفوعاً برغبة قوية لاكتشاف نهر يجري بعكس مياه النيل. وقد كتب في لوح حجري «رأيت الماء ينعرج هابطاً صاعداً». لم يجرؤ ملك بابلي أو ميتاني[١] على التفكير في غزونا، ولم يكن أحد يملك الشجاعة والقوة لمهاجمة أراضينا مادمنا كنا نملك أعتى قوة في العالم. فقد أخضعنا فلسطين والسودان التي امتدت حدودها حتى الصومال. ولم تتخلف قبرص وجزر اليونان عن دفع الجزية لنا. لذا كانت بيوت المال ملآى بالذهب.

وكانت مصر في أوجها، وحركة بسيطة منا كانت كفيلة لجعل الآخرين يرتجفون. كانت طيبة مركز العالم، وكان العالم ملكاً لنا. وكانت تجارة العاصمة قد انهارت تحت أرجوان صيدون، وأرز فينيقية،

---

(١) من الصعب تحديد موقع المملكة الميتانية. وهو الشيء الذي خلق اختلافا كبيراً لدى علماء التاريخ. لكن يمكننا افتراض أنها كانت أهم مملكة ما بين القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد على ضفاف نهر الفرات. وكانت عاصمتها التاريخية تدعى «وشوكاني».

وعقود وأساور تير، والبخور والمر. وإذا لم يكن يحبنا أحد فقد كان الكل يخشانا وهو الشيء المثالي للحفاظ على التفوق على الشعوب. وكانت أعين جنودنا ترقب كل شيء من مياه الدلتا شمالاً وحتى أول شلال جنوباً. أما أمنحوتب الثالث فقد عمل فقط كيما يحافظ على تلك المكتسبات، ويبدو لي أن الإنجاز العسكري الوحيد الذي يمكن أن يحسب له هو قمع ثورة في بلاد نوبة، مع أنه كان يفتخر أنه ذهب أبعد من كل سابقيه في حركته الحربية، وهو أمر يفتقد للمصداقية لأنه كان يبلغ من العمر آنذاك إثنتي عشرة سنة فقط، والحقيقة أن الفضل الكبير يعود إلى نائب ملك كوش[1]، مريمس. وأياً كان ما حدث أو ما نسب له، فمجرد طلب استغاثة من قبل أحلاف مصر، مثل طلب ملك جبيل ريب عدي، وإذا ما استجاب له الفرعون، فما كان ليتحرك حيث كان يكفيه إرسال دورية وبعض الذهب لتعود الأمور إلى سابق عهدها. ومثل تلك المبالغات ما كانت لتؤذيَ أحداً، فالغرض منها كان رفع شأن الملك في نظر شعبه. وهكذا كانت الأمور تسير دوماً. أذكر الآن ذاك الجعران التذكاري الذي كان يصعد مثل وعود سكران ثمل. استهوتني قراءته في تلك الفترة حد أني لم أستطع منع نفسي من نسخ ما كتب عليه حرفياً. وإليك ما جاء فيه:

أعلمت أن مجموعة من الحيوانات المتوحشة كانت في منطقة وادي كينيح في الصحراء، وكان الفرعون قد توجه ليلاً على متن السفينة الملكية باتجاه الشمال، وقطعت

---

(١) كانت تطلق كوش على بلاد نوبة، التي تقع في رابع شلال جنوبا من النيل حيث تأسست مملكة ابتداء من الألفية الثانية قبل الميلاد وعاصمتها نباتة.

السفينة مسافة مهمة لتصل الوادي صباحاً. تقدم الملك قواته العسكرية ممتطياً صهوة جواده، ودعي كل الموظفين والعسكر للعثور على الحيوانات المفترسة، وانضم لهم حتى الجنود حديثو الالتحاق بالخدمة، وأعطى الملك أوامره بأن تقام السياجات ببناء الحيطان وحفر الخنادق. فانقض عليها جميعها، وقد كانت في مجموعها مئة وسبعون ثوراً. في ذلك اليوم، تمكن الملك من اصطياد خمسة وستين ثوراً. أمضى الملك أربعة أيام في الصيد دون أن يريح جياده. واصطاد مرة أخرى أربعة ثيران ليرتفع العدد في النهاية إلى ستة وتسعين حيواناً مفترساً[١].

إن اصطياد ستة وتسعين ثوراً في أربعة أيام فقط أمر يجعلنا نقهقه عالياً. لم تحدد هذه السطور السلاح الذي استعمله الفرعون ليحقق مثل هذا الإنجاز. ثم إن المبالغة في قدرات سيد مصر كانت أمراً عادياً. فعلى الملك أن يثبت قوته، كل قوته. وكانت بعض ألسنة الأفاعي تجد متعة في أن تهمس في دور الميسورين في طيبة بأن أم أمنحوتب الثالث كانت أجنبية، وأنها كانت ميتانية، وبأن اسمها موت إيمويا، أي مو في قاربها المقدس، وهو اسم مصري خالص، منح لها عند التحاقها بالبلاط. لقد كانت غيبة فقط يلجأ لها جلساء الملك عندما يمسهم الملل، وكلماتهم أقل قيمة من خشبة جوفاء تذروها مياه النيل.

وبمناسبة الحديث عن هذه المرأة، هناك أسطورة أخرى حولها.

---

(١) Pharaons, Philipp Vandeberg. Editions Omnibus 2000.

يحكى أنه في القديم كان ملك الآلهة آمون رع قد افتتن بفتاة تقطن في مدينة بالجنوب تدعى طيبة، فأرسل تهوت، رسوله صاحب رأس طائر أبي فردان، «الثرثار الكبير» الذي يقال إنه ينقل الرسائل بمنقاره المختل، فاكتشف هذا الأخير أن موت إيمويا كانت بالفعل أجمل فتيات البلاد إلا أنها كانت متزوجة من الملك تهوت ميس الرابع، فأوجد آمون رع حيلة ليستميل قلبها. فتسلل ليلاً إلى مخدعها، واخترق عطره الإلهي حاسة شمها فاستفاقت. وما إن فتحت عينيها ورأته حتى اهتز قلبها لوسامة آمون رع، ودخل حبه إلى قلبها. وانثال عطر الإله في كل أرجاء القصر. عطر عذب مثل عطور بلاد بونت[1]. انقضت تسعة أشهر فوضعت موت إيمويا مولودها. واحتراما لإرادة آمون رع، مُنح الوليد اسم أمنحوتب الثالث تكريماً لاسم جده من جهة أبيه.

فلندع الأساطير والآلهة ولنعد إلى عالم البشر.

فها هو الشفق يمتد داخل منزلي، وأشم رائحة السمك المقلي وحبات بذور اللوتس المشوية. إلى اللقاء يا صديقي. يا أخي كيبر.

من كيبر إلى أنوكيس

أنوكيس أيها الأخ. أنت تهذي، وتداهن. رغبتك الجامحة في التنقيب حتى في عمق البشاعة عن شيء جميل تشوش رؤيتك للناس

(١) بلاد كانت المصدر الأساسي للبخور، ويظل إلى اليوم موقعها لغزاً محيراً لعلماء الآثار في الشمال الشرقي لإفريقيا. وهي بلاشك توجد في منطقة ما على الساحل الصومالي الحالي.

وللعالم. اسمح لي بدءاً أن أخبرك بأن الملكة تيي كانت امرأة سيئة. نعم، أعلم أن العبارة صادمة لك لكني لم أجد غيرها، وإن لم أزح هذه الصخرة عن صدري، فسأجدني مجبراً على الذهاب بعيداً في ردي عليك. ومادمت قد أدركت بعض الراحة، دعني أشكرك على رسالتك السابقة. وأنا متأثر للثقة التي منحتها لي وليس لأحكامك الخاطئة على معتقداتي أو «غياب الإيمان». لكنه كتب لنا أننا سنظل صديقين برغم اختلافنا مادمنا معاً على أرض كيمي. وكما أرى فإنك لم تتخل عن عاداتك المزعجة، وجرعاتك الزائدة من السخرية، وإن كنت أعترف بأنها مصحوبة برقة متناهية، لكني ماكر حد أني أستطيع تبيّن الضربة خلف المداعبة. مهما يكن، فقد فات الأوان لتتغير. لكن هل هناك سن ملائمة للتغير؟ ابني نارمر الذي تعرفه جيداً، احتفل مؤخراً بسنة ميلاده الثلاثين ومازال يحتفظ بالسلوك ذاته غير المحتمل.

فلنعد إلى موضوعنا.

أقول إن تيي كانت امرأة سيئة ومتسلطة. وأضيف إلى ذلك نزعتها في فرض قانونها على كل محيطها، إذ إنها كانت تسعى إلى إبراز آرائها حتى عندما لا يطلب أحد منها ذلك. أنت محق في أن الدماء التي كانت تسري في عروقها لم تكن ملكية، وأنها عند مولدها لم تحظ برقة بنات قادش[1] أو جمال الصيدونيات. هل تقول إنها مشوشة؟ هل رأيتها كذلك؟ مدهش فعلاً أن أعود إلى اكتشاف التسامح الذي طالما سكنك. لقد رأيتها مراراً، وما أزال أراها كأن ذلك حدث بالأمس فقط، بعينيها

(١) حمص الحالية.

الضيقتين قليلاً، وطاقتي أنفها الواسعتين، وذقنها الممدود وبغمازتيها. بفمها العابس حيث شفتان دقيقتان وشديدتان في آن تمنحان شعوراً بالازدراء الدائم. مزدرية. نعم، هذه هي الكلمة التي كنت أبحث عنها. هذه الكائنة معجونة بالزراية. لم تكن لتدع فرصة تمر دون أن تتباهى، خلافاً لما كان شائعاً، إلى جانب زوجها الممجد. كل المناسبات كانت جيدة للظهور بالنسبة لها. وكان الفرعون يسمح لها بذلك، ولا داعي للاستغراب هنا إذا ما وضعنا في الحسبان قوة تأثيرها عليه، إذ إن كل من عرفه يستطيع أن يؤكد أن أمنحوتب كان خاضعاً لها. وما دمت قد أتيت على ذكره، أتساءل كيف سمحت لنفسك أن تقول إنه كان «أميراً بلا بريق»؟ هل تملَّك عقلك أم إن حبك للذي لقب بـ«من كان لفائدة آمون» شوّش على حكمك؟ لا مجال للجدال حول أمنحوتب، فقد كان ملكاً عظيماً، ذا نخوة وشبق، أم تراك نسيت أنه أوصل بلادنا إلى ذروة مجدها؟

فمنذ أن أُجبر منافسونا، وأنا هنا أقصد البابليين والميتانيين، على خلق علاقات منسجمة معنا، زادت ثرواتنا وامتلأت بلادنا بطولها وعرضها بالذهب والكنوز، وازدهرت الأعمال والمشاريع حتى إن غياب العمالة لدينا دفعنا إلى جلب عمال من الخارج، وأنت تعلم أنه أمر يزعجني لما يتصف به الأجانب من أخلاق سوقية، كما أنهم لا يكفون عن التعرق وأجسادهم مزغبة. زد على ذلك أن السلطات تسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية وإظهار طقوسهم والاحتفال بها. كنت أؤمن دوماً أن الإفراط في الحرية يضر بالحرية. سأترك هذا الموضوع وإلا فإني لن أنجو من نعتك لي بأني كائن بلا قلب. من جهة أخرى، أعترف أن لهؤلاء العمال الأجانب بعض الجوانب الإيجابية. ذكرت

حوض الري الواقع في جاروخا. لقد استلزم حفره مئتين وخمسين ألف عامل أغلبهم من الأجانب، وعلى اعتبار ضخامة الحوض، فما كان يقدر للملكة تيي وزوجها أن يبحرا في حياتيهما في تلك المياه، بدون تلك السواعد التي أنجزت العمل. هل تذكر النص المكتوب في تلك الفترة:

في السنة الثانية، وفي اليوم الأول من الشهر الثالث لموسم آخيت، قام صاحب الجلالة بإعطاء أمره بحفر بحيرة من أجل زوجته الملكية الكبرى تيي، بطول يصل إلى ثلاثة آلاف وسبع مئة ذراع[1]، وعرض يبلغ ستمئة ذراع في مدينة جاروخا، واحتفل صاحب الجلالة بتدشين البحيرة في اليوم السادس عشر من موسم آخيت الثالث. ومن أجل ذلك، عبر جلالته البحيرة على متن السفينة الملكية آتون المتلألئة، مدفوعة بالمجاديف[2].

أذكر أن الرمال التي جُرفت والتي كانت على ارتفاع مهم زرعت فيها أشجار بديعة وخلاصات نباتات فريدة. وأسرك أمراً، فقد رأيت في تلك الهدية حماقة كبرى. كم أريق من عرق، وأجهدت السواعد من أجل أن تمنح امرأة جولة على ظهر سفينة! العشاق مجانين فعلاً. الشكر لآمون أني لم أصب بمرض الحب. آه! حقيقة، إني أحببت كثيراً

(١) لقياس المسافات اعتمد الفراعنة على الذراع الملكية والتي تصل إلى ٠,٣٢٥ متراً أي ما يقارب ٢٨ أصبعا.
(٢) CF, Pharaons, op, cit

زوجتي الراحلة كفيتو ولكن أن «تحب كثيراً» ليس مثل أن تحب، ليس حد أن تصاب بالطيش فتفتك بالقلب والجسد.

نعم، كانت مصر في عيون العالم ميناء، حيث التجارة مزدهرة والطلبات كثيرة على الفنانين، كما أن البغايا بلغن ذروة كسبهن اليومي. ولم تكن الدولة في أي فترة من الفترات بمثل ذلك التنظيم، كما أن خزائن الأموال لم تكن أبداً مملوءة بمثل ذلك الكم. كانت فترة تحققت فيها العديد من المشاريع الهامة والأعاجيب. وإذا كان جوزر أو خوبس قد شيّدا هذه الصروح التي نراها اليوم، فقد تمّ ذلك من أجل غاية دينية محضة. أما أمنحوتب فقد كان يبني فقط من أجل الترف وإرضاءً للذته الشخصية. خلاصة القول أن العيش كان ممتعاً في البلادين في تلك الفترة.

أعود إليك الآن أيها الصديق. قل لي: هل أتت الشيخوخة على ذاكرتك وفعلت أفعالها فيها لتسقط ذلك المهندس المعماري الذي يحمل اسم الفرعون ذاته، أمنحوتب ابن الكاتب جابو؟ لقد شكّل والفرعون ثنائياً جميلاً أهم من ذاك الذي مثله مع الوباء المدعو تيي. وكل من عرف ابن جابو، وأتشرف بكوني أحد هؤلاء، شهدوا أنه لم يكن حكيماً بين الحكماء فقط، وإنما ساحر موهوب، وهو ما يفسر دون أدنى شك أنه عين رئيس أسرار كيب. تذكر طبعاً ما معنى كيب، وإذا ما نسيت فإني أتطوع لأذكرك بذلك.

كان ابن جابو ينحدر من وسط متواضع في مدينة أتريبيس في دلتا. ارتقى في سنوات شبابه الأولى ليصبح كاتباً للمجندين، أي أنه كان مسؤولا عن القوات المكلفة بالسخرة والتجنيد. بعد ذلك سيصير رئيس

العمال المكلفين بكل أعمال الفرعون. فهو من أقام «دار نب معات رع رونق آتون»، ذاك القصر الفاخر الواقع في الضفة اليسرى للنهر الذي يستحوذ إلى يومنا هذا على إعجاب المسافرين. يحف اللوتس المنثور كل جوانب البركة حيث تسبح الأسماك والبط. وبين الأغراس تسيح الفراشات والعصافير بألوانها الزاهية. وكان سقف القاعة الكبرى يشبه سماء زرقاء تحضن الحمائم والفراشات الحمراء. وكان الذهب يسطع في الجدران، ونباتات الزينة الخضراء المتفتحة تعفو عن روائح البخور والمر. لقد كنت شاهداً على بناء تلك الإقامة. وما تزال عيناي تحتفظان بصورة تلك القوارب المقعرة الملأى بالغرانيت المنطلقة من بلاد كوش صعوداً عبر القناة التي تربط النيل بالورش، وخشب الأرز المجلوب من فينيقيا والمرمر والجبص. لقد استعملت أجود المواد وأحسنها لتنتزع من رمال الصحراء هذه العمارة الملكية!

ويحسب أيضاً لابن جابو المعبد الجنائزي الذي يصله بالقصر رواق بديع. مملكة الجمال وميناء الاتقان والانسجام. كمال مطلق ولاشيء ناقص. بوابات الهياكل، قاعات متقنة، محاريب، ومخازن حول فناء داخلي من الآجر، وبيوت للمؤونة، وأبنية مختلفة. وداخل الفناء برج بشرفات. شيّد البناء كله بحجر أبيض دقيق ومسنن، وتستقبل بحيرته المياه الصاعدة من النيل حيث يمكن رؤية الأسماك والبط.

وتسطع جدرانه مع مطلع الشمس وتبرق، وتصيب أبصار المسافرين والتائهين بالعمى. وعلى العكس من ذلك تماماً، تتوهج الفضة التي بلطت بها الأرض وكأنها بحر من المعدن المتجمد عند الشفق. ورصت في قلب المعبد نصب وتماثيل الملوك والآلهة المصنوعة من

الغرانيت،لتحاذي الزرقة وتمنح الانطباع بأنها تصلي لآتون، بيد أن المنظر الذي شدني إليه هو تمثالان ضخمان وضعا عند مدخل المعبد في آخر الرواق الذي اصطفت على جانبيه تماثيل لابن آوى. شيد كل من التمثالين بقطعة حجر واحدة وفاق علوهما ثلاثين ذراعاً وانتصبا على قاعدة حجرية ترتفع كل واحدة منهما أربع أذرع عن الأرض، ويرمزان إلى الملك في جلوسه إلى جوار الملكة، ويمكن أن يريا على امتداد الأفق. حارسان بالليل كما بالنهار. كل هذه الروائع ما كانت لترى الوجود لولا إرادة ملك نعته بـ«أمير دون بريق». مقطع آخر في خطابك فاجأني. هل أنت ساذج مثل حديثي الولادة؟ هل أنت طفل مثل الطفولة؟ هل تغضب من خيانة توت عنخ آمون أو حورمحب؟ هل نسيت أن الإنسان يعض اليد التي تساعده؟ الحذر. الحذر من الكل. من الناس وهم الأخطر، ومن الأشياء ومن الحيوانات أيضاً. سأنعش ذاكرتك بوصايا الملك الشيخ أحميميت لابنه بعدما نجا من مكيدة في قصره. أقرأها كل يوم ونسختها لك هنا:

إسمع ما أقوله لك

لكي تكون ملكاً على الأرض

وتخضع لك البلدان

ولتنجز الأفضل والأحسن

تسلح ضد مرؤوسيك

ابق وحيداً ولا تقترب منهم

لا تحب أخاً

لا تعرف صديقاً

لا تؤمّن أحداً أسرارك

لا شيء صحيح في كل هذا

كن حارساً على قلبك عند نومك

لأنه ليس للإنسان أحد في يوم نحسه

أعطيتُ الفقراء وأطعمت اليتيم

واستقبلت التافه كما لو كان مهماً

لكن الذين أكلوا من خبزي ثاروا علي

ومن مددت له يدي أحدث الرعب

أولئك الذين ثوبوا من كتاني الناعم نظروا إليّ كما ينظرون إلى عدو

وأولئك الذين تعطروا من عنبري خانوني[1].

تأمل كل هذه الأشياء يا صديقي أنوكيس.

سنعاود الحديث حول كل هذا، حول هشاشة البشر وضعف الأقوياء. في انتظار ذلك إحترس من الإكثار من بذور اللوتس المشوية فهي تتسبب في انتفاخ واضطراب البطن بالغازات، وكرشك لم تعد تحتمل.

(١) CF Adolf Erman et Hermann Ranke La Civilisation égyptienne, Payot 1994, p,504.

القاهرة، هذه الأيام

توقفت جوديت فابر عن القراءة، ورفعت ناظريها قاصدة الرجل الجالس في الكرسي المقابل لها على الطاولة.

ـ ما رأيك إذن بروفيسور لوكاس في هذا التبادل الإنشائي. أليس مدهشاً؟

رفع كتفيه واكتفى بابتسامة ودودة.

عادت لتقول:

ـ لم تصدق ذلك. لم تصدق ذلك من البداية أبداً.

ـ أي رد كنت تأملين؟ ألست مستعداً لمراعاة كل فرضياتك؟ ألم أكن مطرقاً مستمعاً؟

أمالت جوديت رأسها إلى الخلف قليلاً، وأغلقت عينيها لتحتمي من أشعة الشمس المتسللة من النافذة المشرعة قليلاً.

وكعادتها في الخارج، كانت العاصمة المصرية تطن، وترزح تحت زحمة السير الخانقة والغبار المتصاعد. وبمحاذاة ميدان التحرير، وهي بلا شك واحدة من الساحات الأكثر ازدحاماً على وجه الأرض، شيدت

دار الآثار المصرية بالقاهرة التي لم تكن بمكان الاشتغال المثالي، حيث تعطل بها نظام التدفئة منذ يومين، ولا شيء غير معتاد في ذلك، فالأشياء التي تعمل دون خلل في مصر هي الأشياء التي لم تصنع بعد.

اعتدلت جوديت في مكانها وسألت بصوت تعب:

- التمثالان الضخمان اللذان ذكرهما المدعو كيبر، والمرتفعان بأزيد من ثلاثين ذراعاً. أعتقد أنهما تمثالا ممنون؟

- بدون شك. إنهما أو بالأحرى كانا تمثالين صنعا من قطعتي حجر يجسدان الملك والملكة عند مدخل المعبد الجنائزي الموجود في الضفة اليسرى لطيبة، نحتا بأمر من المهندس بالجبل الأحمر، قرب هيليوبوليس، ونقلا لأزيد من سبعمئة كيلومتر عبر النيل ضد التيار. يا للشجاعة! عندما رأى اليونانيون التمثال المجسد لأمنحوتب الثالث ظنوا أنهم تعرفوا على ممنون، بطل طروادة الذي بكته أمه إيوس، إلهة الفجر، حتى مطلع النهار. ومن هنا أتت تسمية «تمثالا ممنون». ليس هذا كل شيء، فبعد الزلزال الذي أحاق بالمعبد ودمره، تصدع جزء من التمثال الضخم الموجود في الشمال المجسد للفرعون وانهار. ومنذ تلك الفترة برزت ظاهرة غريبة. فالحجر المتصدع الذي تدفئه شمس الصباح يهتز ويصدر عنه ما أضحى يعرف بـ«غناء ممنون». هل يبعث جسد البطل الطروادي كل صباح عندما تظهر «إلهة الفجر»؟ ألا ترين أنها حكاية جميلة؟

قطبت جوديت حاجبيها وردت:

- هل انطلق لسانهم؟

وافقها. فعادت للقول:

ـ أنت مقتنع بأن هذه المراسلة مزورة.

ـ هي مزورة بكل تأكيد.

مدت يدها إلى قنينة وضعت على جانب الطاولة، وصبت لنفسها كأساً من عصير المانغا المحتفظ بطراوته. شربته مستمتعة بلذته. فالمانجا المصرية لها نكهة ورائحة تتفرد بها في العالم.

استطردت:

ـ أتساءل إن لم يكن جانبك الشكّاك هو الذي يجعلك حذراً ويمنعك من التراجع.

أشارت بسبابتها إلى أسفل ذقن محدثها وأضافت:

ـ مشكلتك بروفيسور لوكاس، هي أنك فرنسي.

ـ هل تعتقدين أنكم أيها الألمان أقل شكاً؟ فلنكن موضوعيين، ألسنا رجال علم قبل كل شيء؟ قابلتك في مسيرتك المهنية القصيرة، مثلي تماماً، مجموعة من التلفيقات. أحجار مزورة، جعارين مزورة، اكتشافات مزورة. تذكري إنسان بيلتداون!

اعتلت الحيرة ملامح جوديت فأردف:

ـ بطبيعة الحال. كيف لك أن تعلمي؟ فأنت مازلت صغيرة السن و...

قاطعته بحسم:

ـ كم تبلغ من العمر بروفيسور لوكاس؟ خمس وستون سنة؟ ستون؟

ـ أنت تلاطفينني. تسعة وستون بالتمام والكمال.

ـ أنا أبلغ من العمر ثمانية وعشرين سنة، كفاك رجاءً من لعب دور الوصي.

أطلق عالم الآثار المصرية ضحكة ثم قال:

ـ معك حق. أنت فتاة راشدة. هل أستطيع أن أتابع حديثي الآن؟ فهذه القصة من بين الفضائح الكبرى في علم الحيوانات والأشجار القديمة المتحجرة لبداية القرن العشرين. في الثامن عشر من ديسنبر لسنة ١٩١٢ قام آرثر وودورد، وهو عالم حيوانات وأشجار قديمة متحجرة ورئيس الجمعية الجيولوجية بلندن، بالإعلان في مدرج بمقر الجمعية، برفقة جيولوجي هاو يدعى تشارلز داوسن، أمام جمع نبيل من العلماء بأنهما اكتشفا في بيلتداون، جنوب لندن، قطعاً كثيرة من جمجمة بشرية، إضافة إلى فك وبعض الأسنان، وأن كل ما وجد يعود إلى إنسان قديم عاش قبل حوالي مليون سنة. بعد أن تلاشت آثار المفاجأة عن الجمع، أخذ وودورد يعيد تركيب رأس إنسان بيلتداون أمام زملائه الذين احتفوا به. وأصاب بسبب ذلك مجداً، وصارت رفاة بيلتداون الأشهر في العالم!

ـ الأمر مسل فعلا. لكن ألم يكن الأولى لك أن تضرب مثالاً آخر؟ أتذكَّر استياءك والشعور بالضغينة الذي أحسسته إزاء خادع إنكلترا.

تجنب فيليب لوكاس تعليقها فأضاف:

ـ ومع هذا، وبالنظر إلى الاكتشافات اللاحقة، إنسان نيوندرتال أو إنسان جاوة، فقد شكل إنسان بيلتداون مشاكل للعلماء. لقد كان مثل لغز يرفض أن يتساوق مع هذا الكل. وكان أشبه بقطعة مرفوضة. تعاقبت السنون على ذلك الإعلان، وفي سنة ١٩٤٨، وعن سن يفوق

الثمانين، وفاقداً لبصره، أخذ وودورد يملي كتابه الأخير The Earliest Englishman «الإنجليزي الأول»، ليفارق الحياة بعد ذلك مباشرة.

ـ أكان ذلك في مصلحته؟

ـ لا تظني ذلك. ففي سنة ١٩٥٣، أخذ ثلاثة علماء مشهود لهم بالكفاءة في العالم الإذن بتحليل تلك البقايا، وسجلوا أن الجمجمة والفك صيغا بطريقة صناعية بواسطة سائل الكربون والبوتاسيوم للحصول على لون العصر القديم. وكشفت التحاليل الميكروسكوبية أنه إذا كانت الأضراس والأنياب قد بدت مشابهة لتلك التي لدى كبار السن فإنها تم بردها بغاية أن تصير مثل الأسنان البشرية. وكان البياض فقط ما بدا خلف تلك الأسنان. الاكتشاف أدى إلى الوقوف على حقيقة مفادها أن العلماء كانوا مخدوعين لمدة إحدى وأربعين سنة، وأن آدم الإنجليزي كان محض تلفيق!

فقد كانت الجمجمة لرجل معاصر، والفك لقرد كبير، أما بقايا الثدييات المكتشفة في الموقع، ومع أنها كانت أصلية وحقيقية، فقد جلبت من مكان آخر ولم تكن أبداً من إنجلترا. فأحد الأضراس كان لجاموس أتي به من مالطا، وآخر لفيل أُحضر من تونس. وستكتشف الحقيقة كاملة سنة ١٩٥٤ وستكون نهاية القصة عندما سيعرض رفاة إنسان بيلتداون لاختبار بالكربون ١٤، ليخلص إلى أن الجمجمة تنتمي إلى العصور الوسطى.

أشار إلى الوثيقة وقال مستنتجاً:

ـ بالنسبة لي، يمكن أن تكون هذه قضية بيلتداون أخرى. أشعر

بالتلاعب في أكثر من موضع، وقصة ذاك الفلاح الذي عثر عليها ملفوفة في أرضه عندما كان يحرثها لا تبدو لي قابلة للتصديق والإيمان.

ـ ومع ذلك. ألم تكتشف بالطريقة ذاتها تلك الرسائل المشهودة التي قيل إنها من تل العمارنة[1]؟ خمسون لوحة طينية صغيرة يُبّست تحت الشمس. مراسلات دبلوماسية حقيقية بين مختلف عواصم الدول المعاصرة والبلاط المصري. في هذه الفترة، أي حوالي ١٨٨٧ إذا لم تخنّي الذاكرة كان الاكتشاف أجمل وأكبر من أن يصدق، واعتبر العديد من العلماء تلك اللوحات الطينية مزورة وملفقة. تسلمت المراسلة التي نحن بصددها الآن من قبل شخص يستحق الثقة، وأنت تعرفه أكثر مني.

ـ حسن الأسمر؟ بطبيعة الحال. هو واحد من أكبر المختصين في الحقبة العمارنية، وهو صديق أيضاً.

ـ تعترف إذن أنه شخص جاد وغير متلاعب.

ـ هذا أكيد، لكني أجهل إن كان من مده بهذه الرسائل أحد... المتلاعبين. أنتظر بفارغ الصبر أن يعود من لندن لأفصح له عن رأيي الصريح حول هذه القضية.

ـ جيد جداً، فلنتخيل أني أميل إلى ما تذهب إليه. لنفترض أنك على صواب وأننا أمام مزحة سخيفة.

ـ عفواً؟

---

(١) تعد ترجمة هذه الرسائل من الصعوبة بمكان، وأنها لن تنتهي في القريب لأن الكتبة الذين كتبوها استعملوا لغة غير لغتهم، وهي لغة محرفة عن البابلية القديمة أقحمت داخلها مفردات من المعجم الكنعاني المحدث، وهو ما يجعلها لغة ديبلوماسية غير قابلة للقراءة إلا من قبل من كان يمارسها.

ـ أكرر لك. من الممكن جداً أن نكون أمام رسائل مزورة، لكن ما الذي يمنعنا من مناقشتها؟ أيام فقط، وترسل السلطات هذه الرسائل إلى لندن لإجراء اختبارات دقيقة.

ـ ماذا تقترحين إذن؟

ـ أن نتعامل مع هذه الرسائل كما لو أنها أصلية.

ارتسم على سيماء وجهها الخبث وهي تضيف:

ـ كما لو أننا نلعب.

طال الصمت بينهما طويلاً قبل أن تعبر شفتي عالم الآثار المصرية ابتسامة خفيفة ليقول:

ـ جوديت فابر، فتنتك التي لا تقاوم تعد امتيازاً عظيماً بالنسبة لك. كنت تستعملينها بامتياز كسلاح فعال مع زملائك وأنت بعد صغيرة عندما كنت تتابعين دروسي في السوربون.

جمعت جوديت ذراعيها أمامها منتظرة البروفيسور أن يكمل، مستفهماً:

ـ أما تزال لديك النية في كتابة كتاب عن أخناتون؟

ـ أكثر من ذي قبل.

ـ إنه عمل خطير.

ـ هل تعتقد أني أستطيع عمل ذلك؟

ـ أنا لم أقل إنك لا تستطيعين ذلك. كنت أحذرك فقط.

أصر بدرجة مفاجئة عندما أردف:

ـ هل أنت مصممة فعلاً على الانخراط في هذه الكتابة؟

ـ لا شيء يمكنه أن يجعلني أغيّر رأيي بروفيسور. وعلى كل حال، وحتى أكون صريحة معك، فقد بدأت الكتابة بالفعل.

تأملها البروفيسور لوكاس مدة ثم قال:

ـ أريد مشاركتك في فك رموز هذه الرسائل. على الأقل يمكنها أن تثري معلوماتك حول الموضوع.

وأضاف:

ـ عندما كنت أستاذك، اعتبرتك أكثر طلابي مثابرة، وكنتِ من بين الأفضل. بالمقابل لم أفلح في علاجك من نزعتك المرضية التي تجنح بك إلى عالم الحلم والخيال. أكررها لك مرة أخرى. علم الآثار هو علم قبل كل شيء، ومادام كذلك فهو يتطلب قدراً كبيراً من الصرامة. عديني بأن تعودي من أحلامك إلى هذه الأرض، وأن تثبتي قدراً كبيراً من الجدية في المستقبل.

ـ حتى لو وصلنا إلى أن هذه الرسائل أصلية؟

ـ هذا مستحيل.

ـ أنت واثق من نفسك.

ـ هل تعدينني؟

ـ أعدك.

مد فيليب لوكاس يده قائلاً:

ـ ناولیني تلك الأوراق رجاءً.

نزع عالم الآثار المصرية نظارته. مسح زجاجها بأسفل ربطة عنقه، وأعادها فوق أنفه، ثم قال:

ـ أحب أن أعود إلى بداية رسالة المدعو أنوكيس، ففي الفقرة التي يتحدث فيها عن جسد أخناتون، عندما كتب: «أحببت بطء خطواته وقده المائس وكتفيه المشدودين وصدره النافر وفخذي المرأة لديه، وردفيه المكتنزين. أحببت الشرب من شفتيه الغليظتين، ولطالما رأيت النبل في وجهه النحيف».

رفع رأسه وأشار باستخفاف:

ـ هل أنا مخطئ أم إن الكاتب يقر بأن «حبيبه» يعاني من تشوه؟

ـ أعلم أنك تعرف معرفة جيدة كل الرسوم والتماثيل المجسدة لأخناتون. لكن...

التفتت إلى جهاز حاسوب وضع في إحدى زوايا الطاولة، وأخذت تنقر على لوحة مفاتيحه لتظهر صورتان، ثم دعته بالقول:

ـ اقترب يا بروفيسور. انظر. لا وجود لعضو جنسي. كتفان هزيلان، ردفا امرأة، فخذان ممتلئان، ذراعا امرأة، بطن بارزة، أصابع رقيقة. وفي الصورة الجدارية يساراً، هناك قمة الرأس التي هي على شكل بيضة، وعلى هذه الصورة الجدارية، أخناتون ونفرتيتي. ألا يثير فضولك تمازج سيماء وجهيهما وملامحهما؟ أي الوجهين أكثر أنوثة؟ وجه الملكة أم وجه زوجها؟

هز مخاطبها رأسه نافياً وهو يقول:

ـ شخصياً، لا أرى أي شيء يثير الحيرة. أما غياب عضوه الذكري المشار إليه في بعض التماثيل، فيمكن أن يفسر إرادة أخناتون بالتمثل بأوزيريس، فهي تجسد الملك الإله الذي مات فاقداً عضوه والذي وجدته إيزيس، وهي مجسدة في الملكة.

ـ ألا يطرح لك شكل جسده أي تساؤل؟

ـ أعلم ما ترمين إليه، ولكننا لسنا إزاء رجل كان يعاني من مرض معين، كما يحاول البعض أن يدفعنا للاعتقاد. سيكون البروفيسور إليوت سميث، أستاذ علم التشريح في معهد الطب بالقاهرة، أول من يقول بأعراض مرض «بابينسكي ـ فروهليش» سنة ١٩٠٧.

ـ أعراض المرض المرتبطة بآفة النخامي.

ـ أنا على علم جيد بالعلامات المتمثلة في الانتفاخ التدريجي الذي يطال الساق، وخاصة جذور وأصول الأعضاء، وضمور الأعضاء التناسلية، وتوقف نمو الأعضاء التناسلية عند الصغار. إضافة إلى درجة خفيفة من استسقاء الرأس، وعندما يصيب المرض الشخص الراشد، تصبح مسؤولة عن التحول الضدي للطباع الجنسية الثانوية.

وواصل مندفعاً:

ـ لامعنى لهذا، لإنه إذا كان أخناتون مصاباً بهذا المرض، ما كان في استطاعته أن يكون أباً، ونحن نعلم أنه ترك خلفه ستة أولاد، ست بنات بالتحديد دون أن أذكر أولئك الذين أنجبهم من محظياته.

ضرب فيليب الهواء بيده كأنما ليكنس شيئاً أمامه ليقول متعجباً:

ـ هذه تفاهة!

كان يود المتابعة لولا أن جوديت أوقفته قائلة:

ـ أنت تتمادى في طرحك كثيراً. من يستطيع أن يثبت أن أبناء أخناتون كانوا فعلاً من صلبه؟ ألا يمكننا أن نفترض أنهم كانوا مجرد

«واجهة» من أجل إخفاء شخصيته الخنثوية؟ كان بإمكانه أن يعين أحداً ما «منجباً رسمياً».

ـ هل فقدت عقلك؟ ماذا تفعلين بالمقدس إذن؟ أنت تمسين بالجوهر الذي كان يحكم مصر. الفرعون هو إله قبل كل شيء. ما كان ليقبل أبداً بأن تخصب امرأته من قبل إنسان «فان». لا أحد كان يمكنه أن يحل محله في إخصاب زوجته ورثة يحملون دماً ملكياً، ولم يكن بمقدوره فك الارتباطات المقدسة المحظورة على الآخرين وهي انتسابه إلى الألوهي. لايمكن حتى التفكير في شيء مثل هذا! وعلى كل حال، ليس لست مرات! من جهة أخرى، لم يحدث أبداً في تاريخ مصر أن حضرت زوجة فرعون في كل أنشطته الخاصة مثلما حدث مع أخناتون، ولم تكن ملكة قط حاضرة مع زوجها الملك مثلما حضرت نفرتيتي. هل تعتقدين أن هذا يوافق ما تطرحينه وتذهبين إليه؟ هذا شيء سخيف.

مدت يدها تجاه محاورها، وابتسامة تعلو وجهها لتقول:

ـ هل يمكنني أن أتابع؟

أذعن لرغبتها. فقالت:

ـ لا تصيب الأمراض الإنسان بالطريقة نفسها تماماً، كما أن الاستجابة لدواء ما تختلف من مريض إلى آخر. لا ينبغي فقط مناقشة إصابة شخص بفيروس معين بقدر ما ينبغي مناقشة درجة تلك الإصابة وخطورتها. وفي النهاية، إن كانت قد تطورت قبل الآوان. من الممكن جداً أن يكون أخناتون قد أصيب إصابة خفيفة بمرض فروهليش وهو ما منحه ملامح الأنثى الظاهرة دون أن يصيب ذلك قدرته على الإنجاب.

هز فيليب لوكاس رأسه، ثم قال:

ـ إذا ما سألتِ كل الأطباء فإنك ستحصلين على جواب واحد منهم جميعاً. لا وجود لإصابة خفيفة بداء فروهليش، ومع ذلك أكرر لكِ، يمكن للمرء المصاب بهذا الداء أن يكون له ولد وهو أمر نادر حد المعجزة، لكن ليس ستة أبناء!

ـ وما رأيك بالفرضيات الأخرى التي تتداول؟

ـ لست مختصاً بالإفرازات الباطنية، لكن على العموم، لا أعتقد في أيّ منها.

ـ بعثت رسالة إلكترونية إلى صديق مختص بالإفرازات الباطنية، مرفقة بالعديد من الصور المتوفرة لأخناتون وبناته، وأنا في انتظار ردوده.

ـ لا أريد حرمانك من أوهامك، لكن لن يأتي رأي صديقك بالجديد.

تعالى فجأة صوت مؤذن أخنف وانتشر في أرجاء قاعة المتحف المصري، كأنهما عالمان يصطدمان معاً. عالم قديم وآخر حديث، فبينما يسبّح أكثر من مليارين من المؤمنين بحمد إله واحد في أحدهما، يحاول إله لعين في الآخر، قبل آلاف السنين، أن يتمرد على القوانين السائدة آنذاك.

تابع عالم الآثار المصرية رافعاً صوته:

ـ فكري. ما الذي يميز وجود أخناتون غير الرغبة في القطع مع ما سبق. القطع مع ما سبق هي كلمة السر في حياته. قطع صلته مع العاصمة طيبة، وفعل الشيء ذاته مع كهنة آمون، ودافع عن سيادة إله واحد على باقي الآلهة، كما جعل من زوجته نفرتيتي وجهه الآخر. كما

أنه قطع مع النظام المعماري والهندسي الذي كان سائداً، وتبنى بمحض اختياره تشييد معابد دون أسقف.

أشار بسبابته إلى شاشة جهاز الحاسوب وأضاف:

ـ يمكن أن يفسر هذا التقارب في الملامح الأنثوية بين أخناتون ونفرتيتي بالرغبة في القطع مع ما سبق. فقد قلت الفوارق بين المرأة والرجل في عهد الفرعون الشاب، بل إن تلك الفوارق اختفت تماماً. وما تعتبرينه تشوها خلقياً جسدياً لم يكن إلا رمزاً للقطع مع الفن القديم. فلنقل إن إعادة إنتاج تلك الصورة التي تصوره مع أفراد أسرته (وبدا أنه يبحث عن الكلمة المناسبة) بطريقة هزلية وساخرة كان مقصوداً. عليك أن تعلمي أن أخناتون كان مدفوعاً بطبيعته وبالتحدي الذي رفعه للذهاب أبعد ما يكون دفاعاً عن آرائه. فرض أخناتون إذن على الفنانين المحيطين به، سواء تعلق الأمر بالنحات بيك أو بمثيله دجيهوتيم، بإيجاد «نوع بشري» يكون مزيجاً من الجنسين معاً حد جعل صورة الجسد قابلة للتغيير تقريباً، وصالحة لهما معاً، والدليل على ذلك. . .

رقن على لوحة المفاتيح، فظهرت صورة جديدة، ثم أضاف:

ـ انظري إلى هذه الصورة الجدارية التي تمثل أخناتون ونفرتيتي وثلاث من بناتهما. يمكننا ملاحظة أن أجساد البنات الثلاثة غير طبيعية. لاحظي جيداً الفتاة التي في الوسط وستدركين أن حوضها أوسع مقارنة بسنها. هناك تنافر واضح بين حوض المرأة لديها وملامح الطفلة في وجهها، إضافة إلى أن الرأس أكبر كثيراً من بقية الجسد.

ـ ومؤخرة الرأس التي هي على شكل بيضة.

ـ نعم.

ـ هنا أيضاً ألا يمكن أن تخلصي إلى أنها مبالغة مقصودة؟

ـ تماماً. أنا أقر ألا علاقة للأمر بالتشوه الجسدي، لوكان ذلك موجوداً بالفعل لما اختفى من الرسومات اللاحقة، تمدد الرأس عندما كبرت الفتيات. أما عن فرضية «تشوّه الرأس» التي ذكرها البعض فهي لاتستحق منا أن نقف عندها طويلاً.

ـ ومع ذلك فنحن نعلم أنه وإضافة إلى مجموعة من أعراض هذا الداء، هناك عدم التوازن في نظام الإفرازات الباطنية.

ـ ما يعني أنه في الموضوع الذي نحن بصدده، هذا لا يعني شيئاً، فهناك سببان رئيسيان لتشوّهات الرأس، فإما أنها وراثية وهنا يولد الإنسان بالتشوه أو أنها نتيجة لصدمة وتصدع يصيب الرأس، كأن يسقط المرء من على ظهر جواد مثلاً، أو أن يصاب بالتهاب السحايا أو ورم دماغي، وفي الحالتين معاً، يجمع الأطباء أن عمر المصاب يكون محدوداً، ولو أن أخناتون كان مصاباً منذ ولادته لكان قضي قبل أن يصل إلى سدة الحكم.

ـ ذكرت حالة السقوط من على ظهر جواد، ألا يكون أخناتون قد تعرض لحادثة في عمر متقدم؟

ـ لا، فالصور الجدارية التي تمثله تعود إلى زمن جلوسه على العرش، بمعنى أنه كان في سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، والرأس البيضوي ظاهر جداً. يمكننا أن نفترض أنه كان مريضاً قبل ذلك، لكننا نعلم أنه حكم لمدة سبع عشرة سنة، ولو أنه كان مصاباً بتشوه في الرأس لما استطاع أن يحكم كل تلك المدة، وحتى لو

افترضنا أنه كان من أولئك المرضى الذين تحدوا تكهنات العلم بطرق معجزة، لا أرى كيف يمكن لزوجته وبناته أن يصورن بالطريقة نفسها برؤوسهن المشوّهة.

ـ لا تكن واثقاً إلى هذا الحد بروفيسور لوكاس. هناك سبب معين لذلك، وسأحدثك عنه في أوانه.

أخذت نفساً عميقاً قبل أن تضيف:

ـ لنلخص ما وصلنا إليه. أنت ترى أن جسد المرأة في صور أخناتون إضافة إلى حالة رأسه، كلها أشياء غريبة يمكن إرجاعها إلى طريقة فنية حديثة أرادها أخناتون وأمر بها.

ـ تماماً.

ـ حسناً بروفيسور، أظن أنك مخطئ، على الأقل بشكل جزئي، حتى يثبت العكس. أود أن أقر أننا لسنا إزاء تعاطف خطير مع علم الأمراض، لكن ينبغي علينا ألا نقتصر فقط على تحليل جسد أخناتون «الغامض» وهو أقل ما يمكن أن يقال عنه، والانحصار فقط في القول، إننا أمام «شكل فني جديد»، أي «الفن العمارني» المشهود. لا أعتقد ذلك. ذكرت أن أخناتون تقلد الحكم وهو يبلغ من العمر خمس عشرة سنة. خمس سنوات بعد ذلك أسس مدينته الشمسية. هل تعتقد أن ولداً، وقد كان كذلك، قادر على وضع أسس هكذا (وأحدثت طرطقة باتصال إبهامها ووسطاها) بين عشية وضحاها، «طريقة فنية جديدة» دون تأثير خارجي؟ لا أقبل هذه الفكرة. إذا كانت هناك «طريقة فنية جديدة» لا يمكنها إلا أن تكون ملهمة ومستمدة من جسد وشخصية أخناتون و...

ـ سأوقفك هنا. فشباب أخناتون لم يكن عائقاً أبداً كما يذهب إلى ذلك الباحث مارك كابولد، فنيرون الذي يعتبر نفسه أيضاً «عاهلاً شمسياً»، وكان امبراطوراً في السابعة عشرة من عمره ومات في سن الواحدة والثلاثين، بالعمر نفسه لأخناتون! وإلاغابال المحب أيضاً للشمس، تسلّم مقاليد الحكم في الرابعة عشرة، وتوفي في سن الثامنة عشرة. كلاهما مثل أخناتون تماماً، لم يذخرا جهداً في فرض إلههما على مواطنيهما. أخلص إذن إلى عدم وجود مانع يقف أمام فرعون شاب في البحث عن وضع رؤية فنية جديدة.

هزت جوديت رأسها ثم قالت:

ـ لا أعتقد ذلك، ولو للحظة.

جمع فيليب ذراعيه أمامه، وسألها بهدوء مفتعل:

ـ في هذه الحالة، ما هي نظريتك؟

ـ معظم النصوص تصف لنا أخناتون كمحب للحقيقة، إضافة إلى أن المدعو أنوكيس يقر بأن أم الملك مخلصة لمعات، إلهة الحقيقة. ونحن نعلم التأثير الكبير لتيي على ابنها. أنا مقتنعة من أن أخناتون كان يعاني من مرض له علاقة بالإفرازات الباطنية، وأنه فرض على الفنانين أن يجعلوا من صوره «صوراً حقيقية» بهاجس السعي وراء الحقيقة فقط، بمعنى أن يكون قريباً من الأنثى أو أنثوياً تقريباً. هي إذن ليست «طريقة فنية جديدة» على الأقل ليس بمفهومنا الحالي، ولكنه التصوير والانعكاس الحقيقي لما كان عليه أخناتون «تماماً». إلى هذا أضيف أن مثلية العاهل الجنسية أو فلنقل تعدديته الجنسية إذا كان هذا سيشكل صدمة أقل لك، كانت واضحة.

تسللت ضحكة من بين شفتي لوكاس:

ـ ألهذا علاقة بما جاء في هذه الأوراق؟ هل لأن شخصاً غير معروف يدعى أنوكيس ذكر بأنه كان عشيقاً لأخناتون؟ ألا ترين معي أن هذا أمراً سخيفاً يا جوديت؟

ـ لا، هذه الكتابات أتت فقط لتؤكد حقيقة تاريخية. تأكد من أني سأثبت لك ذلك. أعلم أنه ينظر إلى أن فرعوناً مثلياً أمر غير مقبول ومخلٌ بنظام معين للأشياء، وإذا كان في أيامنا هذه، وفي صفوف مفكرينا من يحظر الحديث حول هذا الموضوع، فالأمر كان مختلفاً في الحضارات القديمة. أن يكون المرء مثلياً جنسياً عند اليونان أو في مصر القديمة لم يكن بالأمر المشين. أنا مقتنعة أن قرب أخناتون من التخنث أو المثلية الجنسية كفيل بأن يوضح العديد من الأشياء المعتمة. سأثبت بأن فكرتي ليست بالسخافة التي تبدو عليها، وأعلمك أني أعزل وضعية الرأس عن باقي الجسد المصور. فهنا أيضاً لي رأيي الخاص الذي سأعلمك به في حينه.

أرخى الصمت ظلاله بينهما قبل أن ينزع لوكاس نظارتيه مدمدماً:

ـ أخناتون مثلي جنسياً. سمعت كل شيء في حياتي.

من أنوكيس إلى كيبر

حتماً يا صديقي، وكما أشرت إلى ذلك بكل وضوح، فليس هناك عمر مناسب للتغيير، فأنت كما أنت، وكما عرفتك دوماً، ريفي ولا يرجى لك دواء. لكن فلتطمئن، فليس لي النية في أن أتوقف عند ذلك طويلاً، لأني غير مستعد لفقدان وقتي، وأنت أعلم مني بأن الوقت يحسب علينا.

أما كيب الذي أتيت على ذكره، فأنا على علم بمعدنه وعن أصول تكوينه، الذي كان في المؤسسة القريبة من الحريم حيث يتكون النبلاء من الغرباء، وهي تضم أساساً الأمراء الذين استقدموا إلى مصر بعد الغزوات الزجرية والعقابية للفرعون في بلاد الواوات[1] أو من كوش، بعدما يتكوّنون ويتعلمون ويتشربون من ثقافتنا الراقية، يسمح لهم بالعودة إلى ديارهم ليفيدوا إخوانهم مما تعلموه لدينا، بينما يدفع بالآخرين إلى الالتحاق بجيش الفرعون كضباط. ولكن مهما اختلفت أقدارهم، يظل لقب «أبناء كيب» لصيقاً بأولئك الرجال.

---

(١) منطقة جنوب أسوان، في بلاد نوبة الجنوبية.

في الإطار ذاته، وقبل أن تستشيط غضباً، أعلم أني عازم بطبيعة الحال على الحديث عن ابن حبو. أشاطرك الرأي بخصوصه، فقد كان إنساناً استثنائياً. وأنت يا من يعلم كل شيء، هل بلغ إلى علمك ذاك الملفوف الغريب الذي حوى مجموعة من النقاط على شكل تعاليم؟ كانت على شكل قواعد وإرشادات، وبلغني أيضاً أنها تشتمل على وصفات سحرية تمكن من يضبطها جيداً ويفهمها أن يعالج آلام الجسد وآلام الكا[1]. تلك التعاليم محفوظة في مكان سري بأخميم. سيكون سعيداً فعلاً من يضع يده عليها.

تعلم أيضاً أن ابن حبو رقي في غسق حياته ليصير كبير خدم ست آمون كبرى بنات الفرعون وأخت أخناتون، وأن الأمر امتد حتى إنه كان يسمح له أن يبني على صور الفرعون التي أنشأها في مدخل الهيكل العاشر للكرنك، وهو شرف كبير لو تدري. كان يعتبر الإله الشافي وكان يردد أدعية في معبد بالدير البحري كما كان يركب عدداً من النبوءات. في الوقت الذي أكتب إليك فيه توفي هذا الرجل، توفي عندما كان يلج عامه الثمانين، مباشرة بعد الاحتفالات الخمسينية الثانية لحب سد.

كانت لأحد النحاتين الذي فقدت اسمه، سرعة بديهة إذ نقش أسطراً حول حياة وتاريخ هذا الحكيم على ظهر أحد التماثيل المصنوعة

---

(١) الكا كما يعتقد قدماء المصريين هي روح الميت التي تبقى بعده وكما كان يظن المصريون القدامى. وقد كانوا يضعون في المقابر الطعام لكي تتغذى الكا. والكا هي الروح الطيبة في اعتقادهم وقد كانوا يعتقدون أن من يسرق شيئا من ممتلكات الميت أو بالأرجح الفرعون ترسل عليه الكا لعنة توقعه في مشاكل. (المترجم).

من الغرانيت التي تمثله بالكرنك. احتفظت بالنص الأصلي وأعيد بعثه لك:

أنا أحد كبار عظماء روح الاختراع في الهيروغليفية في مجلس المتعلمين، ورجل ينفذ رؤى الفرعون، ارتقت روحه بفضله.

هنأني الملك أمنحوتب الثالث ابن رع حور آختي عندما عينت نائب مراقب الكتّاب الملكيين. كنت مطلعاً على كتاب الإله، وتأملت عظمة تهوت، واستأنست بأسراره. تجاوزت كل صعوباته، وطلب رأيي في كل المناسبات.

منحني سيدي الملك أمنحوتب الثالث حظوة ثانية، فقد جمع أناساً حولي وجعلهم تحت إمرتي عندما كنت كبير الكتبة الملكيين بالنسبة للمجندين الجند. اخترت العمل في التمويل لدى سيدي، وأخذت ريشتي تدون أرقاماً بالملايين، وقمت بتعيين فريق آخر عوض الفريق القديم، على نحو جعل الجيل الجديد معاقباً للشيخوخة. فرضت الضريبة على المنازل والحقول الملحقة، وقمت بتوزيع فرق العمل على المنازل وملأت النقص الخاص باستخدام العبيد وأجود الأسرى الذين تفوق عليهم جلالته في أرض المعركة. وقمت بالشيء ذاته على ضفاف مصاب كل الأنهار المحروسة من قبل الجند التابعين لي عدا سلاح الحربية الملكية. كنت أريهم الطريق وكانوا يعتمدون على قراري. كنت قائد القوات في الحرب ضد بلاد نوبة وآسيا

(. . .). أنا من كان يقوم بحساب نقل الغنائم المحصلة من انتصارات جلالته. وتشرفت بتكليفي بهذه المهمة من قبله. كنت أنفذ كل ما كان يقوله الملك لي، وأخذت في الاعتبار كل الأوامر التي وجهت لي ووجدتها مفيدة للمستقبل.

للمرة الثالثة أنال حظوة من لدن سيدي الملك أمنحوتب الثالث، فليكن له خلود الشمس وليعش أبداً، وليدم فرحه. عينني سيدي رئيساً على كل المنشآت، وخلدت اسم الملك للأبد دون أن أتقيد بتقليد ما أنجز من قبل، أحضرت له جبلاً من الحجارة الرملية لأنه وريث آتوم. عملت من وحي قلبي، وعرضت صورته في معبده الكبير مستعملاً في ذلك مختلف الحجارة الخالدة كالسماء، ولا أحد استطاع أن ينجز ما أنجزته منذ أن أمر ملك البلادين بذلك. أدرت الأعمال المتعلقة بتمثاله العظيم في عرضه والذي يفوق طوله دعامة بشكل متسق مع جماله الذي أثر في بوابة الهيكل. كان طوله يبلغ أربعين ذراعاً من جانبي رع آتوم في جبل الحجارة الرملية المهيب.

صنعت مركباً وصعدت النيل وصولاً إلى التمثال الموضوع في هذا المعبد الكبير بالكرنك الخالد خلود السماء.

شواهدي بينكم وبعدكم. جيش كامل من العمال الذي كان يعمل تحت إمرتي. كانوا فرحين بعملهم كما كان

البلاط سعيداً بذلك معظّماً وشاكراً الإله. وصلوا طيبة وهم يطلقون صرخات الفرح. ووجدت تلك الصروح أماكنها للأبد[1].

وقد كان هناك مهندسون موهوبون، عدا هذا الجل الباهر، وأنا أقصد هنا الأخوين التوأم سوتي وحور اللذين كان لهما دور مهم في تشييد الكرنك. وكان في المجلس موظفون أكفاء مثل رئيس المخزن خاع محات، وأمن محات الملقب بسورر كبير خدم طيبة. إضافة إلى خرويف الذي كان يشغل منصباً نبيلاً وهو كبير خدم الملكة.

لقد غاب كل هؤلاء اليوم، ولم تعد أجسادهم تتحرك في طرقات مدينة الشمس المدمرة، وليس لخطواتهم صدى، فأنا أعلم بأنهم هنا وأن ذكراهم باقية خلفهم، ليس مثل من أحببت.

فلندع الأموات إلى أقدارهم ولنتحدث عن الأحياء، ذكرت حب سد ذاك الاحتفال المقام برعاية إله ممفيس بتاح. سيؤكد العارفون أن هذا الاحتفال مستوحى من طقس قديم يعود لفترة مصر الناشئة حيث كان يقتل الملوك البالغون بصفة رمزية عندما يعجزون جسدياً عن تحمل أعباء الحكم والملك.

والأكيد أن حب سد وضع للاحتفال بالسنة الثلاثين لحكم الفراعنة مع أنه بالإمكان الاحتفاء بها بفروق زمنية أقل كلما أحس الملك برغبة في تجديد قواه، وحتى يقر عيناً في منصبه كسيد «آلهة الأرض».

---

(١) CF.Pharaons, op, cit.1

حضرت ثلاثة من هذه الاحتفالات، كان أولها في سولب في السنة الثلاثين لحكم أمنحوتب الثالث. كانت لحظة انتصار عظيمة وزاهية.

أقيمت مسلات مربعة لتلك المناسبة، وأحضرت احتياطات هامة من كل أنحاء البلاد، وتدفق الشراب في كل الأركان. في فجر ذلك اليوم في الكرنك، قام الملك والملكة مرفوقين بنساء حضرن خصيصاً من الواحات لتشذيب «أعمدة القطران» وهي عبارة عن فرع شجرة على شكل عمود. وبحسب أخي تيموتيس الذي كان كاهناً لآتون، فهي ترمز إلى الشجرة البابلية التي سجن فيها جسد أوزيريس. تذكر...

وكذكرى الرمال، خلف أوزيريس والده غاب وحكم إلى جانب أخته وزوجته إيزيس. كان ملكاً إلهاً محباً الخير للناس، وعلمهم الزراعة والشعائر الدينية.

أما أخوه ست فكان يغار من حكمه الرشيد فعمد برفقة إثنين وسبعين متآمراً إلى تقديم وليمة أحضر خلالها صندوقا، وتحدى كل ندمائه على سبيل اللعب أنه يستطيع أن يدخل جسده في الصندوق، وعندما حل الدور على أوزيريس قام المتآمرون بإحكام إغلاق الصندوق عليه ولما تمكنوا من ذلك رموه في النيل. ودفعت المياه التابوت حتى ضفاف بابل الفينيقية، وخلال تلك الرحلة، نمت شجرة على الصندوق محيطة بجثة أوزيريس التي بقيت مسجونة داخلها. وقام ملك بابل بجعل الشجرة على شكل دعامة احتفظ بها في قصره. وخرجت إيزيس في رحلة للبحث عن زوجها، حتى بلغت الميناء الفينيقي حيث منحت الدعامة والصندوق، فأخذتهما حتى مستنقعات شمنيس قرب بوطو[١].

---

(١) في دلتا النيل، تبعد عن الإسكندرية بحوالي ثمانين كيلومتراً.

فتحت الصندوق وعلى الرغم من أنه كان ميتاً إلا أنها أخصبت منه. ومن تحاضنهما سيولد حورس الذي سيعتدي عليه ست بدوره، وتجمع بينهما حرب طاحنة في صحراء كرعاحا، لكن المأساة لن تقف هاهنا. فقد استغل ست غياب إيزيس ليتمكن من الصندوق ويقطع أوزيريس إلى أربع عشرة قطعة شتتها على كل أراضي مصر. لم تيأس إيزيس إذ انطلقت في رحلة بحثها عن الأجزاء المقطعة، فوجدتها جميعاً عدا عضوه الذكري الذي التهمته سمكة النيل فحلت عليها لعنة ما جنت إلى الأبد. وقامت إيزيس بدفن كل قطعة في المكان عينه الذي وجدتها فيه. لهذا السبب، يوجد اليوم أربعة عشر محراباً مشيداً لتخليد ذكرى الملك الراحل. في الحقيقة، أعتقد أن الحرب مستمرة، استمرار وجود الخير والشر، وستبقى ما بقي البشر كما هم...

فلنعد إلى حب سد، ففي الاحتفالات يتم إعادة تتويج الفرعون كما يليق به، ويضع أمنحوتب الثالث زياً مرصعاً يشبه ريش صقر حورس، مدثراً بمعطفه القصير الخاص بالاحتفالات، مصحوباً بزوجته تيي، ويخرج من الباب المزدوج لقصره حيث يحمل على هودج القصر حتى مجلس عرشه المصنوع من الديباج، ويترأس الزوجان مراسم الاحتفال والولاء الذي أتى ليقدمه ممثلو البلادين ومبعوثو البلاد الأجنبية القادمين من إفريقية وآسيا والعالم المحمي.

وتجسد الملكة تيي حاتور في ما تقدم بناتها المساعدة ككاهنات لهذه الإلهة، ويرافقهن منشدو المعبد، وموسيقيو آمون إضافة إلى زوجات الموظفين، ولساعات طويلة تخترق أناشيد تمجد الملك المبجل.

وعلى بعد أمتار من المجلس الملكي، كانت بنات الأمراء

الآسيويين الحاضرات أيضاً يسكبن الشراب من قناني الذهب والفضة في الوقت نفسه الذي يرقص فيه بهلوانات وفنانو الشوارع. بالمقابل يقدم الملك للمجلس وجبة كبيرة تحوي خبزاً وجعة، ويحتفى بالتنصيبات الجديدة، ويقلد المستحقون بأساور من ذهب وقلادات الشرف. وتوزع على كل من حضر المراسم عصابات رأس خضراء من الكتان لجمع رأس الشعر، في حين يجدف بالمستحقين على طول البحيرة المقدسة على ظهر السفينة الملكية «بهاء آتون».

علي القول بأن السحر لم يكن غريباً على المناسبة، لكن الكهنة وحدهم من يملك أسرار ذلك.

للأسف، وهذا شيء معروف، لا أحد حتى الآلهة، يستطيع أن يحد من حركة الشمس، ومساوئ العمر.

من كيبر إلى أنوكيس

حب سد! يا لها من فوضى! دعيت إليها أنا أيضاً. وعروجك على أوزيريس وإيزيس كان ملائماً. بالنسبة لي، لم أر في تلك الاحتفالات إلا فرصة للازدراء وملء البطن. يا لها من مثالية! قل لي يا أخي أنوكيس. هل تعتقد فعلاً أن الشعوذة تجدي في إعادة شباب فرعون هرم؟ إذا كنت تعتقد ذلك فعلاً، اشرح لي لـمَ كان جسد أمنحوتب الثالث يمنح انطباعاً كبيراً بالحزن عندما مات في الخمسينيات من عمره؟ كان مغموماً وضجراً، ومثل غالبيتنا، كان ضحية لآلام الأسنان المبرحة. ومثلك تماماً أضحى مندلق البطن، بشعيرات قليلة في صدغيه، وآخر مرة رأيته فيها كان مستكيناً إلى عرشه بجسده المترهل،

ورأسه الثقيل، ويده الرخوة على ركبته. أعلم ذلك لأني سمعت من فم سفرو أحد المحنطين المكلفين بالجثث الملكية أنه، ولجعل الجسد يبدو بمظهر مقبول ولائق، كان يحشى تحت الجلد مادة هي خليط من النترون وصمغ الصنوبر، وهذا يدل على الحد الذي بلغه من التردي والتدهور، وأن السحر المتبع في حفلة سد لم يؤت النتائج المتوقعة منه. فلنكن جادين، فكر قليلاً في المشهد المركزي للحفل الذي حضرته أيضاً، وهو عندما يبدأ الفرعون في العدو داخل حقل مسيج وقد أمسك بيديه مجموعة من الأشياء المدهشة وغير المتوقعة من بينها «يميت بر» الوثيقة المشهورة التي يعدد فيها الكهنة بطريقة رسمية عدداً من الممتلكات وهو عقد الممتلكات.

لكن قبل ذلك، كان الملك يستقر في سرادقين عاليين ينتهيان بدرجات حيث يتقلد هناك شعارات الملك في الجنوب ثم في الشمال، يُحمل بعدها على التوالي على الهودج الشهير الذي يلقب بـ«الملوك» لمصر العليا، ثم على هودج خاص بمصر السفلى جعلني أشبهه دوماً بالسلة الكبيرة. شخصياً أجد في كل هذا مشهداً محزناً. لماذا ننكر أن كل هذا الاحتفال لا يقدم شيئاً غير التأكيد مرة أخرى على أن مصر ملكية خاصة للملك، بعد ذلك يقوم الملك مسلحاً بقوسه برمي النقاط الأربع الأصلية. هل تعتقد أن ذلك «يدفع عن مصر القوى الغريبة التي تعارض سيادة النظام، وإعادة التأكيد على عظمة مصر على الكون»؟

صديقي، أعلم أني سأصدمك مرة أخرى حين أقول إننا أمام أوهام.

.

أفضل عدم الإصرار على هذا الموضوع وتجاوزه حتى لا أزيد

وضعي سوءاً. فلنتحدث عن أشياء ممتعة إذن. فلنتحدث عن النساء، واسمح لي أن أخبرك أن أمنحوتب الثالث كان شبقاً وفاسقاً بامتياز. ذكرت حريمه، ولكنك نسيت الحديث عن زيجاته. أعلم أنك ستفحمني بكون تلك الزيجات كانت شأناً سياسياً فقط، ومن أجل التحالفات «الدبلوماسية». أتفق معك في ذلك عندما ارتبط بأميرتين سوريتين، وأميرتين بابليتين، وأميرة من أرزاوا، لكن في الحقيقة وحدها جيلوخيبا ابنة ملك الميتانيين شوتارنا الثاني هي من تستحق أن تذكر، ومع أني لم أستطع حضور قدوم الأميرة، لأني كنت مجبراً على التواجد في ممفيس، فقد أخبرت أنه كان يوماً عظيماً، إذ حضرت جيلوخيبا في السنة العاشرة لحكم الملك أمنحوتب الثالث بلاطه مصحوبة بحوالي ثلاثمئة امرأة شرف، من بينهن غازلات وموسيقيات وخادمات! وكانت العزيزة تيي تكاد تنفجر غضباً، وهو الشيء الذي ما كان ليضايقني. بالمقابل، هناك نقطة لاعلاقة لها بالدبلوماسية، وهي أن الملك أمنحوتب الثالث أخذ يمضي وقتاً أطول لدى الميتانية أكثر مما كان يقضيه عند زوجته الملكية وهو ما لا يضايقني أيضاً.

وبالعودة إلى احتفال سد، أعلمك أني أفضل كثيراً احتفال أوبيت[1] لأنه يمر في سعادة وفرح، وليس في توتر تراجي ـ كوميدي. يجعلني الاحتفال الثاني مسروراً بالفعل.

أتركك الآن لأني أسمع تنهيدك وهو ما يفقدني تركيزي. تحياتي الرقيقة إلى زوجتك.

---

(١) يقام كل سنة في أواسط شهر الفيضان.

من أنوكيس إلى كيبر

صديقي كيبر، يحوي قلبك زعاف ابن آوى، ويقطر من لسانك سم العقرب. وعلى كل حال، فأنت تمتعني. ما أزال أذكر مقدم جيلوخيبا إلى البلاط. أطلق جعران بهذه المناسبة. وإذا لم تخنني الذاكرة، فقد كان جوهر النص كالآتي: «السنة العاشرة... ملك مصر العليا والسفلى، سيد الطقوس نب معات رع، المختار من قبل رع، ابن رع، سيد طيبة، وتيي زوجة الملك الكبرى. فلتعش أبداً، عطية مدهشة لصاحب الجلالة، وابنة ملك الميتانيين جيلوخيبا، وثلاثمائة وسبع عشرة من أجود نساء حريمه». وأذكر أيضاً أن المفاوضات كانت طويلة ودامت عدة أشهر. وكما في كل الزيجات، كان لزاماً خوض معركة ضارية للاتفاق حول المدة ونوع المهر. من جانبه، اقترح الفرعون ثمناً لخطيبته المقبلة، وفاوض شوترانا بشراسة. كانت هناك مساومات كثيرة قبل الاتفاق!

بلغة الأرقام، فقد تجاوز جهاز عرس جيلوخيبا كل المصاريف. فقد ضم إضافة إلى أشياء لا أذكرها الآن، حلياً، وأواني، وجياداً، ومرايا ووجاقات، وزيوت وبهارات...

وأعتبر تحاملك على الملكة تيي «التي كادت تنفجر غضباً» سخيفاً، مثل سخافة ما ذكرت من أن الملك أمنحوتب كان يفضل فراش جيلوخيبا على مضجع تيي. هل كنت تختبئ في أروقة الحريم؟ أم هل كنت تحت إزار الفرعون؟ كيف لكائن حساس، لأنك كذلك في بعض الأيام، أن ينخرط في نميمة مماثلة؟ ثم، وهذا لن يضيف إلى معلوماتك شيئاً، ليس لرجل مثلك على كل حال، هناك فرق بين المضاجعة الفاحشة والحب. لم يكن أمنحوتب الثالث أبداً عاشقاً للميتانية. لا، فأنا أعلم أن قلبه كان ملكاً لتيي. بالمقابل، أشاطرك الرأي، فأنت على صواب في ما يتعلق بآلام الأسنان التي كان يعاني منها الفرعون. آلام كما تذكر، ننال حصتنا منها جميعاً.

لكن ومهما يكن من ذلك كله! فلنعد إلى من ملك أفكاري وألهم هذه الكتابة.

ولأني لم أعرف أخناتون إلا عندما ارتقى، فلا علم لي بالطريقة التي نشأ عليها والتي حكمت طفولته، والقليل الذي أعرفه، اعتبره سراً من الأسرار الخاصة التي خصني بها في بعض الليالي عندما كان الحنين يستحوذ على روحه. كان يتحدث أو إنه كان يفكر بصوت عال على الأحرى، بصوته العذب الحلو عندما يقول لي «أمقت الليل، وأحب النجوم. تصيبني بالخوف لأنها عندما تلمع في السماء يخرج أبناء آوى من مغاراتهم». كان يحدثني عن أخته الكبرى، سات آمون المفضلة لدى أبيه والتي منحها شرفاً عظيماً بجعلها زوجة ملكية مثل تيي تماماً. لم يتعلق الأمر هنا بزنا المحارم بالمعنى المتعارف عليه، وإنما بطقس يدخل ضمن إطار العادة التي تهدف إلى المحافظة على الطبيعة الألوهية

«للعائلة الملكية»[1]. وبطبيعة الحال، كان أخناتون يحدثني عن أخيه الأكبر تحوتمس[2]، والذي كان ينتظر منه الشيء الكثير على اعتبار أنه كان سيرث العرش. كان يشعر نحوه بمودة حقيقية، وكان يقول إن أخاه كان يحميه مع أن هذا الأخير لم يكن يظهر بجانبه إلا في ما ندر، لأنه كان يدرس في كيب الأشياء ذاتها التي يتعلمها أبناء العائلات المصرية النبيلة. وعند نهاية دراسته، سيبعث به إلى ممفيس للاستئناس ببيروقراطية البلاط، ودواليب السلطة استعداداً لحكمه كفرعون، أما بخصوص أوقات فراغه فقد كان يملؤها بتعلم الصيد وركوب الخيل، والرمي بالقوس حتى يصير المحارب الذي يستحق أن يكون يوماً ما على رأس الإمبراطورية.

أما أخناتون، فقد كان يكره الصيد، إذ إن رؤية الدم كانت كفيلة بإصابته بالغثيان. كان يصف لي إحساسه الموحش بالوحدة ليل نهار على الرغم من حضور جلسائه. هل أحبوه؟ محتمل، لكن هل أستطيع قول ذلك؟ أقل بكثير من أخيه الأكبر. كان تحوتمس لفترة طويلة في دائرة الضوء، بينما أخناتون راكن إلى العتمة. أعتقد أن لحركاته الرقيقة الناعمة ولجسده الواهن دوراً في تلك المعاملة. فعلى ابن الفرعون أن يتمتع بمظهر رجولي، وأن يكون مقاتلاً يتمتع بروح خشنة. الشيء الأكيد هو أنه عانى كثيراً ممن أحاطوا به. ولو لم يقرر الإله الواحد أن

---

(١) وجدت بعض آثار سات آمون في قبري جديها يويا وتويو حيث ترى ممثلة في أحد كراسي المراهقة أمام صورة الملكة تيي التي تكرمها، او جالسة تتقبل عقداً ذهبياً. وقارورة كحل محفوظة في متحف نيويورك في إطارات مشتركة مع أخناتون وهو ما يؤكد العلاقة التي كانت بينهما.

(٢) تحوموزيس بحسب الترجمة اليونانية.

يجعل منه مختاره ومصطفاه لكان من المحتمل ألا يسمع أحد بثاني أولاد الملك أمنحوتب الثالث. فموت أخيه هو من سيجتثه من العتمة حيث ذبل. أخبرني أنه عاش فترة من طفولته بين ممفيس في «دار نب معات رع.. بهاء آتون» القلعة الملكية محاطاً ووحيداً في الآن ذاته، ينفق سحابة يومه في أروقة الساحة الكبرى أو في الحدائق. وعند حلول الليل، يستلقي في الحوض الذي أعده الفرعون بين أول أيام الشهر الثالث من الفيضان والسادس عشر منه، بفضل فيضان النهر. كان يلبث هناك لساعات طويلة، يرهف السمع لخرير الماء، ويتأمل مسارات النجوم. كان يتساءل في أوقات تأمله الكثيرة إذن عن الإنسان، وعن الآلهة، عن الحياة وعن الموت. آلاف الأسئلة كانت تجلد روحه. لماذا ضوء النهار؟ لماذا حلكة الليل؟ أيهما ينتصر على الآخر؟ لكن هذا لربما هو الأهم، إذ أسر لي بأنه منزعج كثيراً من الكهنة الذين يحكمون المقاطعة الخامسة عشرة لعاصمة مصر العليا، ومركز عبادة تهوت في مدينة خيمنو[1] غرب الوادي قبالة ما تبقى من مدينة الأفق. قرار أخناتون بتشييد هذه المدينة مقابلة تماماً لخيمنو يدل على أن الكهنة كانوا يمارسون تأثيراً عميقاً عليه عكس ما يمكن أن يتصور. ففي المكان نفسه، ومنذ مدة طويلة، قام هؤلاء الكهنة بابتداع نص الخلق حيث أشركوا ثمانية آلهة، ومن هذه الحكاية أتى اسم خيمنو أي «مدينة الثمانية». وكانت رؤية هؤلاء الكهنة مختلفة قليلاً عن تصور كهنة هيليوبوليس أو طيبة.

في هذا المكان المقدس حيث أتصور حبيبي. يمكنني أن أسمع

---

(١) أو أشمونين. وهي معروفة أيضاً باسم هيرموبوليس.

مثلما كان يفعل، وأراه منبهراً في استماعه إلى النص المقدس الذي يصف أصل العالم، واليوم الأول، والساعة الأولى. تذكر. . .

في البدء كان نون، الخضم الأزلي الهائل، والسائل الأول، الثابت بلا حركة، كانت هذه المياه نون[١]، أب الآلهة، وأصل كل ما سيصير. وكانت المياه هنا، كانت تحت الليل، لأنه لم يكن هناك إلا الليل والظلام، كان ذلك قبل مولد السماء، وقبل خلق الإنسان، وقبل ميلاد الموت. وحين كان تهوت، يفعم بمن لا يظهر اسمه، ويستخدم الفعل. رسول الآلهة، ورئيس الكتبة، وسيد النجوم والزمن، خلق على التوالي أربعة أزواج، شكل الأول من نون ونونت، السائل الأول الذكري والأنثوي، وتمثل الزوج الثاني في حيح وحيحت، الفضاء اللانهائي الذي يرمز له بالموج الباحث عن طريقه، وكو وكوكت صورة الظلام، وكان الزوج الرابع يمثل آمون وآمونت، العنصر الغامض. استوحى أشكالها من الحيوانات التي تعيش في مستنقعات الدلتا. وكان للذكور رأس حية، وللإناث رأس ضفدع. وأخرجت رابية مزهرة من المحيط، اجتمع فيها الأزواج وخلقوا بيضة، وجعلوها في قمة الرابية، ومن البيضة انبثق قرص الشمس.

ذكرت آمون. أما كان علي أن أفعل؟ هل كان حاضراً في ذلك

---

(١) كلمة فرعونية تعني الماء (المترجم).

اليوم؟ في الحقيقة يظل أصله غير معروف. أسر لي أحدهم يوماً أنه إله من آلهة الريح، وأن أصله من مصر الوسطى، وأكد لي شخص آخر أنه من طيبة، وهو ما يفسر سيادته في هذه المدينة. من يستطيع أن يخبرنا بمعنى لكل هذا؟

في كل الأحوال، أنا على يقين تام من أن تعليم كهنة خيمنو سيترك أثراً قوياً في قلب وروح من سيحكم مصر.

ولكن الوقت تأخر الآن.

في سني هذه، تتعب العينان سريعاً، ويشتكي الجسد من كل ما نطلبه منه من جهد. أذكر الوقت الذي كان بإمكاني تسويد أوراق كثيرة دون أن أستشعر تشنجاً في أطرافي، ودون أن أبصر هذه الحشرات التي تحول بيني وبين الكلمة. كل شيء يمر، والشباب غواية. لكن هل كنا نعلم ذلك عندما كنا نعدو في ممرات اللامبالاة؟

من شرفتي، ألمح الغسق يزحف باتجاه الأرض، والعتمة تكتسح ضفاف النهار. الليل وشيك.

القاهرة

أخذت جوديت تعيد القراءة مفرقة بين الكلمات:

ـ في البدء كان نون، الخضم الأزلي الهائل، والسائل الأول، الثابت بلا حركة، كانت هذه المياه نون، أب الآلهة، وأصل كل ما سيصير. وكانت المياه هنا، كانت تحت الليل، لأنه لم يكن هناك إلا الليل والظلام.

أضافت حالمة:

ـ لدينا انطباع أننا أمام الإصحاحات الأولى لسفر التكوين. حيث قال الله:

«ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد، وكان كذلك... لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة». غريب أليس كذلك؟

ثم أشارت بسبابتها إلى ورق البردي:

- هل تتذكر ما أخبرتك به حول احتمال إصابة أخناتون بتشوه جسدي؟

- قلت أشياء كثيرة. . .

- فصلت في حديثي بشكل دقيق بين بيضوية الرأس وباقي الجسد، وأعتقد أن التفسير يوجد هنا. مثلما يوضحه النص. فالفرعون كان متأثراً بكهنة هيرموبوليس وبتصورهم لبداية خلق العالم.

وقرأت بصوت مرتفع:

-. . . وخلقوا بيضة، وجعلوها في قمة الرابية، ومن البيضة انبثق قرص الشمس. هل فهمت؟ كل شيء مأخوذ من نص كهنة هيرموبوليس، والأجدود[1]، وقصة الآلهة الثمانية الذين سيشاركون في خلق الكون، وأخذ البيضة كرمز للمطلق. ألم تخرج الشمس من البيضة الأولى، الشمس وكل أشعتها، وآتون بكل بهائه؟ ونتيجة لذلك، وعندما سيتقلد الفرعون مقاليد الحكم، بماذا سيأمر الفنانين المحيطين به؟ سيفرض عليهم جميعاً أن يصوروا رأسه ورؤوس أقربائه بشكل بيضوي.

- إذن فالأمر لايتعلق بتشوه في الرأس.

فرت ضحكة من بين شفتي عالم الآثار المصرية قبل أن يقول:

- ما تطرحينه متناقض تماماً، عزيزتي.

- لماذا؟

---

(١) خلقت آلهة الثامون التل محتورت الذي ظهر فوقه الإله رع، حسب رواية مدرسة هرموبوليس (الأشمونين) لأسطورة الخلق المصرية. (المترجم).

ـ ألم تؤكدي قبل قليل أن الفرعون كان يعاني من تشوه جسدي بسبب خلل هرموني وظيفي؟

رفعت جوديت يديها إلى السماء قائلة:

ـ لأنك لا تقدِّر كثيراً ما أقدم، فأنت لا تذكر شيئاً مما أقول. بالفعل أعتقد أن أخناتون كان مصاباً بمرض هرموني غير خطير، حد أنه لم يغير جسده، لكن هذا المرض لم يكن مسؤولاً عن شكل رأسه أو رؤوس بناته وزوجته. هما مشكلتان مختلفتان، ومن الخطأ عدم فصلهما. أعلم جيداً أننا من ناحية إزاء تشوه جسدي، ومن ناحية أخرى أمام تعبير عن إيمان.

ـ أخبريني إذن من أي مرض غريب كان الفرعون يعاني. داء فروهليش أقصي تماماً مثل تشوه الرأس. ماذا بقي لدينا؟

تنهدت جوديت ثم قالت:

ـ فعلاً أنت لا تذكر شيئاً مما أخبرك به. بعثت قبل عدة أيام رسالة إلكترونية إلى صديق مختص بالإفرازات الباطنية، تضمنت الصور الأكثر تجسيداً لأخناتون، ولن يتأخر رده كثيراً، وأعتقد أنه سيدعونا عنده مادام يقطن قريباً من هنا. في شارع قصر النيل.

ـ لكن من يكون؟

ـ يدعى ميشيل يعقوب، وهو ينتمي إلى العشرة في المئة التي تشكل المجتمع القبطي في مصر. كل دراسته في الطب كانت في فرنسا. لكن وعلى خلاف كل المسيحيين واليهود الكثيرين الذين اختاروا المنفى بعد أن جاء عبد الناصر إلى الحكم، قرر هو أن يبقى في مصر. أعتقد أن مرد ذلك إلى طابعه الكيخوتي. لقد وضع نصب عينيه، مثل العديدين

من أبناء ديانته، أنه يتعين على الوجود المسيحي أين يقاوم من أجل صراع البقاء.

هز لوكاس رأسه ثم أشار إلى الورق قائلاً:

ـ هل نتابع؟

ـ بطبيعة الحال. لكن قبل ذلك أود أن أطرح عليك سؤالاً. سواء تعلق الأمر بكيبر أو بأنوكيس، فهما يتفقان معاً على أن معظم المصريين كانوا يعانون من آلام الأسنان. كنت أجهل أن الأمر كان مستشرياً في تلك الفترة، فهل تعلم السبب؟

ـ هناك العديد من الأسباب، لكن فلنقل أن سبباً واحداً كان مهيمناً على باقي الأسباب الأخرى. فمصر هي صحراء قبل كل شيء، وتنقل الريح ذرات الرمل إلى المواد، وهو ما يؤدي إلى تآكل آواني الخزف المستعمل، فتجد الأسنان نفسها متآكلة تقريباً، لتعقب الإصابة ذلك. لقد كانا محقين معاً، فقد عانى أمنحوتب الثالث من آلام الأسنان بشكل فظيع، وهو ما جعله يأمر بتخصيص حوالي ستمائة تمثال للإلهة المدمرة للأسنان، والمسؤولة عن الأوبئة التي تضرب مصر.

ـ سخميت؟

أكد البروفيسور ذلك بهزة من رأسه وتابع:

ـ إضافة إلى ذلك، فقد بلغ اليأس بالملك المسكين، حد أنه كتب يطلب المساعدة والنصح من توشراتا خليفة شوتارنا. لا أذكر بالتحديد جواب ملك الميتانيين، لكنني أعلم أنه أرفق رسالته بتمثال صغير يمثل الإلهة عشتار، الشخصية الأنثوية الأهم في ضريح العظماء السوري البابلي. وأذكر أن الرسالة اختتمت بالعبارة التالية: «فلتحمني وأخي

سيدة السماء مائة ألف سنة، ولتمنحنا جميعاً سيدتنا سعادة كبرى». ليس هناك ما يخفف من وطأة ألم الأسنان. . .

ـ بالفعل.

ـ على أي حال، فما أرسله توشراتا لم يكن ذا جدوى مادام سيسلم العاهل الروح سبعة أشهر بعد ذلك، أي حوالي السنة الثامنة والثلاثين من حكمه.

من أنوكيس إلى كيبر

وحل النهار.

ما تزال زوجتي أنخري في الفراش. أستطيع رؤيتها من خلال فرجة الباب الموارب. تمسك مرآة في يدها اليمنى، ومسطرة مربعة من العاج في يدها اليسرى. تقوم بتزيين عينيها بمساحيق التجميل، وتطلي جفنها السفلي باللون الأخضر، والأسود لحاجبيها. هل هو زهو أم رفض الانحناء أمام إذلالات العمر؟ الإثنان معاً بدون شك، إضافة إلى أن استعمالها لمسدميت، ذلك المسحوق الأسود والذي له ميزة العلاج على ما يبدو. بعد ذلك تلمّع أنخري الودودة من احمرار شفتيها، وتدهن شعر رأسها بالزيت وأطرافها بالدهان. أجد سلواي وعزائي لكل هذا الوقت الضائع بأن أحدث نفسي أن أختي تقوم بكل هذه الأشياء لأنها ماتزال تحبني، وحتى تظل جميلة في عيني. كيف لي بإقناعها بأنها غير محتاجة لكل هذه الجهود للتعبير عن حبها لي والحفاظ على حبي لها؟ ومثل جاري، كان بإمكاني أن أتخذ رفيقة أو أكثر بحسب ما تسمح لي به ثروتي، لكني لم أفعل ذلك قط، لأن ذلك كان سيسيء إلى حبي. منذ خمسين سنة وأنا وأنخري نمثل شخصاً واحداً، مثل رباطي

ورق البردي متلاحمتين ومقفلتين بإحكام بحناننا، ومدقوقين بضربات الحياة. لا شيء يمكنه أن يفرق بيننا عدا الموت.

أعتقد أنها مثل الروابط التي كانت تجمع بين نفرتيتي وأخناتون.

تحدثت عن الطفولة الحالمة لمن أحببت، كانت أيضاً طفولة مستترة وسرية إذ كان مفصولاً ومبعداً عن أمور السلطة لأنه لم يكن منتظراً أن يحكم. توجهت كل الأنظار صوب أخيه تحوتمس. ألا يشبه تحوتمس حورس وريث عرش والده الراحل أوزيريس؟ لقد كان ولياً للعهد، يراقب كهنة مصر العليا والسفلى وكبير كهنة بتاح في ممفيس. أما أخناتون فلم يكن يملك لقباً. فثاني أبناء العائلة الملكية لا يحسب أبداً، وهو غير مرئي لأنه ظل أخيه الأكبر فقط. في الظل كبر، وفي الضوء حكم. الأشعة الأولى التي ستداعب وجهه ستصدر في يوم وفاة أخيه. ما سبب وفاة تحوتمس؟ لا أحد يعلم شيئاً سوى أن مرضاً هاجمه فمات بعد وقت قصير على موت قطه المحبوب تاميا والذي أودع في تابوت بهي. وكان الفرعون طاعناً في السن يمنح صورة كفتيلة مذبذبة تكاد تنطفئ. عندها لم يكن هناك من خيار أمام كل البلاط سوى التوجه بأنظارهم إلى الذكر الحي الوحيد المتبقي. كان أخناتون في سن الرابعة عشرة، وسيسحب الشاب الذي تجاهله الكل قبل وقت قصير إلى تلك القمم الأسطورية، هناك حيث تسكن الآلهة.

ومثلما أخبرتك في رسالتي الماضية، فلا أحد، ولا حتى الآلهة نفسها، يستطيع أن يبطئ مسير الشمس ومثالب العمر. فقد أخذ العاهل ينزلق ببطء مغادراً هذه الحياة. لكني أعترف أن روحه ظلت حية لما يكفي من الوقت وللتعبير عما أظهره في آخر سنوات حكمه حيث

انفصاله التدريجي عن آمون وإيمانه برع حورآختي، قرص الشمس، ومبدئ كل حياة. كلما اقترب الموت منه كلما امتد ظل رع حورآختي على ملامح وجه أمنحوتب الثالث ويظهر اختلاف هذا الظل، فإذا كانت الشمس هي مصدر الطاقة فالتعبير الظاهر أخذ يتغير تحت اسم ملكة إلهة ظهرت قبل وقت طويل تحت حكم الفرعون تحوتمس الرابع والتي كانت تعرف باسم آتون.

سيتم الاهتمام في النصوص، خاصة في نشيد سوتي وحور، وبشكل غير محسوس بوهج النجم، وجماله وحبه. وهو ما يعني أن الإله الشمسي، يمكن أن يظهر روحه وللجميع. لا، إنه بعيد جداً، وهو في غير المتناول، وغير معروف. فحرارته وضوءه الوحيدان المعروفان لانبثاق عطفه وكل قوته. لقد كان هو خالق الكون، والواحد المتفرد. أعتقد أن الطريقة الجديدة التي غذت تعاليم كهنة هيرموبوليس أثرت بشكل عميق على شباب أخناتون. وأنا أكيد من أنه كان مدركاً بأن هذه الرؤية لم تكن مطابقة تماماً للتقاليد المعترف بها من قبل كهنة آمون. ولم تكن هناك من حاجة لمحاربة قوى معادية، مادامت غير موجودة ومادام الكون قد تخلص من التهديد بالفوضى، وصار مملوءاً مفعماً بهذا الضوء الذي هو مصدر الحياة، والمحافظ عليها، ومادام آتون قد أغرق العالم وأقام الزمن. أعترف أني في البداية لم أفهم تطور إيمان أمنحوتب الثالث. وكان علي أن أنتبه إلى أن هناك تغييراً أخذ يطرأ عليه في اليوم الذي دشن فيه حوض الري. في ذاك الصباح، كان بإمكان الكل رؤية السفينة الرسمية التي يبحر على متنها الفرعون، والتي تحمل اسم «بهاء آتون»، ولم تكن القلعة الملكية قد أخذت بعد «دار

حب معات رع. . بهاء أتون». وداخل المعبد في طيبة، ألم يكن هناك محاسب موكَّلٌ لإقامة آتون؟

وقبل هذه العلامات المبشرة، يكتب تحوتمس الرابع والد أمنحوتب الثالث على جعران تذكاري «إذا ما تحرك الفرعون للقتال وجعل آتون أمامه، فإنه سينسف الجبال واطئاً على البلاد الأخرى».

وعندما شرع الفرعون الأعمال في الكرنك، ألم يخصص ساحة مختارة لرع حورآختي، الإله صاحب رأس الصقر المتغلب على قرص الشمس؟ ألم يأمر في بداية سنوات حكمه بأن تزين بوابات الهيكل الجنوبي بزخارف لسلسلة من مشاهد تقديم القرابين حيث يجسد مقابلاً لرع حورآختي المعروف بكونه «المسرور في الأفق»، والحامل لاسم «ضوء الشمس الموجود في القرص»؟ من كان ليظن أن تحولات كبرى ستعقب هذا وأن آتون مصدر كل حياة، والتعبير المرئي للأب، سيبدو أكثر جلاء بواسطة ابنه الفرعون؟

في الأصل لم يكن هناك دين مشترك في بلادنا. فكل منطقة كانت تملك، ومهما بلغت درجة أهميتها، إلهها الخاص الذي يمجده سكانها وحدهم. ففي ممفيس كان المجد للإله بتاح الذي استغل ميزته كفخّار من قبل عقيدة المخلصين له ليصاغ له على شكل البيضة التي خرج منها العالم، وفي هيليوبوليس كان آتوم «إله المدينة»، وفي خيمنو كان تهوت، وحورس في غيدفو، إلى غير ذلك. . . ثم تطورت الأمور وتبسط ديننا، وعاد الآلهة القاصرون إلى الخلف، وهكذا ستبرز عظمة رع إله الشمس. حدث ذلك قبل ارتقاء من سمي بـ«من كان لصالح آتون». في الحقيقة، قلت إنه يلزم الأرض القليل لتتحول إلى تبجيل إله

واحد. إن تعدد المحاريب المشتتة في كل البلاد ستمنع الاتحاد، وخاصة المعارضة المعلنة من كهنة آمون. آه من كهنة آمون! مع مرور الوقت أضحوا الأكثر ثراءً وقوة على الإطلاق بين كل الكهنة. وكانوا سيصيرون أكبر الخاسرين إذا ما تفوق الإله الواحد، غير الإله الذين كانوا يخدمونه. رقي آمون فصار «ملك الآلهة.. وإله الملوك». ولا أحد يعرف أصله. لأجل هذا يقصد باسمه «المخفي»، أو «الذي لم يظهر بعد»، وهو يمثل من خلق ويخلق العالم كل يوم، وهو يحوي كل شيء. ما أقوله لك الآن هو تحصيل حاصل، فالمصري الذي يرضى بأن يعيش اليوم بيومه، والرفع من نسله وتحسين دخل يومه، لا يمكنه أن يعرف ذلك. فهو لا يملك الوقت ولا الروح لطرح الأسئلة. فهو يؤمن بآمون بكل بساطة، وهذا الإله الذي نجح في نيل ثقته، جعلت منه الغالبية العظمى من إخوتي محاورها المميز. كيف لا يستمالون من قبل إله عرف عنه أنه مواس جيد ويبدلون ذلك بالجري وراء الحقراء؟ يمكن أن يصلى له فيلبي. فهو يتجاوز كل الأخطاء، إذا ما تم تبرير سلوك لا عيب فيه، إذا ما «اتبعنا طريق معات» مثلما يقول النص المقدس. وبالتزامن مع صعود نجم آمون، ارتفعت بشكل ملموس قوة الكهنة الذين يخدمونه حتى إنهم استطاعوا أن يجلسوا بعض ملوكنا على العرش، كما حدث للملكة العظيمة حتشبسوت. فلتتخيل إذن السلطة التي كانت لدى الكهنة. وكما ذكرت من قبل، فالتطور غير المحسوس بدأ منذ الملك أمنحوتب الثالث. وفي ظل حكمه، بدأ آمون يخرج عن الظل الذي قبع فيهِ طويلاً. ودون أن يدرك، إلا إذا كان واعياً بذلك، فقد أعد الملك عن طريق ابنه ارتقاء الإله الواحد. لا أعلم ما رأيك في

كل هذا صديقي كبير، لكن ومن جهتي، فأنا مقتنع بأن الأمر كله تمّ بإلهام ووحي إلهي. وأنا متشوق لمعرفة رأيك في هذا الموضوع.

من كيبر إلى أنوكيس

أنا متخلف يا أخي بحسب رأيك. على امتداد حياتي كلها، حدث أن قابلت كهنة من مختلف الأنواع. لم أحب يوماً هذا النوع من الناس، واحتقرت منهم خاصة أولئك المنتمين إلى طيبة، لأنهم استغلاليون ولؤماء ومحصلو ضرائب. هذا ما هم عليه حقاً. مستسلماً لسهادي، قمت بعملية حسابية. فإذا ما وضعنا جانباً مواد أقل أهمية مثل العسل، والأبخرة والورود، يمكننا أن نخلص إلى أن معبد آمون يتلقى يومياً، سواء في السنة الجيدة أو في السنة السيئة، ما مقداره مائتان وخمسون جرة جعة، وخمسة آلاف خبزة، وخمس وثلاثون قطعة حلوى، وأربع وستون إوزة، وللأسف، لم أستطع تقييم عدد جرار النبيذ، ولكنه وبحسب تقديري، لن يختلف كثيراً عن عدد جرار الجعة. وبطبيعة الحال، فمعظم هذا الطعام والشراب المحصل سيستغل في إطعام الكهنة والمشاركين في الحفلات الكثيرة التي تبهج أيامنا على السواء. لكن تذكر جيداً أن المستفيد الأول من كل ذلك هم الكهنة. فرؤوسهم منتوفة ولكن ليس امتيازاتهم. لمن يعود الخطأ؟ بالتأكيد لسادتنا، فكل الفراعنة الذين تعاقبوا على حكمنا، كان لهم هوس ملء المعابد بألف هدية

وهدية، من أجل استمالة رحمة الإله. هل تذكر أنه كان يخصص لهم جزء من الغنيمة المحصلة من حملات بلاد بونت؟ كلما تذكرت تنازل تحوتمس الثالث لكهنة آمون عن بعض أجود حقول وحدائق مصر العليا والسفلى إلا ويغلي الدم في عروقي! أراض مرتفعة زرعت فيها أشجار تنوء ثمارها، وبقر وجواميس، وذهب وأموال مبذرة، وعدد لا يعد ولا يحصى من الأحجار الكريمة! وكما لو أن كل هذا السخاء لم يكن كافياً، فقد قام تحوتمس أيضاً بإهدائهم أسرى آسيويين وسوداً، حوالي ألف رجل وامرأة ملزمين بملء خزائن الإله بالغزل والنسج وزرع أراضي الكهنة، بل ذهب به كرمه حد أنه وضع رهن إشارتهم ثلاث مدن دخلها غازياً وهي نوجا وجنوام وهيرنكر[١] وهي التي ستلفي نفسها ملزمة بأداء ضريبة سنوية لآمون. ولم يشكل سيتوس الأول استثناء، فقد أهدى هؤلاء دبابيس كتان سمينة وجل الأحجار الكريمة التي استولى عليها في غزوته لسورية، ولأنه لم يكن سعيداً بما أعطى فقد أضاف إلى ذلك كله أمراء أخذهم «بيده» والذين جعلوا عبيداً لخدمة خزائن آمون. باسم آمون، كل شيء يؤخذ، المواشي والبساتين والساحات والضيعات والأكواخ. مكّنتني وظيفتي ككاتب ملكي من الاطلاع على أشياء كانت محجوبة على عامة الناس، وقبل أن أصرف من قبل آي بوقت قصير، اكتشفت لفافة جعلها الكهنة لهم لعد ثرواتهم، فقمت بنسخها متوقعاً أنها قد تنفع في يوم ما. ولم أخطئ في ذلك، فإذا لم تكن بذات جدوى في الوقت الذي كنت فيه موظفاً، فإنها اليوم ذات فائدة. سأرفقها برسالتي

---

(١) مدن في بلاد كنعان.

هاته علها تغني كتابك. ستتأكد أن كهنة طيبة كانوا فاحشي الثراء، أكثر من كهنة ممفيس أو هيليوبوليس.

وكما يمكنك أن تتأكد من ذلك، فغنى طيبة يتجاوز غنى هيليوبوليس بأكثر من ست مرات، وأكثر من ست وعشرين مرة من ممفيس، وتضم طيبة قطيعاً أكبر بعشر مرات ذاك المتواجد منه في هيليوبوليس، وأربعين مرة أزيد من المحسوب على ممفيس، ومساحة الأراضي والحقول التابعة لطيبة تتجاوز خمسين ذراعاً مربعا! وكونها مدينة ملك للآلهة فهذا يشكل ميزة مطلقة لها أمام باقي مدن البلاد الأخرى! اللعنة على آمون! أمهات هؤلاء العبيد زنت مع العقارب! وبطبيعة الحال، ومن أجل إدارة ثروة مماثلة كان عليهم الاستعانة بجيش من الموظفين! موظفون من أجل ممتلكات المعبد، وآخرون من أجل إدارة الخزينة، والحقول والمخازن والمواشي... ولكل إدارة مدير وكتبة.

إذن أخي كيير، ليس هناك ما يفاجئ في أن تغرب عاصمة «من كان في خدمة آتون». يساعدنا العمر معاً، في فهم أنه لا شيء يقف أمام مسيرة النهر الهادئة... ولم يكن هذا حال أخناتون. لم يكن يبلغ المسكين ثمانية عشرة سنة عندما ارتمى في حضن هذه المغامرة المجنونة.

أعود الآن إلى فقرة في رسالتك. كتبت تقول «ودون أن يدرك، إلا إذا كان واعياً بذلك، فقد أعد الملك عن طريق ابنه ارتقاء الإله الواحد». هذا صحيح، فتأثير الأب وكهنة هيرموبوليس كان قوياً على كل قرارات «من كان في خدمة آتون». فما حدث لم يكن فعلاً مدفوعاً

ولكنه محصلة لتطور معين. أريد أن أكمل هذا التوثيق. فإضافة إلى هذا التأثير الثنائي يمكن إضافة تأثير رجل لم يكن كاهناً أو ملكاً أو أميراً، ولكنه كان يقبع في الظل وبين أريج الحدائق. فقد لعب دوراً هاماً في كل هذا. ما أقوله ليس إلقاء لكلام في حق الآخرين على عواهنه، ولكني أقدم الدليل على ما أقول. أنت تعرفه، فقد تناقشنا حول مصيره، إنه ابن الكاتب حبو. كان مهندساً بالفعل، ومداوياً بكل تأكيد، لكنه كان يملك قدرات أخرى وسلطات غير ظاهرة. لقد كان أعلم الرجال في زمنه. وكان يتحكم في علم الحساب ويحفظ عن ظهر قلب خريطة النجوم، وفن التخطيط. ولم يحجب عنه تعداد السكان ولا تفصيل الحجارة الكبيرة وتحريكها، حتى إنه كان يعلم طريقة غلق المتاحف بالرمل بخفقة من جفنه.

سمعته يحدث الثريا[1]، وكانت ترد عليه بلا شك. كانت نظرات ابن الكاتب حبو تخترق ما لا يخترق. فاجأتهما هو والطفل أكثر من مرة، وهما يتجولان في حدائق القلعة الملكية، وراقبتهما وهما جالسان لساعات طويلة على ضفاف النهر. كنت بعيداً لأتمكن من سماع ما كان يقوله ابن الكاتب للفرعون المقبل، ولكني لست محتاجاً لأشياء كثيرة لأخمن أن الحكيم كان يحدث الشاب عن تلك الآلهة التي تقود إلى الواحد، وتلك القوة الغريبة التي تعيد خلق الكون في كل لحظة. كان الطفل يسمع ويتشرب كلمات الحكيم، والتي كانت تذكر طيبة، مركز العالم، والقطب الديني لمصر. ثم كانت هناك أصوات أخرى. صوت بارنفر كبير الخدم الملكي، وصوت آبر إل، الذي كان وزيراً لدى

---

(١) الكواكب السبعة.

أمنحوتب الثالث، والذي كان أيضاً مؤدب المراهق، وصوت ميري رع الأول وسوتي كبيرَي كهنة طقس آمون، وصوت سوتي وحور المهندسين اللذين كانا بارعين مثل ابن حبو، فهما من حرر هذا النص الجنائزي الممجد لإله غريب، آمون الشمس، مختلف عما كنا نتصوره. كيف لا يمكن للفرعون أن يتأثر بهذا النشيد، والذي نسخته لك مرة أخرى.

«تحية لك، يا رع الكامل، والساطع منذ الفجر. أشعتك في الوجوه لكنها لا تدرك. حتى الذهب الخالص لا يمكن أن يقارن بنورك. أيها البنّاء، الذي حدد جسده في الذهب، والخياط الذي خاط نفسه بنفسه. أيها النحات الذي لم ينحت أبداً. أيها الواحد الذي لا مثيل له، يا من عبر الزمن الأبدي، والمتحكم في ملايين الطرقات الخاضعة لك.

عندما تعبر السماء يمكن للجميع أن يراك، لكن مساراتك محجوبة عن الأنظار. تظهر كل يوم ومنذ الفجر، وتكون الملاحة التي تقودها جلالتك ناجحة. في يوم واحد تجوب طريقاً طويلاً يبلغ عشرات ملايين الأماكن، لكن كل يوم بالنسبة لك يستمر لحظة فقط. تنهي بالمثل ساعات الليل عندما نومك. وتستمر مأموريتك دون أن تريح قواك. كل الأعين تبصر بفضلك ولكنها لا تفكر في ذلك عندما تنام جلالتك. توقظ العالم عندما يبزغ الفجر. ولكن عندما تنام في الأفق، ينام العالم كما لو أنه ميت. تحية لك، يا آتون النهار. خالق الإنسان وجاعله يعيش، أيها الصقر

الكبير ذو الألوان المختلفة، من أتى إلى العالم عندما استفاق من تلقاء نفسه، وظهر وحيداً دون أن يولد. يا حورس الأول الذي في قلب نوت السماوية التي تسرف فيها صيحات الفرح عندما يستفيق مثلما عندما ينام، وحدّاد نتاج الأرض. يا آمون الرجال الذين قهروا الأرضين من الكبير إلى الصغير، والأم المحسنة للآلهة، وللناس، والصانع الصبور الذي عرف الإعياء بينما كان يصنع منهم أعداداً غير محدودة. أيها الراعي المتيقظ الذي يحمي قطيعه، والمنفى الذي يتيح له العيش. يعدو ويتعجل ويسرع. أنت خبرع[1] في الميلاد المجيد، رقيت جمالك في جسد نوت السماوية. أنت الذي تصل كل يوم إلى طرف الأراضي بينما يراها من يمشون عليها. تلمع في السماء ما سيصير عليه اليوم. وتشكل المواسم مع الشهور. بمشيئتك تبعث الحرارة، وبمشيئتك تصنع الرطوبة. أنت من يأذن للأجساد أن تستريح عندما تقبلها. كل الأرض تضطرب سعادة عند استفاقتك اليومية وتبجلك»[2].

نعم أخي أنوكيس، صوت والد أخناتون وكهنة هيرموبوليس، إضافة

---

(١) يعتبر خبرع في العقيدة المصرية شمس الصباح، بمعنى شكل لإله شمسي مع رع وآتوم. ويعد إله هليوبوليس والذي أتى إلى الوجود «تحت شكل الوجود». خبرع تعني أيضاً «صار» و«وجد».

(٢) نشيد محفور على لوحة وجدت في قبر «القائمين على أشغال آمون» سوتي وحور، تحت حكم أمنحوتب الثالث.

إلى أصوات أخرى ستحفر أخاديد في قلب «من كان في خدمة آتون» المخصب. وبزغ النور ذات صباح.

تقبل تحياتي، واقتسمها مع زوجتك الودودة.

بالمناسبة، هل لاحظت أن الجعة المصنوعة من قبل ذاك المخادع مب آمون ليست بمثل جودة الزمن القديم؟ لست أعلم أي نوع من الشعير يستعمل أو من أي نخلات أتى بتلك التمرات التي تجعل مذاقها حلواً. لا مقارنة بين هذه الجعة وما كنا نشربه حتى نسقط أرضاً في ساعات الدرس في مدرسة الكتبة، إذا كنت تعرف صانع جعة جيداً قريباً من المنطقة التي أقطن بها، فلا تتردد في مدي باسمه.

القاهرة

وثبت جوديت إلى الخلف متفادية اصطدامها المحتّم بسيارة أجرة تجاوزت مسرعة الإشارة الضوئية الحمراء. قالت محتقنة:

ـ عبور طريق في القاهرة يشكل تحدياً حقيقيا إزاء الحياة.

علّق مرافقها وابتسامة خفيفة ترتسم على شفتيه:

ـ ستنتهي بالتعلم. الكل يكمن في تمثل قانون اللعبة. هل رأيت هذا السائق؟ قد تكون هذه مخالفته الخمسين لهذا اليوم في رأيي، ومع هذا، فلا بد أنه ولأسباب غامضة سيحترم الإشارة الضوئية الحادية والخمسين. لماذا؟ لا تسأليني. هي أشبه بلعبة القمار الروسية. لابد للمقامر أن يتوقف ليرمي ثانية.

أشارت جوديت إلى بناية مهيبة تدل على أنها عرفت فترة مجيدة، ثم قالت:

ـ من المحزن رؤية ما آلت إليه البنايات الجميلة لسنة ١٩٣٠. من يظن أنه في فترة من إلفترات، لم يكن هناك فرق بين بعض أحياء العاصمة المصرية، ونظيراتها الغربية.

ـ معك حق، فاليوم ولسخرية القدر، يحرص المسؤولون على العناية بالمعابد والآثار القديمة أكثر من البنايات الحديثة.

سأل وهو يمسح جبهته:

ـ هل مازال المكان بعيداً؟ أكاد أختنق.

ألقت جوديت نظرة على البطاقة المربعة حيث دونت العنوان، ثم قالت:

ـ ٢٣ شارع قصر النيل... اقتربنا.

ـ لا شك أني منجذب لك كثيراً يا جوديت، لتسحبيني خلفك في درجة حرارة تفوق الثلاثين من أجل مقابلة رجل لن يضيف لما نعرف شيئاً.

ـ لا تكن واثقاً. فأنا أكيدة من أن زيارتنا لن تكون بلا نتائج. سترى. فالدكتور يعقوب ليس نكرة، فهو أحد أهم المختصين في الإفرازات الباطنية المشهود لهم عالمياً.

مطّ لوكاس شفتيه ثم قال مشككاً:

ـ لديك فن تحطيم الأبواب المفتوحة.

ـ وأنت بروفيسور، لديك فن جعلها مقفولة بأي طريقة.

أردفت قائلة:

ـ أعيد التفكير في النقد الذي ذكره متراسلانا حول كهنة آمون. أرى أن في ذلك بعض المبالغة. بطبيعة الحال، كانت المعابد تحصّل كميات كبيرة من القمح والذهب والأحجار الكريمة، لكن ألم تكن تلك طريقة يتبعها الملك من أجل إظهار تقواه ولامبالاته إزاء ما هو مادي، وفي

الوقت نفسه، كان المعبد يمنح للملك أمن بنك؟ وإذا كان الفيضان السنوي سيئاً، يمكن اللجوء إلى المخازن من أجل مساعدة الناس. أعتقد أن الماكرين كانا منحازين كبيرين.

فتح لوكاس فمه ليعلّق على ما قالته الشابة بيد أنه لم يملك الوقت لذلك، إذ اقتحمت مدخل إحدى العمارات. كاد يتعثر في خطاه حتى إن شتيمة فرت من بين شفتيه. وضعت عند باب المصعد قطعة ورق مقوى مستطيلة، كتب عليها «ذاالآلة معطلة».

ـ أنا في كابوس! في أي طابق يقيم هذا السيد؟

ـ لا تخش شيئاً، فهو في الطابق السادس فقط.

جحظت عينا فيليب لوكاس ليقول:

ـ في الطابق السادس فقط؟ ألا تملكين ذرة رحمة؟

وكان جواب جوديت أن طوقت ذراع مرافقها، وسحبته خلفها قاصدة السلالم. بعد توقفات عديدة، تخللتها لعنات متنوعة، وصلا أخيراً إلى غايتهما.

نقرت الشابة جرس الباب الوحيد في ذلك الطابق، بعد عدة دقائق، ظهر من خلف الباب رجل خمسيني أصلع. قال وابتسامة دافئة تزين وجهه:

ـ أهلا وسهلا[١]. مرحباً بكما.

قدمتهما جوديت لبعضيهما قائلة:

---

(١) (المترجم) كتبت بالعربية في النص الأصلي.

ـ البروفيسور فيليب لوكاس. الدكتور ميشيل يعقوب.

رد الطبيب:

ـ تشرفت.

مد يده مصافحاً عالم الآثار المصرية مضيفاً:

ـ الشرف لي. فقد سمعت عنك الكثير.

ثم أضاف بعد أن لحظ التعب البادي على وجه ضيفه، هازاً رأسه متأسفاً:

ـ آه! أعطاب المصعد الملعونة!

ثم رفع رأسه إلى السماء بملل:

ـ هذه هي مصر، بلاد الآلهة وبلاد الصبر. تفضلا. تفضلا رجاءً!

كان البيت يوحي بشيء غير مألوف، يعود لزمن مضى وانتهى. صناعة الخشب ونوعيته، ومقاعد بوسائد من الكتان، وصينية من النحاس المنقوش، وضعت على طاولة واطئة بثلاثة أرجل، فيما احتلت نرجيلة إحدى الزوايا. وكانت الجدران مكسوة بلوحات زيتية تعرض عدة مواقع في العاصمة المصرية والريف، وصور بذوق مريب، ومثل غالبية البرجوازية المصرية، هناك بعض الحجر في «صور على الحجر» للرسام الاسكتلندي المستشرق ديفد روبرتس. سأل الطبيب:

ـ ماذا تشربان؟

ردت جوديت:

ـ أي مشروب بارد سيفي بالغرض.

وافق لوكاس بهزة من رأسه..

أشار الطبيب بيده، فدخل خادم إلى الحجرة. كان رجلاً ببشرة سوداء مثل خشب الأبنوس، يضع ثوباً طويلاً من الحرير وقد تمنطق بحزام عريض. لاشك أنه ينتمي إلى القلة السودانية التي خدمت في القديم البورجوازيين المصريين. أما اليوم، فالفلبينيون هم من يقوم بهذا الدور. أمره يعقوب واحتل أحد المقاعد. ثم سأل جوديت:

ـ أما زلت منغمسة في آثارك البائدة؟

ـ دائماً يا دكتور. لا نشفى من مثل ذلك العشق.

ـ أفهم ذلك، مع أني على العكس منك تماماً، أهتم بالأحياء، أما الأحجار القديمة فلا تعني لي شيئاً.

مال على ضيفه وقال:

ـ أتصور أنها ليست وضعيتك.

رافقت هزة كتفيه رد لوكاس عندما قال:

ـ بدأت أصاب بالتخمة. لعله العمر، ثم إني رأيت الكثير.

ابتسم الطبيب وقال:

ـ العمر أيها العزيز. إنه لعنة الآلهة.

تدخلت جوديت قائلة:

ـ على ذكر الآلهة. هل انهمكت في إلهنا؟

ـ «من كان في خدمة آتون»، و«خادم قرص آتون»، و«من رضي عنه آتون». هناك مشكلة فعلية في ترجمة التعبير الصحيح.

انتظر حتى وضع الخادم صينية من نحاس ضمت قنينة وكؤوساً ثم أضاف:

ـ بطبيعة الحال. فمنذ أن تلقيت رسالتك اهتممت بالموضوع. إنها مسألة غريبة بالفعل...

ـ و...

ـ أعتقد انه بإمكاني وضعكما أمام فرضية، مع تحفظي.

أشارت جوديت إلى مرافقها وقالت:

ـ أحذرك، فأنت أمام فرعون المشككين.

ـ وهل يمكننا أن نلومه؟ فهذه القضية معقدة. لو أننا استطعنا فحص جثة أخناتون!

استرسل في حديثه مسرعاً مخاطباً لوكاس:

ـ لأنه، وإذا ما فهمت الأمر جيداً، لم يتفق علماء الآثار المصرية أبداً على تحديد هوية المومياء الغامضة المكتشفة قبل عدة سنوات في وادي الملوك.

ـ تقصد بدون شك من يرقد في القبر الحامل للرقم ٥٥؟

ـ نعم. فمنذ أن راسلتني جوديت، اعتقدت أنه من المجدي الاطلاع قليلاً على الموضوع. أين وصلت القضية؟ هل يتعلق الأمر بأخناتون أم لا؟

استرخى لوكاس في مجلسه، ثم قال:

ـ كما قلت ذلك، فالأمر معقد جداً. كل شيء بدأ في مستهل شهر كانون الثاني من سنة ١٩٠٧، عندما قامت بعثة منظمة من قبل المدعو تيودور ديفيس، وتحت قيادة عالم آثار إنجليزي يدعى إدوارد أريتون بسلسلة من أعمال الحفر في وادي الملوك، قادهما الحظ إلى اكتشاف

قبر يحمل رقم ٥٥. وكان على مقربة من قبر رمسيس الحادي عشر، وتقريباً في الجهة المقابلة تماماً للمكان الذي اكتشف فيه اللورد كارنارفون خمس عشرة سنة قبل ذلك، جثة توت عنخ أمون. وقبل أن أتعمق أكثر في سرد هذه القصة، أود أن أشير إلى نقطة مهمة جداً. فهذا الفريق اتصف بإهماله الشديد أثناء قيامه بعمله، حد أنني يمكنني أن أخبرك أنها كانت أسوأ عملية تنقيب وأكثرها كارثية أجريت على الإطلاق في وادي الملوك أو في أي مكان آخر. في التقرير، وأنا أسميه كذلك تجاوزاً، والذي ضم العديد من الفجوات، أتت كل إفادات الشهود الذين عاينوا عملية الحفر متناقضة. أما الأوصاف فإما أهملت بالكامل أو إنها كانت ناقصة. وهذا ما فرض التواجد أمام روابط مشوشة، وغير أكيدة وفي الغالب متناقضة. وإذا كان القبر يعتبر لغزاً فإن ما كتبه الفريق عن الاكتشاف يعد لغزاً آخر.

ـ هذا يدفع إلى الاعتقاد بأن الآلهة التي أزاحها أخناتون انتقمت منه بعد موته.

رد لوكاس:

ـ من يعلم!

ثم تابع:

ـ عندما وصل الفريق إلى مدخل القبر، لمح أعضاؤه ممراً منحدراً يقود إلى الداخل. كان مقفلاً من بعض جوانبه ومملوءاً بحطام متناثر. وفي طرف الممر كان هناك سلم منحوت من الصخر مكون من حوالي عشرين درجة. وفي الطرف القصي، وجد الرجال أنفسهم في مواجهة حائط مشيد بحسب أقوال الشهود، من بقايا حجرية من الجير بطريقة

فجة على الأنقاض وليس على الصخرة، وهو أمر غير معتاد. وعندما تم إخلاء الممر برز عائق آخر، تمثل في حائط ثان مكون أيضاً من قطع حجرية مغطاة بالإسمنت. وعلى الواجهة، نقش ختم بيضوي يمثل ابن آوى مستلق فوق تسعة مساجين مكبلي الأيادي. تجدر الإشارة إلى أن الختم نفسه الذي يبدو عادة في مدافن طيبة بدا أيضاً عند مدخل مدفن توت عنخ آمون. وخلف هذا الحائط، توجد الحجرة الجنائزية. وعلى غير ما انتظره الفريق، كانت الغرفة غارقة في فوضى عارمة. ألواح من الخشب، وعلب، وطوب من الطين، وأحجار مفتتة، وحتى أدوات عمال، ألقيت هناك كيفما اتفق، والكل مغطى بقشرة رقيقة من الذهب.

ـ قشرة من الذهب؟

ـ زخات حقيقية من الذهب، إذا ما صدقنا شهادة إيما أندروز، والتي كانت ضمن أعضاء الفريق، والتي نشرت في سيرتها أن كل حجرات المعبد كانت مغطاة بقشرة من الذهب حتى إن انطباعاً تولد لديها بأنها كانت تمشي على الذهب، وأن الذهب أيضاً التصق بشعر رأس العامل المصري المجعد الذي كان يعمل معهم داخل المدفن. من المحتمل أن هذا الذهب كان قد فصل عن الأدوات الهشة والتي كانت في الحلي المعمارية التي رفعت إلى الأعلى قبل أن يعاد وضعه.

ـ لكن هذه الفوضى هي من عمل اللصوص من دون شك؟

ـ مستحيل. لا يمكن للصوص أن يعيدوا غلق المكان بعد مرورهم. زد على ذلك أن القطع النفيسة كانت ماتزال مخفية بالمكان. كل المؤشرات تدل على أن تلك الأبواب فتحت مرة ثانية بعد الغلق الأول، وأن المكان تعرض للتدنيس؟

- هي عملية مبنية أساساً على إفراغ القبر من كل العلامات المقدسة المتمثلة فيه، وبالصدفة كل ما يرمز أو يشير إلى الإله آتون أو حتى إلى أخناتون.

- أفترض أن هناك رمزاً دينياً خلف هذه العملية؟

- واللعنة خلف ذلك، فبحسب المصريين لا يمكن لروح أن تنتقل إلى الحياة الخالدة إلا إذا بقيت جثة صاحبها حية أو صورته أو على الأقل اسمه، وإذا ما حدث مكروه وانقطعت كل ذكرى للميت واختفت فإن روحه تعذب وتهلك مع ما يترتب على ذلك من لعنة لا يحبها أحد. الموت الثاني، هو الموت النهائي. لكن وما هو أكبر من هذه العملية، والأكثر غرابة هي الأشياء الجنائزية المختلفة التي تؤثث المدفن. فمعظم هذه الأشياء كان لها أصول مختلفة ولم تكن تشكل وحدة منسجمة، فقد تراكمت «طوبات سحرية»، وعربات فخارية وعلب وتمائم وقاعدة تمثال من الخشب، وتماثيل صغيرة. وكان مكتوباً على وعاء خاص بالمرحاض، اسم أمنحوتب الثالث، وعلى آخر أسماء الملكة تيي، وعلى تميمة من الحجر الإسم الوحيد للملكة، وعلى قطع صغيرة من الخشب، أسماء الملك والملكة. وبين الأنقاض وجدت العديد من الأختام الصغيرة من الصلصال نحتت إطار توت عنخ آمون.

تساءل ميشيل يعقوب متعجباً:

- توت عنخ آمون؟

أضاف:

- ولكنه حكم قبل مدة طويلة!

- مثلما ذكرت قبل قليل. نحن أمام تناقض واضح، فمهما كانت

الأسباب فإن تعدد الدخول والخروج هو السبب في هذه الفوضى، كأنما كان يعمل بشكل متقطع على سحب وتبديل بعض العناصر. وكان الأمر أكثر صعوبة، إذ كان السقف متصدعاً، وأخذ الماء يتسلل من شقوقه، مخرباً المحتويات، وبخاصة تلك المصنوعة من الخشب، ومتلفاً الألواح التي غدت غير مقروءة. فلنسجل أنه في ١٦ من كانون الثاني من سنة ١٩٠٧، أي قبل حوالي عشرة أيام من فتح المدفن، حدث تساقط مهم للأمطار دام لمدة ساعتين، ومن المحتمل أن آثار الجريان كان يعود لعاصفة حديثة وليس لسوء الأحوال الجوية الماضية. ولا يحوي المدفن توابيت حجرية وهو ما يؤشر على أنها سكنت بصفة استعجالية. بالمقابل، وفي كوة حفرت في جانب الحائط الأيمن، يمكن ملاحظة أربعة أوعية محمية بقوالب على شكل رؤوس آدمية تحمل شعراً مستعاراً عسكرياً قصيراً، وهي حلاقة عرفت في نهاية الأسرة الملكية الثامنة عشرة، ومن المحتمل أنها كانت بوحي من الملكة نفرتيتي.

سأل الطبيب:

- اعذر جهلي. فيم كانت تستخدم هذه الأوعية؟

- هي أوعية جنائزية تحوي أمعاء الموتى المحنطين.

- وهل وجدت أمعاء في تلك الأوعية؟

- اعتماداً على ما قاله الحاضرون، فوعائين من أصل ثلاثة التي خضعت للتحليل ضمت كتلاً صلبة، متلاحمة وسوداء اللون تشبه الزفت، وتحيط منطقة وسطى محددة ومصنوعة بمادة مختلفة بنية اللون وهي سريعة التفتت. وفي وسط القاعة يوجد سرير من الخشب مزين برأس أسد، والذي كان من المفترض أن يوضع الجثمان عليه. أقول

«من المفترض» لأن الدعامة تآكلت بفعل الرطوبة حتى انتهى بها الأمر إلى الاستسلام ليسقط التابوت أرضاً، ويسبح في مستنقع مائي. وصار الجسد يعاني حالة متقدمة من التفسخ، وقد تأذى الرأس بشكل كبير. أشار تيودور ديفيس في كتابه المنشور[1] أنهم وجدوا أمام جثة شخص قصير القامة، له يدان رقيقتان، وفم مشرع بأسنان كاملة. كان الجسد مغلف بقماش منسوج بعناية ودقة وبلون قاتم. وبعد أن شك بأن يكون الجسد قد تأثر بفعل الرطوبة عمد ديفيس إلى لمس أحد الأسنان محدداً أنه قام بذلك باحتياط شديد فسقطت متفتتة.

عبّ لوكاس من عصير الليمون قبل أن يتابع:

ـ كانت الأسماء المحفورة على التابوت قد حكّت، وقناع الذهب المفروض أن يتواجد على الغطاء كان غائباً، كما استأصلت التعاليم المنقوشة على العصابة الذهبية الصغيرة التي تزين الطرف العلوي للوعاء، والعمود المركزي، ودقت النصوص التي كانت على الأوعية. يمكن ملاحظة أن ذلك التخريب لم يكن بفعل الطبيعة ولكن أحدث بفعل أياد بشرية. الـ. . .

قاطعه يعقوب:

ـ بروفيسور. لم تقل لي حتى الآن من يكون صاحب هذا القبر؟

ـ أنا قادم لذلك فصبراً. بحسب ديفيس فهو يعود للملكة تيي مادام قد حوى اسمها، واسم زوجها في مجموعة من المحتويات، بالمقابل

---

(١) Davis Theodore, Gaston Maspero et G.Elliot Smith, The Tombe of Queen Tiyi, 25, Test on the discovery and excavations. Londres, Costable, 1910, p45.

لم يشاطره فيغال ممثل مصلحة الآثار القديمة الذي ذهب إلى أن الرفاة تعود لأخناتون. وقد ذهب في نظريته إلى أن ملاحظاته قادته إلى أنه تم الإبقاء على اسم تيي بينما استأصل كل ما يتعلق بأخناتون. وللحسم في الأمر، استعان ديفيس بخدمات طبيب أوروبي ومختص أمريكي في علم التوليد كان يزور مصر في تلك الأثناء. فطلب منهما فحص الجسد أو ما تبقى منه، وأن يحددا جنسه، والواضح أنهما فعلا ذلك بسرعة، خلصا بأن تجويف الحوض يعود لامرأة. ويمكن تخيل راحة ديفيس، فقد كان متمسكاً بملكته! وللأسف الشديد، لم تدم سعادته طويلاً، إذ أنه وبعد وقت قصير، ففي شهر تموز من سنة ١٩٠٧، بعث الرفاة والعصابة الصغيرة المتسخة والعصابات الذهبية إلى إليوت سميث، أستاذ علم التشريح في مدرسة الطب بالقاهرة. وهنا سيحدث منعطف جديد! فقد أثبت سميث أن الموضوع لا يتعلق بامرأة بل بشاب مات وعمره ما بين ثلاثة وعشرين سنة وخمسة وعشرين سنة. و... نقطة مدهشة أنه كان يعاني من تشوّه في الرأس. وبما أن أخناتون يظهر برأس بيضوية في مجموعة من الصور الجدارية، والتماثيل المنحوتة، فقد استنتج سميث دون احتمال للخطأ بأن المومياء تعود لأخناتون.

ـ كيف تمكن من تحديد العمر بتلك الدقة؟

ـ ليس لمثلك أيها الطبيب، سأشرح ما معنى أطراف العظام الطويلة...

ـ أطراف ما نسميه عظاماً طويلة... لكن أين العلاقة؟

ـ بعضها لم يكن ملتحماً، والضرس الثالثة من الجهة اليمنى لم

يظهر بعد، والذي دعم رأي سميث بأنه إزاء هيكل عظمي ينسب إلى شاب.

بدت الحيرة على يعقوب بيد أنه ترك لوكاس يستمر في عرضه:

ـ بعد أربع وعشرين سنة، أي في سنة ١٩٣١ سيضيف متخصص آخر يدعى ديبي جرعة من الملح أو لأقل من الرمل. فبعد تشريح عميق أكد أن قضية أطراف العظام الطويلة غير مؤكدة، والأكثر الذي أصاب نظرية ديفيس هو أن المومياء لا تمثل أي علامة من علامات التشوه الرأسي، ملاحظاً أنه سبق لمجموعة من الأخصائيين أن علموا أن الأمر لا يتعلق بأخناتون مادام هذا الأخير قد اعتلى العرش وسنه تقارب الخامسة عشرة، وأنه حكم لمدة سبع عشرة سنة. بمعنى أنه مات وهو يبلغ من العمر أزيد من ثلاثين سنة، ونتيجة لهذا فإن عمر المومياء يتعارض مع عمر الفرعون. وكان من المستحيل معايشة كل ما عرفه الملك من أحداث في عمر قصير.

ـ العديد من النظريات المتضاربة!

تدخلت جوديت قائلة:

ـ هناك عامل آخر مشوّش، فقد كانت يد المومياء اليسرى موضوعة على صدرها بينما كانت الذراع الأيمن ممدودة بجانب الجسد.

تساءل الطبيب مندهشاً:

ـ وإذن؟

قبل أن يضيف:

ـ ماذا يعني ذلك؟

ـ هي هيئة طقسية، وموقف تقليدي تتخذه في الغالب الأعم. . ملكات مصر.

أغلق ميشال يعقوب عينيه برهة كأنه يحاول تنظيم أفكاره، ثم خلص:

ـ هذه حكاية مجانين.

أكد لوكاس:

ـ ستظهر حلقة جديدة. ففي سنة ١٩٦٣، قام البروفيسور هاريسون من ليفربول، والبروفيسور بتوي من القاهرة مساعدين من قبل مختص في الأشعة النافذة بالقيام باختبارات جديدة على الرفاة، وفي هذه المرة، وصلوا إلى أن الهيكل يشهد هيئة أنثوية موافقة على شكل خفيف لقصور أقفاد.

ـ قصور في الإفرازات الهرمونية من الغدة النخامية، وبالتالي انخفاض في إفراز الهرمونات الجنسية.

ـ نعم أيها الطبيب، بالنسبة لهؤلاء الباحثين فالأمر يتعلق بذكر بصفة قطعية. لكن، ولأنه توجد دوماً «لكن» في هذه المغامرة، من المستحيل التحديد إن كان قد توفي في العشرينات من عمره.

وبحركة قاطعة رفع فيليب لوكاس يديه وتركهما يسقطان على فخذيه ليختم:

ـ القبر الحامل رقم ٥٥، هو في الحقيقة متاهة.

رد الطبيب:

ـ ولكن، أليس لديك فكرة معينة عن الموضوع؟

ـ بالنسبة لي، ليس هناك شك بأن المومياء هي لأخناتون.

قاوم الدكتور يعقوب رجفة وهو يقول:

ـ أخناتون؟ إذن فأنت تنضم لنظرية إليوت سميث.

ـ في الحقيقة أرى أنه كان مصيباً، زد على أن التقديرات بخصوص عمر المومياء ما تزال تتقدم، فأحدث الدراسات أوضحت أن صاحب القبر مات في سن ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين، وهو ما يجعلنا نتطلع إلى أن الأمر يتعلق بأخناتون.

ـ هناك شيء لا أستطيع فهمه. ألم يقر معظم الخبراء أن هذا القبر قد أعد في البداية لاستقبال أنثى؟

ـ هذا صحيح.

ـ إذن للملكة تيي؟

ـ لا، المفضلة لدى الملك. زوجة أخناتون الثانية.

ـ زوجة ثانية؟

ـ لا نعرف عنها الشيء الكثير سوى أنها من أصول أجنبية، من المحتمل أنها ميتانية. ومثل سابقيه كان لأخناتون حريماً مهماً، وزوجات يقال إنهن ثانويات. لكن من بين المفضلات جميعاً لديه، كانت كيا، وهذا هو اسمها، وهي التي احتلت مكاناً أكثر أهمية. وفي سنة ١٩٥٩، قام عالم آثار مصرية يدعى هايس بشد الانتباه إلى وعاء خاص بالمرحاض يرجع إلى فترة حكم أخناتون، محفوظ في متحف العاصمة حيث حوى الوعاء نصاً واسم ملكة ينعتونها بثانوية. كان مكتوباً «الزوجة المحبوبة جداً من ملك مصر العليا والسفلى، الذي

يعيش بالحقيقة، وسيد البلادين، نيفر خيبرو رع ون رع، ابن آتون الحي، الذي سيعيش دوماً وأبداً. كيا». إلا أننا نجد الكتابة نفسها مع اختلاف بسيط، في العصابة الوسطى للغطاء الذي يحجب تابوت القبر رقم ٥٥ في الحواشي اليسرى واليمنى للوعاء الكبير، وأيضا في الأوعية قبل أن تغير ليقصد بها ملك. إذن. . .

ـ من أجل استقبال جثة من أعد القبر رقم ٥٥؟

ـ من المحتمل جداً، بعد ذلك ولأسباب من الصعب تحديدها، تقرر على استعجال حذف النهدين وإضافة الأُراييس[١]، ونقش حواف العصابة الملكية، وتطعيم لحية وصولجانات ملك، وفي النهاية عمد إلى إخفاء الأسماء وألقاب كيا لتكييفها على ملك. وهكذا وكما شرح ذلك الباحث الفرنسي مارك غابولد في كتابه، فإن التنقيحات التي طالت غطاء التابوت مع أنه من الصعب ملاحظتها، تظهر الثديين وقبضة اليد اليسرى. إن إضافة الأُراييس وعصابة ملكية وصولجانات الملك لم يكن ضرورياً لإحداث تغييرات عميقة، بالمقابل فمن الصعب الاعتراف بأن إضافة لحية أمر تتعسر البرهنة عليه.

ـ ما لا أفهمه، إذا ما تصورت أنك على صواب، هو كيفية تفسير هذا التغيير؟

ـ نحن مجبرون مرة أخرى على التخمين. فمن الممكن أن القرار اتخذ من قبل الملك الوريث. وكان لزاماً نقل المدافن خوفاً عليها من نهب اللصوص، فتم نقل تابوت أخناتون وتابوت تيي إلى وادي

---

(١) أنثى الكوبرا في مصر القديمة وكانت رمزاً لحماية الفرعون من أعدائه. وهي ترسم فوق تاج الفرعون، كما تشاهد أيضاً مرسومة أو منحوتة على أغلب جدران المعابد (المترجم)

الملوك. فيما ظلت بعض الأدوات الجنائزية المعدة للملكة في القبر الحامل الرقم ٥٥، بينما نقلت مومياؤها إلى جوار مومياء زوجها الملك أمنحوتب الثالث، في الشعبة الغربية للوادي. أما أخناتون، فقد وضع في القبر، وهذا النقل يجد له تفسيراً إذا ما اعتبرنا أن توت عنخ آمون كان ابناً لأخناتون حين أراد أن يودع تابوت والده في مكان آمن وهو ما لم تكن توفره المقبرة العمارنية. بالمقابل، كان لزاماً عليه إخفاء كل المعالم المؤشرة على التابوت الملكي. فتجنب استعمال الأدوات الجنائزية للدفن الأول لأخناتون حيث صارت أجزاء وقطعاً، واستعمل الأداوت المشتتة، من بينها التابوت، والتي كانت مخصصة لكيا. ثم يمكن أن يكون المكان قد تعرض لدخول الغرباء الذين يمكن أن يكونوا أحدثوا تغييرات. وللأسف الشديد فآخر المصريين الذين دخلوا المكان لم يتركوا لنا إلا مؤشرات دنيئة من الحقبة التي حدث فيها آخر دخول، ومع ذلك يمكن الاعتقاد أن ذلك حدث ما بين حكم حور محب، وحكم رمسيس الأول.

رفع عالم الآثار المصرية عينيه إلى جوديت متسائلاً:

ـ وبالتأكيد لست متفقة معي.

ـ متفقة معك بخصوص السيناريو الذي تفضلت به، ولكني أعتقد أن من يرقد في القبر رقم ٥٥ لم يكن أبداً أخناتون.

حملق يعقوب بعينيه ثم سأل:

ـ من يكون إذن؟

ـ شخص آخر. وهو ذكر.

استطردت:

ـ لكني أفضل عدم الخوض في سجال سيأخذنا حتى الفجر. اسمح لي أن أذكرك بأن لزيارتنا هذه غاية محددة، وهي معرفة استنتاجاتك. بماذا يوحي لك الجسد الغريب للفرعون؟ أمن الممكن أن يكون قد أصيب بمرض هرموني. أم لا؟

وكرد عليها، قام الطبيب من كرسيه قاصداً منضدة صغيرةً، وبعد أن أخذ بعض الأوراق عاد إلى مكانه. ثم قال:

ـ أحصيت كل النظريات المقترحة إلى يومنا هذا...

وبدأ بالعد:

ـ داء كلينفلتر، وداء بابيسنكي ـ فروهليش، والتشوّه الرأسي، وداء ما يسمى بمارفان، وفي النهاية داء باركر وسيموس. أقول لكما إن الفرضية الأولى والثانية مرفوضتان.

قال لوكاس:

ـ نحن نعلم مكونات داء فروهليش، وأنا من رأيك.

ـ جيد أنك من رأيي، فانطلاقاً من تجربتي كطبيب، يمكن التأكيد على أني لم أر مريضاً مصاباً بهذا الداء تمكن من الإنجاب.

أصر لوكاس وهو يرمق جوديت بنظرة ساخرة:

ـ كما أنه ليس هناك ما يعرف بفروهليش «خفيف» كما يلقب.

ثم استطرد هامساً:

ـ فرضية أولى تنهار...

تابع الطبيب:

ـ يمكننا أيضاً حذف داء كلينفيلتر.

تدخلت جوديت ملاحظة:

ـ مع أني قرأت أنه يربط بالعديد من الخصائص الأنثوية.

ـ هذا صحيح، فمن علاماته بروز الثديين.

ـ إذن لمَ نرفض هذه الفرضية؟

ـ للأسباب ذاتها التي جعلتني أستبعد داء بابينسكي ـ فروهليش. وبغض النظر عن ظهور الثديين، فإن من خصائص داء كلينفيلتر أنه يتميز بغدد تناسلية ذكرية صغيرة، وعلى مستوى رخو وخصائص جنسية ثانوية غير ظاهرة تماماً، وفي غالبية الحالات يمكنها أن تجتمع مع ما نطلق عليه أزوسبيرميا، أي الغياب الكلي للحيوانات المنوية. وفي هذه الشروط لا أرى كيف استطاع أخناتون أن يكون له ستة أبناء.

أكد لوكاس كأنما ليزيد الأمر صعوبة عليها:

ـ أمر غير منطقي.

ـ أما بخصوص التشوه الرأسي، فأنتما تعلمان، بأنه قد يكون بسبب إما مبالغة من سائل سيغالو ـ الرشيدي في الغدد النخامية، أو بسبب انحصار هذا السائل بسبب صد فتحات التواصل. فجزء من النخاع الشوكي ومن أغطيته تتفتق عبر هذه الفتحة، وهو ما يمنح المظهر البيضوي على الصور الجدارية التي تصور أخناتون وبعض أفراد عائلته. لا يمكن للإنسان أن يبقى حياً في ظل وجود هذا الاضطراب، خاصة ليس إلى الثلاثين.

ـ هذا بالضبط ما شرحته لصديقتنا.

اكتفى القبطي بموافقة صامتة، وأضاف:

ـ في أيامنا هذه، لا أهمية تعار للنضوب الدماغي، فهناك علاج ما ممكن، لكن لاشيء أقل تأكيداً من الشفاء. أما في عهد أخناتون، ومهما كانت موهبة الأطباء المصريين، لم يكن أحد ليفكر في تدخل مثل هذا، وإذا ما غامر أحدهم ببسالة فإن نتيجة مغامرته كانت ستؤدي إلى الموت الحتمي لمريضه.

أخذ الطبيب نفساً قصيراً، ثم قال:

ـ بقي داء مرفان، وداء باركروسيموس. تعريف الداء الأول يتلخص في كلمات قليلة، وهي أنه مرض وراثي يصيب الأنسجة الرباطية ومن نتائجه إصابة الهيكل العظمي والعينين والرئتين والأوعية الدموية، ولكن خاصة، وهذا شيء مهم، الشريان الأورطي. وإذا ما تمت مراقبة المريض يمكن ملاحظة طول ذراعيه غير العادي مثل ساقيه، ويظهر ما هو غير مألوف خاصة في اليدين، عندما تكون الأصابع نصف مثنية، ومستلقية على شيء صلب فإن اليد تشبه عنكبوتاً، ويمكن لما يطوق المعصم أن يصل حتى الإبهام والخنصر. ويسجل أيضاً تشوه في القفص الصدري، ويوجد أيضاً. . .

قاطعته جوديت بشكل حاسم قائلة:

ـ دكتور يعقوب. كل ما تصفه لنا يمكنه أن ينطبق على جسد أخناتون.

ـ بشرط أن نظل منحصرين فقط في تحليل جسده. لكن ليس الهيكل العظمي وحده المعني بالمرض. ذكرت العينين. فهناك خطر تمزق غشاء شبكية العين الباطنية وقصر النظر، وحتى العمى. إصابة العينين تشكل تقريباً من ٦٠ إلى ٨٠ بالمائة من المرضى المصابين بهذا الداء. وأخناتون لم يكن أعمى في حدود علمنا. والأخطر هي إصابة

شرايين القلب. و٩٠ بالمائة من المصابين بداء مارفان يموتون سواء بتمزق الشريان الأورطي، أو عجز يصيب الشريان الأورطي أو الشريان التاجي. قلت ٩٠ في المائة.

تدخل لوكاس:

- إذن ينسى موضوع مرفان أيضاً. بقي لدينا داء باركر وسيموس.

وضع الطبيب أوراقه على صينية النحاس، وحافظ لبضع ثوان على الصمت قبل أن يقول:

- في كل الأمراض التي استعرضناها، يبقى المرض الأخير هو الأقرب إلى الاحتمال حتى لا أقول إلى اليقين. وفي كل الأحوال فهو المرض في رأيي الأقرب إلى حالة الفرعون. فداء باركر وسيموس يعرف باختلال في توزيع النسيج الدهني، مثل توقف للنمو التدريجي في الجزء العلوي للجسد يتماشى مع نمو مفرط في الجزء السفلي. وهذا التقسيم الخاص للأنسجة الدهنية يمكن أن يعطي مظهراً أنثوياً مثل حوض واسع وردفي امرأة.

أشرقت ملامح وجه جوديت دفعة واحدة:

- هذا ما ظننت.

أشارت بسبابتها إلى عالم الآثار المصرية وأضافت:

- لم أكن مخطئة بإمكانية إصابة أخناتون بمرض هرموني.

أكد الطبيب قائلاً:

- يضاف إلى ذلك أن هذا المرض يمكنه عادة أن يسبب اختلالاً كلوياً خطيراً. ويمكن إضافة المشاكل المتعلقة بالكبد. وفي هذه الحالة

أيضاً، لا يملك المصاب حظوظاً ليعيش حياة طويلة. فلنقل إنه لن يتجاوز الثلاثين من عمره، على أكثر تقدير.

أعلنت جوديت:

ـ وهو السن المفترض لوفاة أخناتون.

قرر عالم الآثار المصرية أن يتدخل أخيراً:

ـ دكتور يعقوب. ما تقوله الآن مجرد افتراض، ولم تقترح علينا أي دليل علمي. لاشيء محدد.

بدا أن الطبيب فوجئ بالملاحظة:

ـ على حد علمي بروفيسور. ألم تكن كل النظريات المتعلقة بهذا الموضوع ومنذ قرن تقريباً مبنية بالأساس على افتراضات؟ إذن، وحتى يثبت العكس، اسمح لي أن أخبرك انطلاقاً من وجهة نظر طبية، واعتماداً على شكل جسد أخناتون ألا شيء يمنع أن يكون أخناتون مصاباً بداء باركر وسيموس.

كرر عالم الآثار المصرية على مضض:

ـ افتراض.

تدخلت جوديت مجادلة:

ـ نعم، مثل نظام الحكم المشترك، ومثل هوية من يرقد في القبر رقم ٥٥ ومثل نسل نفرتيتي، ومثل توت عنخ آمون، ومثل...

دمدم لوكاس مقاطعاً:

ـ فهمت آنسة فابر.

قام، ثم قال:

ـ هيا، فقد تأخر الوقت.

من أنوكيس إلى كيبر

إضراب آخر، هو الثالث في غضون شهرين، ومثل آخر مرة دعا إليه هؤلاء العمال الكسالى الذين يعملون في ست معات[1] عند قدم جبل طيبة، في وادي الملوك. ألا يرى هؤلاء أن إهمال حماية المقابر الملكية يضع على المحك «قبر ملايين السنين»؟ في آخر الأخبار، يشتكي هؤلاء العمال من تأخر الامدادت ومن رواتبهم المتوسطة، رئيس العمال يؤكد أن هناك غشاً في قياس الحصص المخصصة لهم بالحبة، وبعد التحقق من الأمر تأكد أنه كان مخطئاً. عرفنا بطبيعة الحال، كتاباً غير أمناء كانوا يغشون فكانوا عند كل حصة ممنوحة يضعون ليتراً أو ليترين من الحبوب في جيوبهم، ولكن ليس إلى هذا الحد! فليس كل الكتاب لصوصاً. أنت تعلم أن المكان بعيد عن كل شيء، وأنه في قلب صحراء دون ماء أو طعام. وقد تمت محاولة حفر بئر عميقة على أمل إيجاد ماء لكن الأمر فشل، بقيت هذه الفجوة، وهذا الفم المشرع على السماء. ومع ذلك، فقد قام آمن محات وزير مدينة الجنوب، وهو

---

(١) قرية دير المدينة الحالية، وتوجد على الضفة الغربية للنيل.

صديقي أيضاً، بجهد كبير من أجل تموين الورش بصفة منتظمة، وذهب به التفاني في العمل حد تنظيم رحلات ذهاب وإياب تمكن من تغيير ملابس العمال المتسخة بملابس نظيفة.

وانظر كيف يكافأ عن رعايته وحرصه عليهم! وفي القريب، لن يكتفي هؤلاء العمال بأن يؤدى لهم من الغلال، بل سيطالبون حماماً مشوياً، وجعة، ومن يدري، فقد يطلبون أيضاً تلك الفراخ الجديدة المجلوبة من بوادي تحوتمس الثالث والتي تبيض أكثر من بيضة في اليوم! لقد فهمت أني أقصد الدجاج. آه! لو خصص هذا الكافر حور محب وقتاً أكبر من أجل إعادة النظام في البلاد، وعوض تضييع كل طاقته في تحطيم تماثيل أخناتون! عندما أقول إن فضل ذكره يعود للفرعون! الجاحد! مجرد كتابة اسمه تشوش روحي وتجعل الغضب يسري في دمي.

سأتوقف إذن. أفضل الاستمرار في ذكرى «من أحببت».

وكما أسررت لك من قبل، فبعد وفاة تحوتمس، رفع أخناتون الذي كان مهمَلاً حتى وقت قريب إلى القمم الأسطورية. في اعتقادي، فقد كان الوقت متأخراً جداً. فقد تركت جراحاً عميقة وغير ظاهرة آثارها في قلب الفرعون القادم.

واستمرت الحبات تتساقط في آلة الزمن الرملية لتتوقف عند العام السابع والثلاثين لحكم أمنحوتب، فقد حان الوقت ليسلم الفرعون الطاعن في السن الروح. كان يبلغ من العمر سبعاً وأربعين سنة فقط، عندما خرج البرّاحون يجوبون شوارع طيبة، وممفيس وكل قرى الوادي لنشر الخبر ولإعلام الشعب بوفاة «جلالة حورس، الثور القوي، العظيم

بالقوة، الذي فاز على الآسيويين، ملك مصر العليا والسفلى، نب معات رع، ابن رع، أمنحوتب، أمير طيبة».

شرع في اليوم نفسه في تحنيط الأمير الراحل، بعد مغرب الشمس وعلى ضوء ظلال المشاعل. وبطبيعة الحال، فقد تمت معاملة الفرعون كما يليق به، معاملة درجة أولى، أما المعاملة من الدرجة الثانية والثالثة فهما من نصيب الناس المتواضعين الذين لايستطيعون تحمل المصاريف الفلكية. أما بالنسبة للمعدمين فيكتفى بحقن أمعائهم بعصير سيرمايا، الذي يطلق عليه اليونان ريفور، ثم تجفف جثثهم في حوض النترون، ولكن كيف يمكن تصور أن يعامل إله بالمثل! سيكون ذلك بمثابة تدنيس!

في إحدى رسائلك، ذكرت اسم سفرو، أحد المحنطين المكلفين بالأجساد الملكية. عرفته جيداً أنا أيضاً. لقد ذكر لي كل شيء وأعلمني بأنه تم احترام الطقس بشكل تام. فقد قام كاتب الموت أولاً بتسطير خط عمودي بالحبر الأحمر على الجنب الأيسر لبطن أمنحوتب، وعلى طول كتفه. وأخرج بعد ذلك المشرّح سكينه، وبحركة فيها الكثير من الحب والدقة يشق البطن، وبمجرد ما ينتهي من ذلك حتى يترك السكين تسقط ويرفع لباسه الطويل بسرعة ورشاقة ويغادر الحجرة عدواً. وعلى الفور، يشرع زملاؤه في رشقه بالحجارة التي توجد بحوزتهم من قبل، محترمين بذلك التقليد المعمول به. ف«كل من يجرح إنساناً، هو في الحقيقة شرير، ويستحق اللعنات». وتقدم مقدس ثان بعد ذلك، وأدخل يده في تجويف البطن الشاغر ليخرج الأحشاء، فعمد إلى إزالة الكبد والكليتين، والرئتين والأمعاء ولكنه لا يمس القلب أبداً، وقام بعد ذلك

بغسل ما أخرجه بحرص شديد بواسطة عرق النخل، ووضعها في الجرار المخصصة لهذا الغرض، وتكلف أحدهم بكسر أرنبة الأنف الوسطى بواسطة أزميل، وأدخل آخر مخطاف من فضة في فتحة الأنف ودفعه بشكل مائل إلى الأعلى ليخرج الكتل المخفية من الرأس، ودهنت العينان والأذنان والأنف وشق المشرح والفم بشمع العسل. لكن وبالنظر إلى حالة جثة الفرعون فإنه لم يُكتفى فقط بحشو الجسد المفرغ بصمغ الأرز وبالمر وبأوراق التبغ وبالقرفة. . .

القاهرة

صرخ لوكاس:

ـ توقفي!

صرخة عالم الآثار المصرية كانت كفيلة بجعل جوديت تقفز من مكانها.

ـ ما. . .

ـ أعيدي قراءة هذه الفقرة، رجاءً.

رمته بنظرة حائرة، ثم سألته:

ـ أي فقرة؟ أنا. . .

ودون أن يدعها تكمل، أخذ الفرنسي الورقة التي كانت في يدها، وأخذ يجول ببصره فيها قبل أن يطلق ضحكة مجلجلة، خلافاً للمتوقع:

ـ عندما أخبرتك أن هذه المراسلة مزورة!

أخذت جوديت ترقب وجهه دون أن تعي تماماً حقيقة ما يرمي إليه:

ـ هل يمكن أن تشرح لي؟

أخذ لوكاس يقرأ مباعداً ما بين الكلمات:

ـ لكن وبالنظر إلى حالة جثة الفرعون فإنه لم يُكتفى فقط بحشو الجسد المفرغ بصمغ الأرز وبالمر وبأوراق التبغ وبالقرفة... هل فهمت الآن؟

ـ آسفة، لا، لم أفهم.

أعاد القراءة لكنه جزّأ المقاطع هذه المرة:

ـ أوراق التبغ! من المفترض أننا حوالي القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وهذا الرجل يتحدث عن أوراق التبغ! وفي مصر؟ لم تكتشف هذه النبتة إلا في القرن الخامس عشر الميلادي، بعد اكتشاف كريستوف كولومبوس للعالم الجديد! هل فهمت الآن عندما حدثتك عن التلفيق؟

غاب الدم عن وجه جوديت مرة واحدة، وصار أبيض، ثم غمغمت:

ـ هذا... هذا... مستحيل.

قال لوكاس ساخراً:

ـ أنت من قالها. هل اقتنعت الآن؟

غرقت جوديت في صمتها في حين أخذ لوكاس يربت على يدها مثلما يواسى طفل:

ـ لا عليك. فالخطأ من سمات البشر.

أشار إلى الورق ثم قال:

ـ بالمقابل لاشيء يمنعنا من إتمام القراءة.

قبل أن يضيف ساخراً:

ـ من أجل المتعة فقط.

ـ لا، لا فائدة.

وبحركة آلية، قامت جوديت من مكانها وقصدت النافذة، ثم قالت:

ـ هذا جنون. لقد صدقت الأمر. صدقته فعلاً.

ـ لا بأس، فلست الأولى، ولن تكوني الأخيرة التي تسقط في الفخ.

ثارت عند سماعها لكلماته فعلقت:

ـ أسقط في الفخ؟ لا، لم أسقط في الفخ! لا!

ـ ومع ذلك فالأحداث...

ـ لا! هناك قطعة ناقصة. شيء غير مفهوم! ولكني لم أسقط في الفخ!

وقبل أن يتمكن من إيقافها، كانت قد فتحت الباب، لتغادر عدواً.

القاهرة بعد ثلاثة أيام

مع أن الليل حلّ على العاصمة منذ ساعات، إلا أن أبواق السيارات ما تزال تزعق كما لو كان الوقت زوالاً.

كانت جوديت مركزة ناظريها على حاسوبها المحمول في إحدى غرف الطابق الثاني لفندق «الميريديان» الذي يطل على النيل. كانت تنهي قراءة رسالتها الإلكترونية الواردة وتنقر على عملية «طباعة».

بعد دقائق من ذلك، تركت جوديت غرفتها وهرعت إلى غرفة فيليب لوكاس. دقت الباب مرة واثنتين. لم يفتح لها عالم الآثار المصرية الذي بدا خلف باب غرفته بشعر رأسه المنفوش، إلا عند الثالثة.

ـ ماذا حدث؟

ودون انتظار دعوة منه، دخلت المرأة الغرفة، ثم قالت:

ـ لدي شيء لك لتقرأه.

ـ الآن؟ في هذه الساعة من الليل؟

ـ الآن. خذ.

مدت له ورقتين، فاحتج:

ـ أكاد أسقط من النعاس.

ـ لن يستغرق منك ذلك إلا دقيقتين. اقرأ.

أخذ نظارته من فوق المنضدة المحاذية لسريره، وترك نفسه يسقط على طرف سريره مغمغماً ليشرع في القراءة:

آثار النيكوتين والكوكايين في مومياءات مصرية

نحن في سنة ١٩٩٢ في المتحف المصري لميونخ. قامت زفيلتا بالبانوفا المختصة في علم السموم وخصائصها، والطبيبة الشرعية، بفحص مومياء حنو بتاوي، وهي كاهنة تنتمي إلى الأسرة الملكية الواحدة والعشرين (والتي حكمت ما بين ١٠٨٥ و٩٥٠ قبل الميلاد). ستكتشف ذاهلة بأن الفحص يشير إلى وجود آثار للنيكوتين والكوكايين، مع أن هاتين المادتين لن تعرفا في العالم القديم إلا بعد رحلة كريستوف كولومبوس، أي بعد أزيد من ٢٥٠٠ سنة، وحتى يهدأ بالها، وإرضاء لضميرها المهني، أجرت سلسلة من التحاليل والتي أتت مؤكدة لاكتشافها الأول. وعلى عكس المتوقع، فقد تعلق الأمر فعلاً بالنيكوتين والكوكايين. ومقتنعة بأن الأمر قد يكون مرده خطأ في التركيب، بعثت زفيلتا بالبانوفا بعينات إلى مختبرات أخرى، فأتت التحاليل الجديدة موافقة للتحاليل التي قامت بها، والنتائج التي توصلت إليها. لم يعد هناك

مجال للشك هذه المرة، إذ كانت مومياء حنو بتاوي تخفي آثار مادتين لم تظهرا في مصر إلا بعد ٢٥ قرناً على الأقل.

ولاقتسام اكتشافها المذهل مع عموم المختصين، عمدت زفيلتا بالبانوفا إلى نشر مقالة خلقت جدلاً حال ظهورها. ولم تنتظر طويلاً ردود الأفعال حول مقالتها، فقد تلقت العديد من رسائل التهديد وحتى الشتم والإهانة. فقد اتهمت بأنها زوّرت الاختبارات التي قامت بها. وبالنسبة لعلماء الآثار والمؤرخين فإن الرحلات إلى أمريكا قبل كريستوف كولومبوس تعد ضرباً من ضروب المستحيل.

فحوص جديدة تؤكد وجود النيكوتين والكوكايين

طرحت زفلتا بالبانوفا إمكانية أخرى، هي أن تكون المومياء قد تعرضت ربما لتدنيس خارجي. فقامت المختصة بعلم السموم وخصائصها، بحذر شديد، بنوع جديد من الفحوصات، وكانت قد عملت في سلك الشرطة، كطبيبة شرعية، وهي على علم بطريقة محكمة لايتخللها الشك لمعرفة إن كان الميت قد أخذ فعلاً جرعات من المخدر، وذلك بفحص «منارة الشعر» التي تحتفظ بآثار أجزاء دقيقة متطابقة لمدة أشهر، ولا تتغير أبداً في حالة الوفاة.

هذا الإجراء الذي أفحم العديد من المجرمين والمعترف به من قبل المحاكم، ومرة أخرى وجدت أن

«منارة شعر» حنو بتاوي تحتوي على النيكوتين والكوكايين. فرضية التدنيس الخارجي ملغية إذن.

المسار الأول: المومياءات المزوّرة

أحدثت مقالة زفيلتا بالبانوفا انقلاباً لدى روزالي ديفيد محافظة المتحف المصري بمنشستر مثل زملائها علماء الآثار. فهي لا تؤمن بإمكانية وجود رحلات تجارية عابرة للمحيط في القديم الغابر. وبالنسبة لها، لايوجد إلا تفسيرين اثنين. الأول أن عاملاً مجهولاً تدخل وأفسد النتائج، والثاني هو ألا تكون المومياء حقيقية، وهي فرضية محتملة جداً ففي القرن الرابع عشر، كان المسحوق المستخرج من المومياءات مطلوباً جداً في أوروبا. فبحسب بعض الأطباء يعالج القار الذي تحتوي عليه المومياءات عدة أمراض، وكان يقوم تجار مصريون، الذين لم تكن الدقة العالية من أوصافهم، بصنع مومياءات بشعة بعد تجفيف جثثها، وستعرف الظاهرة انطلاقة جديدة في القرن الثامن عشر، ونظراً للفائدة التي أضحت تمثلها مصر بعد حملة بونابرت سنة ١٧٩٨، ستصل مومياءات مزوّرة إلى أوروبا في سفن كاملة. وقد بيعت بعضها مجزأة. في غضون ذلك، وبعد رحلة إلى ميونيخ، أصيبت روزالي ديفيد بحالة من التشوش في أفكارها، وبسبب الجدال الكبير منعت من الاقتراب من مومياءات المتحف، لكنها

بالمقابل، استطاعت الحصول على تقرير الأبحاث، فخلصت إلى أنه واعتباراً لجودة الحفظ، وجودة العصابات فمن المحتمل أن تكون مومياء حنو بتاوي صحيحة.

وبسبب حالة الإرباك الشديدة التي اعترتها، فقد عمدت إلى إجراء تحاليل على مومياءاتها[1]، وأتت النتيجة مماثلة فاثنتان منها تحويان آثار النيكوتين. هذا التأكيد دل بما لا يدع مجالاً للشك بأن التبغ كان معروفاً في القديم. ومع ذلك، فهو لايعني أنه في تلك الفترة كان هناك نشاط تجاري جمع بين البحر الأبيض المتوسط والأمريكتين.

هناك سابقة قبل هذا الاكتشاف غير العادي

في سنة ١٩٧٦، أحضرت مومياء رمسيس الثاني إلى باريس من قبل السيدة كريستيان دي روش نوبلكور، وهي عالمة آثار مصرية لها وزنها. وحظيت هذه المومياء باستقبال شرفي من طرف رئيس الدولة، وقد جيء بها إلى فرنسا من أجل إجراء أعمال صيانة لها، لأنها كانت في وضع سيء. أخذت أجزاء منها، وقامت بأبحاث عليها الدكتورة ميشيل لي سكوت، من متحف التاريخ الطبيعي... وتأكد لديها وجود قطع بلورية خاصة بالتبغ. لكن رمسيس الثاني مات سنة ١٢١٣ قبل الميلاد. إذن

(١) المقصود بها الموجودة في متحف منشستر (المترجم).

فهذه الآثار من الناحية المبدئية مستحيلة. أثارت القضية اضطراباً حقيقياً في أوساط علماء الآثار والمؤرخين. فتعالت الأصوات المكررة لفضيحة الخدعة. وتوقف الأمر عند هذا الحد. وفرضية رابط محتمل بين أمريكا والبحر الأبيض المتوسط في القديم من وجهة نظر المؤرخين وهم كبير، فالأمر يتعلق إلزاماً بخطأ معين، وأقبرت الفضيحة.

كتبت كريستيان دي روش نوبلكور في كتابها «رمسيس الثاني، القصة الحقيقية»: «في وقت تحنيطه، ملئ جسمه بأشياء جديدة مطهّرة، فقام المحنطون باستعمال «حشيش دقيق من ورق النيكوتيانا التي وجدت في الحاجز الداخلي للقفص الصدري، بجوار موضع النيكوتين، وهو من عمليات التحنيط المعاصرة بدون شك. ولكنه يختلف شكلاً لأن النبات لم يكن معروفاً في مصر، بحسب ما يبدو».

انتهى فيليب لوكاس من القراءة، ثم هزّ يده متأسفاً، وقال:

ـ وأنا الذي ظننت بأنك تعافيت.

تجاهلت تعليقه، وقالت:

ـ هل تعلم من وضعني في هذه الطريق؟

حرك رأسه نافياً، فأضافت:

ـ صديقك، حسن الأسمر الذي تعتبره، مثلي تماماً، كأكبر مختص في الفترة العمارنية. لقد كان هو من وضع يدي على هذه الرسالة التي تعاملها دون ما تستحق من اعتبار.

ـ هل أزعجته من أجل هذه. . .

أعاد لها الأوراق وهو يضيف:

ـ السخافات؟ الاعتقاد بأن المصريين كان بمقدورهم السفر إلى أمريكا أكثر سخفاً من الاعتقاد بوجود إنسان أخضر صغير. فلنكن عقلانيين. لا أحد مستعد للإيمان بنظرية مجردة من المعنى.

ـ أليس هذا ما كان يقال عن الفايكنغ؟ لكن لا أحد، باستثنائك أنت ربما، يشك اليوم بأن «الفنلاند» أي بلاد النبيذ، والتي بلغها الفايكنغ قبل حوالي ١٠٠٠ عام، كانت هي أمريكا الشمالية. هذه النظرية ليست مثبتة فقط في الأساطير الأيسلاندية التقليدية، ولكنها أيضاً مؤكدة بواسطة الاكتشافات الأثرية. فقد ظهرت للعلن مجموعة من المتعلقات الفايكنغية، المنثورة في كل جزر أقصى الشمال، وبقايا في «تير نوفا»[١]، تدل على أن الفايكنغ حطوا على أمريكا الشمالية، ووصلوها قبل كولومبوس بخمسمائة سنة.

ـ هذا لا يثبت قطعاً بأن المصريين استطاعوا القيام بهذه الرحلة الطويلة ألفا سنة قبل ذلك، وعلى قوارب من الخيزران! شيء لا يمكن تصديقه!

ـ ومع ذلك، فقد استطاع ثور هييردال، العالم بأصول السلالات البشرية، أن يثبت بأن ذلك شيء ممكن الحدوث. فقد انطلق على متن قارب من الخيزران أطلق عليه لقب رع من آسفي بالمغرب ليعبر المحيط، وأكد أن المراكب المصنوعة من ورق البردي للمصريين

---

(١) جزيرة بكندا، والتي يعني اسمها أرض جديدة (terre neuve) (المترجم).

القدامى قادرة بكل تأكيد، على عبور المحيط. بالنسبة له، ليس هناك مجال للشك بأن مصر قدمت مساهمة في الحضارات الهندية لأمريكا الوسطى.

ـ ما غفلت عن ذكره، هو أنه وبعد الكيلومتر الخامس، بدأ «رع» يتفكك وكان لزاماً عليه مغادرته.

ـ ليعاود المحاولة سنة بعد ذلك، وهذه المرة كان النجاح كبيراً، فبعد شهرين من الإبحار، وقطع مسافة تزيد عن ستة آلاف متر، تمكن ثور من بلوغ البارباد، مؤكداً بذلك أنه وفي عصر ما قبل التاريخ، كان بالإمكان عبور المحيط بقوارب مثل «رع»، اعتماداً على التيارات القادمة من جزر الكناري.

وضع لوكاس رأسه بين يديه وتنهد. ثم قال:

ـ جوديت. هل يمكن أن أطلب منك خدمة، خدمة واحدة فقط؟

هزت رأسها موافقة فأضاف:

ـ عودي إلى غرفتك، ودعيني أعاود النوم، فقد أرهقتني حكاياتك. ألا تمانعين في أن نتابع غداً؟

من أنوكيس إلى كيبر

. . . لكن وبالنظر إلى حالة جثة الفرعون فإنه لم يُكتفى فقط بحشو الجسد المفرغ بصمغ الأرز وبالمر وبأوراق التبغ وبالقرفة، بل يضاف إلى ذلك كله، الحشائش وصمغ الصنوبر على شكل كريات وحتى لفائف النسيج، وعند الانتهاء من هذه العملية يخاط الجسد ثم يدخل إلى حوض النترون.

وتنقضي أسابيع حزينة فعلاً، وبعد السبعين يوماً المخصصة لطقس التحنيط، تتم استعادة جثة الملك الراحل من غرفة التحنيط، ويوضع نعشه المكسو بالورود في القارب الملكي، وتغطي دموع ونواح تيي صلوات الكهنة الذين يسلمون أنفسهم كأنهم بدون أحاسيس، بلباسهم الاعتيادي المصنوع من جلود الفهود، إلى التبخير حول النعش، وتتقدم مراكب أخرى في أثر القارب الملكي تقل الأقارب والأصدقاء والخدم، والسواعد المكلفة بالقرابين. كل الرجال، وحتى أنا الذي أكره هذا، يعفون لحاهم كعلامة ظاهرة على الحداد، وعندما نصل الضفة الأخرى، يوضع التابوت على المزلاج المخصص للمناسبة، فتقوم ثيران مشدودة بعضها إلى بعض، بإحداث رجّة يثير لها نقع يرتفع في العنان

آخذاً معه أنين الطقس وناحبات مستأجرات بوجوه مدهونة بالليمون، وفساتين ممزقة، واللائي يجاهدن يائسات في تقليد الإلهتين إيزيس، ونيفتيس في نحيبهما على جثة أوزيريس. وأمام باب القبر، تقام عملية «أوبرا»، وهي شعيرة فتح الفم، ويقصد بذلك إعادة تمكين الراحل من استخدام الفم والعينين التي من خلالهما تبرز الحياة، وكسر مزهريات حمراء. ويصرخ كاهن مدثر بغمائم من الأبخرة قائلاً: «إليك أوزيريس، البخور القادم من حورس، والمرّ القادم من رع، والنترون القادم من نخ بت»[1]! وقبل أن يسجن الجسد بصفة نهائية، يقوم كاهن يمثل حورس بلمس وجه الميت بقادوم من جهة ومقص من جهة أخرى، وهكذا يمكن للراحل بعد بعثه أن يرى ويأكل، ثم يوضع التابوت الحجري في القبر الملكي، وينتهي كل شيء بالوضيمة[2]. لكم تمنيت، أنه حين تدق ساعة رحيلي، وهو شيء ما أظنه بعيداً، ألا ينسى الكاهن الجنائزي بأن يقوم بكل الأشياء الضرورية.

هل تذكر الأبيات التي كان ينشدها ذاك الأحمق الشيخ أمين رس عندما يثمل؟ كان يصرخ:

الموت اليوم أمامي

كما عندما يشفى المريض

كما الخروج من المرض

الموت اليوم أمامي

---

(١) ممثلة على شكل نسر أبيض، وقد كانت الإلهة الرسمية لمصر العليا.

(٢) عكس الوليمة، وهي المأدبة الجنائزية (المترجم).

مثل عطر المرّ

مثل الجلوس على شراع يوم النسيم

الموت اليوم أمامي

مثل رائحة اللوتس

مثل الجلوس والشرب على الضفة

الموت اليوم أمامي

مثل طريق عند المطر

مثل عودة رجل إلى دياره على متن سفينة حرب

الموت اليوم أمامي

مثل اشتياق الرجل لرؤية منزله

بعد سنوات طويلة من الأسر(١).

كلما تقدم بي العمر، كلما ازداد طرق هذه الأبيات لذاكرتي. فلأوقف هذا اللغط.

فبعد وفاة والده إذن، تسلم أخناتون مقاليد السلطة، واختار لعرشه لقب نيفر خبرو رع ون رع، والذي يعني مترجماً «تحولات رع كاملة، والمتفرد لرع»، ولم تقم الاحتفالات في معبد الكرنك كما يمكن أن يتوقع، ولكن في هيرمونتيس العاصمة باسم طيبة، وهيليوبوليس الجنوب. حدث هذا في اليوم الثاني للشهر الأول من موسم بيريت. لم

---

(١) Adolf Erman et Herman Ranke, op, cit 46.

يكن قد بلغ الخامسة عشرة بعد، ولا أخذ امرأة، فكان لزاماً إيجاد واحدة له.

امرأة من دم ملكي! هذا ما أفتى به المستشارون، بيد أن تيي رفضت الفكرة برمتها بحركة عصبية من يدها. هل كان دمها ملكياً، وهي الزوجة الملكية الكبرى؟

وانطلق البحث. من أين ستأتي؟

ومرت السنة الأولى والثانية، وعند منتصف الثالثة ستقع أنظار البلاط على ابنة أحد كبار الشخصيات ويدعى آي، وكانت تدعى نيفرتيتي. وكان آي، يحتل منصب حامل لواء، وكاتب ملكي، تزوج قبل سنوات من ذلك بسيدة تنحدر من أخميم، وكانت تدعى نيبت. لكن الرابطة بينهما ستنفصل بسرعة إذ ستموت نيبت بعد مدة قصيرة من وضعها لابنتها. أتصور أنه حين أغلقت نيبت عينيها كان ذلك ليأسها. لو أن حدسها قادها إلى القدر العظيم الذي أراده الإله لمولودها! هذا المولود، وأنت فهمت، كان يحمل اسم نيفرتيتي، وكم أنا متلهف لأقول لك دفعة واحدة بأن اسم نيفرتيتي أي «الجميلة أتت» لا يعني بأي حال من الأحوال أنها منحدرة من بلاد أخرى.

فهناك آباء، أطلقوا وما زالوا يفعلون، على بناتهم أسماء ممثالة. عرفت شخصياً سيدة تدعى نيفر تواتي والتي تعني «الجميلة الفريدة»، ويوجد أيضاً نيفرتيني أي «الجملية لي»، وابنة أخي آخت تحمل اسم أنيسكي بمعنى «هي لي». أنت ترى الآن أنه ما من ابتكار في تسمية طفلة بـ«الجميلة أتت».

لا أعلم أين ووري جسد نيبت، أعلم فقط أن حداد آي لم يدم

لأكثر من بضعة شهور، ليتزوج بعد ذلك من امرأة تدعى تي والتي ستصير زوجة أب ومربية الملكة القادمة. سنة بعد ذلك، ستضع تي بدورها أنثى اختارت لها اسم موت نوتجمت أي «الإلهة موت الناعمة»، والتي هي الآن زوجة الشرير حور محب.

كانت السيدة تي امرأة لا تشبهها أخرى، وللاقتناع بهذا الأمر، وجب تذكر كل الألقاب التي منحها لها الفرعون فهي «المفضلة للإله الجيّد، ومربية الزوجة الملكية الكبرى نيفرتيتي، ومربية الإلهة، وزينة الملك». أعلم أيضاً أن وظيفة مربية لأحد أفراد الأسرة الملكية كانت من بين أكبر الوظائف، وأكثرها أهمية وتأثيراً، استطاعت أن تحصل عليها عامية أبداً. وشرف هذه المهمة لا يمكن ألا يغمر زوجها، وابنتها.

قبل أن أذهب بعيداً، أود أن أتحدث عن آي، والد نيفرتيتي. فقد قيلت حوله العديد من الأشياء، وقد كانت مفاجأة كبيرة حضوره الدائم في البلاط، وأن يتم اختيار ابنته نيفرتيتي، من بين كل بنات البلادين لتكون زوجاً لأخناتون. في الحقيقة، لم يكن آي نكرة، فهو ينحدر من أسرة والدي يويا ويويو، وهما على التوالي أب وأم الملكة تيي. ومثل يويا، كان آي، سيد وحدة النقل بالعربات، وكان كل منهما يعرف بكونه «صاحب ثقة الإله التام (الملك) في كل الأرض». وبطبيعة الحال، فهذه الألقاب تظل تشريفية بيد أنها ترمز إلى الروابط العائلية التي تجمع بين الرجلين. وللإشارة فقط، فقد كان الرجلان متشابهين كثيراً، الأنف المعقوف نفسه، والشفتان الغليظتان عينهما، وشكل الفك ذاته. وكان بينهما شبه جسدي يندر أن يصادف في بلادنا، وإذا كان البعض يشك إن كان آي هو الوالد الفعلي لنيفرتيتي، فإن اللقب الذي ألصق به كان كفيلاً

بأن يزيح كل ريب، إذ سيلقب بسرعة «الأب الإله»، إضافة إلى ميزة أخرى سيلحقها باسمه عندما سيصعد إلى العرش الذي تركه توت عنخ آمون خالياً فيما بعد. ومنذ ولادته، كانت وظيفته ككاهن، الوحيدة التي لا تبرر لقبه، فقد كان الوحيد في وسطنا الذي يحمله. لا، فقد كان نسيب أخناتون، و«الأب الإله» لنيفرتيتي.

عند زواجها، كانت نيفرتيتي، بعد طفلة كزوجها تماماً. طفلان وروحان لم تتح لهما الفرصة ليعيشا طفولتيهما. لكن، أليست هذه حياة الأمراء والأميرات؟

كيف أصف لك من اختيرت لتصير الزوجة الملكية الكبرى؟ هل أقول إنها كانت جميلة؟ لا، كانت فاتنة. هل أقول إنها كانت تملك ابتسامة بديعة؟ لم تكن قط ابتسامة بل ابتهاج. وكانت تلمع في عينيها كل نيران الإمبراطورية. وبالمقابل، لم تكن قامتها طويلة. وعلى كل حال، فقد كانت أقصر من زوجها، ومثل الغالبية العظمى منا، فقد كانت تنتف زغب جسدها كله، وتحلق رأسها الذي كانت تغطيه دائماً بباروكة نوبية، وهو الهوس الذي ظل يفاجئني، وكانت هذه الباروكة مثل طاقية مكونة من عقد كثيرة متماسكة، ومقطوعة بشكل يظهر القفا، بينما يصل ذيلان جانبيان حد مقدمة الكتفين. أقر أني لم أفهم أبداً كيف تولدت لدى الملكة فكرة هذه الحلاقة.

وبالقدر الذي كانت عليه نيفرتيتي من الجمال، فقد توفرت على جاذبية خاصة، وهو ما جعلها متميزة. وعندما تنظر مباشرة إلى عينيك فإن موجة الشهوة تجتاح كل جسدك، وعندما تتكلم فإن صوتها يصدر إحساساً كبيراً. وعندما تتحرك عارية تحت سترتها الكتانية الشفافة، فإن

زرقة السماء تمشي في ركبها. سأسر لك أمراً، أعترف أن هذه المرأة سببت لي الاضطراب. كم من مرة اخترقت أحلامي، ولحسن حظي، فزوجتي آنخي لم تعلم بذلك أبداً.

من كيبر إلى أنوكيس

آه! يا صديقي الكبير! أستطيع من هنا سماع خفقان قلبك. هل كنت عاشقاً مرتعداً؟

لا أستطيع تصورك في هذا الدور، إلا إذا كان اضطرابك الذي وصفته لي يصل درجة الشهوانية الوضيعة. صحيح أن «الجميلة أتت» جسد أخذ نصيبه من الجاذبية، ولها أسفل ظهر يليق بنوبية، ويود المرء لو يسجن وركيها طويلا. استطعت أكثر من مرة تأمل ثدييها ورشاقة انحناء ردفيها، شاكراً الآلهة في كل مرة مدنا بنعمة الملابس. ذكرتني بأخناتون هنا بصفة خاصة، ففي إحدى الليالي، ومن شرفة القصر حيث المشاعل تنشر نورها، حيث كان البدر مكتملاً، كانت نيفرتيتي تضع قميصاً دون ثنيات، وكان لصق جسدها حد تصوره متوحداً معه كتلك الأثواب التي تنطلق من أسفل الثديين إلى الكعبين، والمشدودة بحمالات رفيعة تتقاطع عند ارتفاع نهديها. يا له من منظر! آه يا أخي! يا له من نجم لا مثيل له، حيث بدا لمعان النجوم بجانبها باهتا جداً وباردا أيضاً. حتى كوكب الشعرى اليمانية كان يعاني إلى جانبها.

وللأسف، فبهاء نيفرتيتي لم يدم إلا بمقدار نفس واحد. فقد خبا

نور «الجميلة أتت» بسرعة. هل هناك ما هو أكثر طبيعية من إنجاب ستة أبناء؟ تذكر، فلم تبلغ من العمر إلا خمساً وعشرين سنة حتى بدا جسدها مثل كمثرى، واتسع فخذاها، وأضحى بطنها مترهلاً. وانتهت الرؤية المبهجة. لو خيرت في هذه الفترة ما بين الملكة وخادمتي ميريت لاخترت الثانية دون تردد.

ومع ذلك، فقد كانت هذه المرأة تتمتع بقوة شخصية. كانت تبلغ من العمر خمسة عشرة سنة عندما كانت تعرف ما تريد وما لن تقبل به أبداً. كانت بميزات فطرية عديدة خالصة، رعتها تيي لتتفتح على يديها. لأنه وكما تعلم ما إن ألحقت نيفرتيتي بالعائلة حتى تكفلت الملكة الأم بتربيتها. وأنت تعلم أيضاً من أي معدن كانت الزوجة الملكية الكبرى، فهي لم تكن تجهل مواطن الضعف لدى ابنها، كما أنها كانت تستشعر التهديدات التي تحيق بالبلادين. كانت حدودنا آمنة، لكن وإلى متى؟ فقد انشغل أمنحوتب بالقنص والأشغال الكبرى وهو ما دعاه للتخلي عن اهتمامه بالعالم الذي بدأ يأخذ بعض الحرية، وطيلة فترة حكمه ظلت عينا الملك مركزتين على وادي النيل حد أنه نسي أن هناك أراض أخرى أبعد في الأفق. ومع ذلك، فلم يكن يمر يوم دون أن يتوسع الحيتيون[1] الشرهون دائماً على حساب التابعين لمصر. وكان تهديدهم يزداد يوماً بعد يوم على النفوذ الميتاني في سورية. وفي سورية قامت جهة أمورو بإعلان استقلالها التام، وانضمت تحت لواء الأمير الكنعاني عبدي أشيرتا. وصحيح أن توشراتا الملك الميتاني كان المهدد الأول،

(١) يجهل بالتحديد أصل الحيتيين. لكن أولى آثارهم تصل إلى حوالي ١٩٠٠ سنة قبل الميلاد، وتظهر دخولهم بموجات واسعة منطقة الأناضول.

إذ قام بمحاولة لرجِّ خمول الفرعون، وذلك لحمله على التدخل، لكن النتيجة لم تكن أبداً أكيدة. وعندما نعلم أن عبدي أشيرتا كان أحد الموالين لنا، يمكن استنتاج التسامح المبالغ فيه الذي اجتاح أعلى المراتب في الدولة. ومع ذلك، وهذا ليس بخاف على أحد، فبينما كانت صحة أمنحوتب آخذة في التدهور، كانت تيي هي التي تحكم لاعبة بذلك ثلاثة أدوار، دور الفرعون، ودور الأب، ودور الأم. لكن المهمة كانت صعبة، وسلطة ملكة كانت محدودة. ولاشك أنها أطلعت زوجة ابنها على مخاوفها وهواجسها. وكان أخناتون يبدو لطيفاً جداً وغائباً جداً وهشاً جداً، وبعيداً جداً عن حقائق العرش، وما يتطلبه منه. أنّى له الطاقة الضرورية لحكم امبراطورية وفرض قانونه؟ لهذا توجب على نيفرتيتي أن تكون قوية من أجلهما معاً، وأن تأخذ مثالها من تيي وذلك بأن تكون قوية قبل أن تظهر على الساحة. ولا يمكنك أن تغفل عن نتيجة ارتباطها بتيي كمعلمة ومرشدة، فقد انتقل أخناتون من أم إلى أم أخرى، وهو الأمر الذي ما كان ليضايقه. فقد كانت هشاشته تتغذى من قوة نيفرتيتي، فستعوض امرأة جديدة الفتاة التي كانت عند الزواج. والمرأة ستصير أماً، والأم ستصمت في الحصن. وهكذا كان بإمكان الملك الشاب أن يترك حراً بين يدي خيالاته، ويحافظ على أحلامه المجنونة، وتحدي كهنة آمون وترتيب النجوم.

في معرض أفكار مختلف تماماً، توصلت لمجموعة من القواعد ألفها خيفري، ذاك الشيخ الحكيم الذي كان طبيباً في بلاط فرعوننا الراحل، وكان قد عالج انتفاخك. أمازلت تذكره؟

سأعهد لك بسطور من مجموعته:

«إن جسد الإنسان لأكثر شساعة من مخزن قمح، وهو مليء بصنوف عديدة من الإجابات. إختر الصحيح منها وقلها، بينما تبقى الإجابة الخاطئة سجينة جسدك».

إلى اللقاء يا صديقي، وليكن الليل مناسباً لأحلامك، لأنك مازلت تحلم، أليس كذلك؟

نسيت! ذكرت موتك الوشيك فأحسست ببعض الندم يرتعد داخلك، ولا ينبغي لك ذلك. فسأرافقك، لأنه نصيبنا جميعاً. تذكر قول الحكيم آني «يأتي الموت طلباً للطفل الراقد في أحضان أمه كما الرجل الذي قوست ظهره السنون». إنها العدالة الوحيدة في العالم الأرضي. هذه الأرض الخسيسة. ثم، ماذا تنتظر بعد من هذه الدنيا؟ المزيد من الشيخوخة؟ المزيد من الوهن الجسدي؟ وعلى كلٍّ، استطاع البعض ممن أعرف أن يظلوا مسيطرين على كل قدراتهم، ونتيجة لعنايتهم الفائقة مازالت مظاهرهم مقبولة، ولكنهم قلة على كل حال. ولكني أشك أنهم يضمرون ما لا يظهرون، فقد سمعت قبل مدة عن رجل بلغ من العمر مائة وعشرة سنين، يأكل بكل قوة خمس مائة خبزة، وكتف ثور، ويشرب مائة دن من الجعة. وما نسي محدثي إخباري به هو تحديد إن كان هذا الرجل يبتلع كل هذا في يوم، أو في شهر أو في موسم أو في سنة.

القاهرة

رفع لوكاس كتفيه قائلاً:

ـ كلما ازددت قراءة كلما قل تصديقي.

ـ ما الذي يصدمك هذه المرة؟

ـ نقطتان أساسيتان. الأولى ألا أحد من المتراسلين أتى على ذكر نظام الحكم المشترك. بالنسبة لهما، مات أمنحوتب فخلفه ابنه، وهذا كل شيء. والثانية وهي من أي بقعة خرجت نيبت والدة نيفرتيتي؟ لا نملك أي أثر لوجود هذه الشخصية، ولا حتى أقل وصف.

ـ ما أهمية ذلك؟ قلت لك من قبل إننا لا نملك شيئاً محدداً حول أصل «الأب الإله» آي، ولا عن أجداد تيي، ولا عن السيدة تي خلا أنها ذكرت كمربية للزوجة الملكية الكبرى. وحتى حول نيفرتيتي، لا نملك إلا افتراضات. فبالنسبة للبعض هي أجنبية «أتت» كما يوحي بذلك اسمها إلى بلاط مصر لتتزوج من أخناتون. هكذا كان التفسير الوحيد للسياسة الدينية الجديدة للفرعون الجديد. فنيفرتيتي التي تشربت

بتربية شرق أوسطية وربما آسيوية هي التي أوحت له بفكرة التوحيد. لكن ألا يوجد أثر لمقدم أميرة شرقية إلى مصر في بداية حكم أخناتون؟

ـ أنت مخطئة. هناك واحدة.

هزت الشابة رأسها وقد علت شفتيها نصف ابتسامة، ثم قال:

ـ أنا أنصت لك، لكني أعتقد أني أعلم.

ـ تذكرين أن والد أخناتون تزوج للمرة الثانية ومن أجل أسباب دبلوماسية من جيلوخيبا ابنة الملك الميتاني شوتارنا الثاني.

ـ نعم هي تلك التي أخبرنا كيبر أنها كانت مرافقة «بأزيد من ثلاثمئة سيدة شرف»، وهو ما أثار «حنق» تيي.

ـ لكن وبعد ذلك بسنوات، سيموت شوتارنا في ظروف مريبة، وسيعوض بأخيه توشراتا. فكان لزاماً وضع قواعد تحالف جديد، وقد تمت مفاوضات من أجل أن تلتحق ابنة توشراتا بجيلوخيبا في حريم الفرعون. وكانت تدعى تادوخيبا. هل تتابعين ما أقول؟

وافقت جوديت دون أن تعلق فأضاف:

ـ عندما حلت تادوخيبا بمصر، كان جسد أمنحوتب الثالث يعاني معاناة متقدمة، وتوفي في الأيام التي تلت ذلك، ما حال دون إتمام الزواج، وكأنها لم تظهر أبداً.

ـ وإلى ماذا تخلص؟

ـ يعني ألا شيء يمنع تادوخيبا أنها وعوض الزواج من الأب أن تتزوج الإبن أخناتون.

ـ هل تمزح؟

ـ لا، لا أفعل. نعلم أنه وانطلاقاً من بعض الرسائل التي عثر عليها أن توشراتا كان يأمل كثيراً أن تصير ابنته ملكة مصر، وخلال المفاوضات السابقة للزواج فرض على أمنحوتب الثالث أن يخص ابنته تادوخيبا بلقب «سيدة مصر»...

قاطعته جوديت مجدداً:

ـ شرط ما كان ليتم علماً بالدور السيادي والشخصية القوية للملكة تيي. ما كانت أبداً لتسمح بشيء مماثل.

ـ أتفق معك في هذا، إلا أنه ومع وفاة أمنحوتب تغيرت الحسبة. فقد اعتلى أخناتون العرش، وكان من العجلة بمكان في أن يجد امرأة، وكانت تادوخيبا في مكانها تماماً. فهي ولدت أميرة، وهي ممثلة للتحالف مع الملك الميتاني الجديد. ولم يكن هناك أسهل من أن يمنح لها اسم مصري ورمزي، نيفرتيتي أو «الجميلة أتت». وهكذا يمكن إيجاد تفسير للاختفاء الغامض للأميرة الميتانية في الوقت الذي ظهرت فيه نيفرتيتي في واجهة الأحداث.

ـ لكننا نعلم تماماً أنه وعلى امتداد التاريخ المصري لم تحتل أي أميرة أجنبية منصب ملكة!

ـ حتى حضور تادوخيبا. لكن بعد ذلك، وفي الأسرة الملكية الحادية والعشرين سيتغير الأمر حيث ستقدم أميرة حيثية من قبل أبيها إلى رمسيس الثاني، واتخذ لها اسم معات حور نيفرورع، ثم رفعت إلى مرتبة «الزوجة الملكية الكبرى».

ختم لوكاس وقد فتح يديه قليلاً:

ـ ترين أنه ما أصبح ممكناً في المستقبل، كان من الممكن أن يحدث في الماضي.

غمغمت جوديت:

ـ فليندرز بيتري.

ـ عفواً؟

تبنت إرادياً صوت طالب يستظهر:

ـ السير ويليام ماثيو فليندرز بيتري عالم آثار إنجليزي، وأستاذ علوم الآثار المصرية، أثبت صواب تقنيات حفر جديدة، ووضع نظاماً تاريخياً متماسكاً، والذي مكنه من إعادة تركيب تاريخ الحضارة المصرية. ومنذ سنة ١٨٨٣ درس أهرام الجيزة، وقام بحفريات في الدلتا، والفيوم وفي تل العمارنة وفي ممفيس. لكن أهم أعماله تبقى حفرياته في نقادا وهو الذي كشف عن فترة ما قبل التاريخ المصري.

أضافت:

ـ لقد كان الأول، أو من بين الأوائل المدافعين عن النظرية التي تفيد بأن نيفرتيتي وتادوخيبا لم تكونا في الأصل إلا شخصاً واحداً. فبحسبه، مادامت ابنتا نيفرتيتي الأولتين لم تظهرا في المقامات قبل السنة الرابعة من حكم أخناتون، يمكن استنتاج أن أولاهما تشكلت قبل الزواج بوقت قصير، وبالمقابل، ودائماً بحسب بيتري، فالزواج تمّ في السنة الرابعة. وهنا أخطأ. فمن أجل أن تكون النظرية سليمة كان لزاماً على أمنحوتب الثالث أن يكون حياً في السنة الرابعة من حكم ابنه وهو ما يدفع إلى التأكيد على وجود نظام حكم مشترك.

ـ هذه بالضبط نقطة الاختلاف الثانية التي تحدثت عنها قبل قليل. فلم يشر أي من كيبر أو أنوكيس إلى نظام حكم مشترك.

ـ ما سبب ذكر حدث لم يقع أبداً؟ مات أمنحوتب الثالث، وعقبه ابنه. هذا كل شيء. أشير لك فقط أن عدداً كبيراً من علماء الآثار المصرية يشاطرون هذا الرأي.

ـ أنا لست منهم.

عفت شفتا جوديت عن ابتسامة ممتعة:

ـ إذن، وإذا فهمت جيداً. فكان يكفي أن تقوم إحدى هاتين الشخصيتين بالدفاع عن نظرية الحكم المشترك حتى تثق بهذه الرسائل؟

رفع عالم الآثار المصرية كتفيه، وقال:

ـ لنقل إني كنت سألقي عليها نظرة أكثر عطفاً.

ـ بحق الشيطان. لماذا تتشبث كثيراً بأن أخناتون حكم في الفترة نفسها مع والده؟

ـ عدد من القرائن يشير إلى ذلك.

ـ وأنا أعلم ببعضها التي تدل على عكس ذلك. فمنذ سنوات، تمّ استبعاد فرضية بيتري. لقد...

ـ استبعدت تلك الفرضية لكن ومنذ ذلك الحين ظهرت العديد من الاكتشافات التي تدعم فرضية نظام الحكم المشترك، يبقى فقط تحديد مدتها. هل هي ثلاث سنوات أم اثنتا عشرة سنة؟

رفعت جوديت عينيها إلى السماء، ثم وبحركة قاسية، شغلت جهاز الحاسوب. سألها عالم الآثار المصرية ساخراً:

ـ ماذا تفعلين؟ هل ترسلين رسالة إلكترونية إلى أمنحوتب الأب؟

تجاهلت الشابة تعليقه ولم ترد عليه في حينه، بل صبرت عدة ثوان منتظرة أن تشغل أنظمة الحاسوب، ثم أخذت تنقر على لوحة التشغيل ليظهر نص على الشاشة.

اقترحت عليه بصوت هادئ:

ـ هل تتفضل بإلقاء نظرة على هذا...؟

عدل لوكاس نظارته، وانحنى إلى الأمام ثم شرع في القراءة:

قل لتيي سيدة مصر من قبل توشراتا ملك الميتان: «كل شيء بخير بالنسبة لي، وليكن كل شيء بخير بالنسبة لك. وليكن كل شيء بخير بالنسبة لآل بيتك، ولابنك (...). أنت من يعلم أني أظهرت دوماً حبي لزوجك نيمواريا، وأن نيمواريا زوجك أظهر لي الحب دوماً (...). أنت أعلم من غيرك ما قلناه، ولا أحد يعلم ذلك أكثر منك (...). لن أنسى حبي لزوجك نيمواريا.

أظهر أكثر من ذي قبل هذا الحب المضاعف لابنك نب خوروريا (...). طلبت من زوجك تماثيل من الذهب السميك (...)، ولكن ها ابنك نب خوروريا يبعث بتماثيل من الخشب المصفّح، مع وجود الذهب كالتراب في أرض ابنك. لماذا لم يبعث الذهب الذي طلبته[1]»؟

رفع رأسه ثم قال:

---

(١) CF. Joyer Tyldesley, Néfertiti, Editions du Rocher, 1998.

ـ كنت أعرف بوجود هذه الرسالة الموقعة من قبل توشراتا. على ماذا تدل؟

ـ إنها تنسف كل إمكانية للحديث عن نظام الحكم المشترك. مثلما يمكننا أن نسجل فهي موجهة إلى تيي وذلك للحكم على ما تقدم به ملك الميتان، فالظاهر أن أمنحوتب الثالث الذي لقبه بنيمواريا، كان قد وعده بتماثيل من الذهب السميك، والظاهر أن أخناتون الذي لقب هنا بطريقة غريبة بنب خوروريا لم يبعث له إلا بتماثيل من الخشب المصفّح بالذهب. تشير هذه الرسالة بشكل واضح إلى أن تيي أضحت من الآن فصاعداً الملكة الأم التي تحتل مكانة مهيمنة وتمارس على ابنها سلطة كتلك التي كانت تمارسها على والده. هي وضعية موضّحة هنا مادام توشراتا قد توجه إليها مباشرة عوض التوجه إلى أخناتون طلباً لدعمها في قضية التماثيل.

بالمقابل، هذه الجملة المصاغة في الماضي «لن أنسى حبي لزوجك نيمواريا» تظهر أن أمنحوتب كان قد مات قبل اعتلاء ابنه العرش.

ـ آسف، فهذه الرسالة إذا كانت بعثت فعلاً لتيي، لا تدل بأي حال من الأحوال بأن أمنحوتب قد مات. أن يكون مريضاً فذاك احتمال كبير، حد أن يوكل بعض السلطات لزوجته، ولكنه لم يكن ميتاً. فكري قليلاً، فأمنحوتب الثالث سيقيم ثلاثة احتفالات سد على الأقل في سبع سنوات، وإذا ما علمنا أن مثل هذه التظاهرات يقصد من ورائها تجديد طاقة الفرعون فسأترك لك حرية تصور في أي حالة صحية كان عليها الملك. ثلاثة احتفالات! ليس هناك ما هو أكثر منطقية من جعل مساعد

شاب بقربه، وابنه هنا بالتحديد. الدليل هنا هو ما ذهب إليه علماء الآثار الإنجليز، وخاصة جون بندلبيري ومساعده المختص في قراءة الحفريات، هيربرت فيرمان، إذ إنهما وبعد القيام بحفريات في المكان الذي شيّد فيه أخناتون مدينته الشمسية، تولد لديهما الانطباع بأن أمنحوتب الثالث عاش أيضاً في هذا المكان مدة قصيرة، لكنها مهمة.

ـ ليس لرجل علم من مستواك. سأقول بأن الانطباع لا يعني اليقين. وقد قرأت تقرير وخلاصات بندلبيري. ينبني «انطباعه» على اكتشاف كتابة فلنسمها بطاقة، وضعت على جرار كانت تحوي نبيذاً[1]. وبدا التقرير عاجزاً بعد بحث دقيق وعميق قاده أحد أكبر المختصين البروفيسور دونالد ريدفورد.

ـ لم يفتني هذا التفصيل، ولكن لن أنطلق في سجال عقيم. فلتقولي فقط إني انضمّ إلى نظرية مختص كبير آخر وهو سيريل آلدريد، والذي يتبنى نظرية نظام الحكم المشترك، مثلما كتب بعد أبحاث طويلة «بحسب نظريتنا في اعتبار الشهادات، فنظام الحكم المشترك لأمنحوتب الثالث مع ابنه دام إذن أزيد من اثنتي عشرة سنة عندما تمّ الاعتراف بأخناتون من طرف الملوك والموالين الآسيويين كما مبعوثيهم إلى عرش مصر، ورغم أن هذه الخلاصة مضايقة، إلا أننا لم نكن نملك خياراً آخر سوى القبول بها»[2]، ولكن ليس آلدريد وحده من يدافع عن نظام

---

(١) كان النبيذ في مصر القديمة يحفظ في جرار طينية مختومة بأختام تشير إلى سنة إنتاجها أو إلى أماكن صنعها، ويساعد التعرف على تاريخ وضع الأختام أو ملاك الضيعات من مساعدة المؤرخين على التعرف على كل عصر.

(٢) CF. Cyril Aldred, Akhenaton, roi d'Egypte, op. cit.

الحكم المشترك، فالعديد من علماء الآثار المصرية «وليسوا أقل قيمة» يشاطرونه رأيه.

ثم أخذ يعدّ:

- جونسون، ومندرسلين، وبيل، وآلين، وفالفين. . .

صاحت جوديت:

- وكثر أولئك الذين عارضوا ما ذهب إليه، مثل هيكس، وهورنونغ، وغابولد، وكامبل، ودريد فورد، وهاريس، وميرنان، وتون بيكرات. . .

- لحظة فقط. كوني واقعية! ما دمت تبدين مطلعة جيدة، فبمقدورك التذكر أنه في السنة الثانية عشرة لحكم أخناتون كان هناك تجمع كبير في مدينة الشمس حيث قدم فيها التابعون للقوى العظمى لآسيا وإفريقية والإيجيين هدايا للفرعون طلباً لرضاه.

- قرأت النصوص بطبيعة الحال، لكني أجهل اسم عالم آثار مصرية معاصر سمى هذا الاجتماع بـ«ديربار» بالضبط. المصطلح الذي يذكر بالاحتفالات الرسمية القديمة التي كانت تقام في الهند.

- ديربار، هذا الحدث مؤكد ببطاقة الكهنة. كتبت على رسالة عمارنية، وتحمل الرسالة رقم ٢٧، والتي قام عامل في المكتب المصري المكلف بالملف بكتابة هذه الكلمات في جانب الصفيحة:

«في العام الثاني عشر (؟)، الشهر الخامس، اليوم (٤) الرابع، عندما نتواجد (يعني الملك) في مدينة الجنوب، في القصر المسمى (؟) «من يبتهج بالأفق».

نسخة من الرسالة القادمة من نهرين سلمت من طرف الرسولين بيريزي وبوبزي[1].

ـ إذن؟ لا يمكن أن تتجاهل أن التاريخ المسجل على الرسالة الأصلية قد أتلف، وأعيد تسجيله بواسطة العامل! خطأ فادح!

ـ نعم، لكن ليس الرقم (٢) اثنان. فنحن متأكدون منه. السؤال هو معرفة إن كان الرقم (١) واحد يوجد قبل الرقم (٢) اثنين. وبالنسبة لي فأنا مع التاريخ الأكثر تقدماً. لكن ماذا يكشف لنا هذا النص؟ بداية، وقبل حوالي شهر من مشاركته في «ديربار» العمارنة، كان أخناتون مازال يسكن طيبة...

توقف لوكاس ليضع سبابته على عبارة «مدينة الجنوب» ثم أضاف:

ـ لماذا يزور أخناتون طيبة في هذا الوقت؟

ـ نحن لا نعرف لِمَ فعل ذلك.

ـ نعم، كان سيشارك في تشييع جنازة والده في القسم الغربي بوادي الملوك. بعد الأيام السبعين للتحنيط.

كأن جوديت قفزت من مجلسها وهي تقول:

ـ من أين أخرجت مثل هذه الفكرة؟

ـ لأن بقية الرسالة تلمح إلى ذلك. فهناك العديد من البراهين تذهب إلى تأكيد نظام الحكم المشترك وأنت تعرفينها بدون شك، وسأكتفي بذكر أربعة منها فقط.

Ibid. (١)

أخذ الورقة ودوّن عليها:

١ ـ لوحة بانهيسي[١]

«في بيت أحدهم، ويدعى بانهيسي، وجدت لوحة لأخناتون حيث يرى أمنحوتب الثالث والملكة تيي. نقش هذا الرسم تحت حكم أخناتون.

٢ ـ النقش البارز لـ«من وبيك».

«خدم كبير النحاتين «من» تحت حكم أمنحوتب الثالث، وخدم ابنه بيك أخناتون. لكنهما ظهرا معاً في صخرة أسوان يكرمان تمثالي ملكيهما على التوالي. وهذه الصورة تعود إلى السنة الثالثة عشرة من حكم أخناتون.

٣ ـ قبر الوزير

«ما وجد في قبر الوزير آبرال بالسقارة يمزج بشكل قوي الشهادات على حكم أمنحوتب والشهادات على حكم أخناتون لدرجة أن فرضية نظام الحكم المشترك هي المنطق الوحيد في كل ذلك. نشير فقط إلى أن هذا القبر اكتشف منذ حوالي عشر سنوات من قبل بعثة الآثار الفرنسية لبوباستيون التي أسسها ويديرها آلان زيفي[٢].

---

(١) النصب التذكاري لبانهيسي الموجود حالياً في المتحف البريطاني.

(٢) تأسست البعثة الأثرية الفرنسية لبوباستيون من قبل آلان زيفي، رئيس الأبحاث بالمركز الوطني الفرنسي للأبحاث العلمية، ويعود الفضل في اسم بوباستيون لأن البعثة كانت الأولى التي وضعت يدها على موقع يوناني يعود للإلهة باستيت أو بوباستيس في سقارة. ويعود الفضل لزيفي في العديد من الاكتشافات الهامة.

٤ ـ ورق كاهون[١]

«يتعلق الأمر بجزء يتكون من أربع أوراق بردي تشكل قطع محاضر محاكمة حارس أبقار. هذا الرجل مرتبط بعدد من القضايا التي تعود إلى سنة أمنحوتب الثالث الثامنة والعشرين في إحداها، وفي الأخرى للسنة الثانية والثالثة لأخناتون. وإذا ما أقصينا فرضية نظام الحكم المشترك، سنحصل على ثلاث عشرة سنة كفارق. كيف يمكن تصور أنه في فارق زمني كبير مثل هذا يمكن استعمال ورقة البردي نفسها لإيداع مواضيع مختلفة، ولكنها تعني الأشخاص أنفسهم؟ كيف يمكن تصور وجود المشتكين ذاتهم والشهود عينهم بعد ثلاث عشرة سنة؟ بالمقابل، وإذا كان هناك نظام حكم مشترك، وبينهما سنة أو اثنتين سيكون الأمر أكثر منطقية».

وضع عالم الآثار المصرية غطاء قلمه، وخلص قائلاً:

ـ كان هناك نظام حكم مشترك!

وعلى شكل رد، أخذت الشابة بدورها الورقة، وشرعت في الكتابة:

١ ـ لوحة بانهيسي

«تمت البرهنة على أن التمثيلات الخاصة بأمنحوتب الثالث المكتشفة في قبر يويا رسمت بعد وفاته، ولا شيء يمنع أن تكون هذه الرسوم الموجودة في حجرة بانهيسي هي أيضاً، قد وضعت بعد وفاته.

(١) اللاهون، بمدخل الفيوم.

في الواقع، فهذه الحجرة ليست إلا حجرة هيكل خادم انتقل إلى عبادة الآباء المتوفين للملك الحاكم.

٢ ـ النقش البارز لـ«من وبيك».

«يرى فيها النحات «من» يكرم تمثالاً لأمنحوتب الثالث، وعلى اليسار يكرم ابنه «بيك» صورة أخناتون المدقوقة، وهذا الرسم لا يفند نظرية نظام الحكم المشترك فقط، بل إنه من الواضح أنه عندما نقشت الصخرة كان ذلك تكريماً لذكرى أمنحوتب الثالث. وفي الواقع لو كان الملك حياً في هذا الوقت لما كرّم «بواسطة تمثال له»، ولكن لكانت نقشت صورة الملك الحي مثل صورة ابنه الذي يقابله.

٣ ـ قبر الوزير

«هذا القبر الذي اكتشفه مثلما ذكرت آلان زيفي لم يبح بكل أسراره. فمن السابق لأوانه إذن استخلاص النتائج النهائية بحضور شواهد عن عهد أمنحوتب الثالث وعهد أخناتون.

٤ ـ ورق كاهون

«ورق البردي هذا، ويمكننا أن نناقش فيه بتفصيل إذا أردت ذلك، ليس سوى موجز. فلا علاقة محتملة له بنظام الحكم المشترك».

أعطت لوكاس الورقة وهي تقول:

ـ أنا أيضاً لا أريد الذهاب بعيداً في هذا، لكني لا أستطيع منع نفسي من شدّ انتباهك إلى نقطة مهمة.

حافظ لوكاس على صمته فأضافت:

ـ اللوحات الحدودية للعمارنة... هذه العلامات التي شيّدها

أخناتون لتحديد معالم مدينته المستقبلية، هي الإعلان الأول الذي قام به الملك بتمثل حالة التقهقر التي دامت أربع سنوات، فأعلن أنه سمع أن السنة الرابعة كانت أسوأ من السنة الثالثة، وأسوأ من السنة الثانية، وأسوأ من السنة الأولى. وتابع مؤكداً أن هذا أسوأ ما سمعه أمنحوتب الثالث، وأسوأ مما سمعه تحوتمس الرابع، وهكذا دواليك صعوداً حتى وصل إلى حكم تحوتمس الثالث. هل تعتقد فعلاً أنه وإذا كان يقتسم السلطة مع والده، هل كان يجرؤ على الحديث عن حكم والده بتلك الكلمات؟ أجد أن شيئاً واحداً يمكنني أن أسمح لنفسي بقبوله في هذه الحكاية، وهو يلخص في كلمات قليلة: إذا كان هناك نظام حكم مشترك فما كان ليدوم أكثر من السنوات الخمس الأولى، والتي سبقت تحرير هذا الإعلان.

من أنوكيس إلى كيبر

تختفي أجيال وتمضي، وتظل أخرى وتبقى. كذاك كان منذ عهد السلف ومنذ زمن الآلهة الذين تواجدوا من قبل ويرقدون الآن في أهرامنا. النبلاء، والمشاهير يوارون في قبورهم. أقاموا منازل في مواقع لم تعد موجودة. ماذا حدث لهم فجأة؟ سمعت حكماً من إيمحوتيس ومن حاردي ديف والتي تذكر كأمثلة تدوم أكثر من أي شيء آخر. ماذا حل بمنازلهم؟ سقطت جدرانها ولم يعد لها وجود. كأنها لم تكن أبداً. لا أحد عاد من هناك ليخبرنا عنهم، وأعلم بما نحتاج إليه لإراحة قلوبنا حتى نصل إلى المكان الذي ذهبوا إليه جميعاً.

أذكر كل الرجال المميزين الذين عملوا بالبلاط، والذي رحلوا. أفكر في بانهيسي رئيس مخزن غلال آتون، ورئيس ثيران آتون. وإذا لم أخطئ فقد كانت له ملكية غنية بمحاذاة المعبد الكبير. أفكر أيضاً في بارنفر الساقي الأكبر في البلاط ورئيس حرفيي البلاد، وبنتو الطبيب الرئيسي للملك، ودودو مقتصد البلاط، وماحو رئيس شرطة الصحراء، والجنرال هوي ابن الوزير آيرال الذي لم يخض أي معركة، وناخت الذي سيحتل منصب وزير، والذي سيشكل له ذلك لقباً أكثر منه

وظيفة. وإذا استحق أن يذكر هاهنا فلأنه فقط كان يسكن أجمل إقامة خاصة بآخت آتون.

صديقي كيبر، قلبي ثقيل هذه الليلة، فإعادة كتابة التاريخ يوقظ بداخلي شعوراً بألم اعتقدت أني تخلصت منه أبدا. فالطرقات غدت خاوية، وهناك كلب ينبح من البعيد، وضوء مصباحي يومض مثل نجمة تعبة. في هذه السنة الثالثة لحكم أخناتون شرع شابان في حكم العالم، ما دامت مصر هي العالم. طفلان تحت وصاية ملكة عجوز. وحيدان ومحاطان جداً. وحيدان تطوقهما الضباع. وحيدان يجابهان العظمة ويعيشان في طيبة في «إقامة الممجد في الأفق». تبدو الحياة تسري محايدة وهادئة وبدون بريق. لا شيء بالتحديد، على الأقل في الظاهر، يمكنه أن يغير نسق الأيام. لا شيء عدا ولادتين. فقد وضعت نيفرتيتي أنثيين تفصل بينهما سنة واحدة. سميت الأولى ميريت آتون «محبوبة آتون»، والثانية مكت آتون «محمية آتون». أجهل إن كان الأب يأمل مولوداً ذكراً. على كل حال، لم يعف عن مظهر يبدي خيبة أمله.

نعم، يبدو أن الحياة مستمرة في مسارها الهادئ تحت سماء بلا سحب. وحده الملاحظ المتفحص يمكنه تسجيل بعض العلامات المنبئة على العاصفة. كنا عمياناً! كان إقحام إسم آتون في أسماء المولودتين كفيلاً بأن يفتح أعيننا! واختيار الفرعون لهيرمونتيس وليس الكرنك كمكان لتتويجه. ألم يشكل ذلك مؤشراً آخر؟

كان علينا أن نتفطن أنه إذا كان إله طيبة لم يحاكم بعد دون محاكمة فإنه يشار إليه في كل مرة أقل من سابقتها في الكتابات الرسمية، وخاصة في إسم الملك. لم نر شيئاً. كان كل شيء يبدو في مكانه حتى الأشهر

الأولى من موسم بيريت من السنة الرابعة عندما فاجأ الملك الجديد الجميع حين أصدر أوامره العليا بتنظيم حفلة سيد. هل تذكر أيها الصديق ذهولنا؟

حفلة سيد بعد أربع سنوات من الحكم فقط؟ لماذا؟ طرحت على نفسي السؤال مائة مرة دون أن أهتدي إلى جواب. ربما تملك جواباً؟

اتخذ القرار فصارت مصر في حالة هيجان. وكان لزاماً تحضير بناية لاستقبال المناسبة. أطلقت الأوراش، وفتح مقلع حجارة جديد بست معات، وشيّدت معابد شمسية بهيليوبوليس، وممفيس، ونوبة. كرس الجميع بطريقة أو بأخرى لعبادة آتون، ولكن على الأخص في طيبة وفي الكرنك تحديداً، وجّه «من أحببت» عنايته. وبدأت وتيرة الهتك في الارتفاع. وهكذا وفي قلب المحراب المخصص لآمون، أعطى الفرعون الجديد أوامره ببناء معبد جمب آتون «وجد آتون في ملكية آتون».

تصور أي رعب أحدثه هذا في كهنة آمون. كان مثل هزة أرضية. فهذا الشاب المزهو بنفسه أخذ يستهزئ بالكهنة الشيوخ تحت أنوفهم. تركنا هذا المعبد بدون صمت، ليس فقط لبهائه أو لأن المهندسين لجؤوا فيهِ إلى تقنية بناء جديدة، ولكن لأنها المرة الأولى في تاريخنا الطويل التي يشيّد فيها معبد مشرع على السماء! حتى هذه الساعة، لم تكن هذه الأماكن المقدسة سوى ملاحق، وساحات مقفلة مفرقة بين أماكن عبادة، وما إن يزحف الليل عليها شيئاً فشيئاً حتى يتم الاقتراب من الحجرة التي تأوي تمثال الإله. بينما هنا! معبد مفتوح على الأنظار! مفتوح على الحرية، وخاصة على الشمس! دخمات أكثر، والعتمات

منفية، وحيث انتهى كل رواح وغدو القديسين في عتمة الدهاليز، هامسين داخل مخادعهم العمياء. معبد تطل عليه السماء! أشك في أن مياه النيل القوية تثقل من جريانها لرؤيته حتى تستمتع بمشاهدة هذه التحفة.

بالمقابل، شيّد الفرعون «حوت بن بن» أي «مقر حجرة بن بن» أذكرك بأن البن بن هو البقايا المقدسة منذ الأزمنة البعيدة. والمرتفع الأول الذي كوّن مركز المعبد الشمسي الكبير لهيليوبوليس والتي تجسد نطفة آتون المذهلة. كان المكان يتمثل كمعبد بصف من الأعمدة ممركز في المسلّة الوحيدة[1] المشيّدة في الكرنك من طرف أمنحوتب الثالث. كان خطوة أخرى في اتجاه التغيير.

على الأعمدة الثلاثة من الأربعة الموجودة يمكن رؤية نيفرتيتي، والصغيرة ميريت آتون مضطربتين، وسيستر كل واحدة منهما فوق قرص الشمس. وعلى العمود الرابع تظهر أربعة مشاهد تمثل الزوجة الملكية الكبرى تقدم قرباناً لآتون. كان رأسها مغطى بباروكة زرقاء داكنة طويلة، وجسدها تحت فستان مثني وشفاف بفتحة جهة الصدر، ويزين جبهة الملكة أيراييس، وخلفها ميريت آتون «ابنة الملك التي يحبها، والمولودة من الزوجة الملكية الكبرى التي يحب، سيدة الأرضين، فلتحي نيفرتيتي». المحاريب الأربعة بنيت جميعها في شرق الكرنك، هناك حيث تشرق الشمس.

---

(١) بساحة لاتران الحالية بروما. مرتفعة بأزيد من ٣٣ متراً، وشيدت خصيصاً كمسلة وحيدة بواسطة تحوتموسيس الثالث، في المعبد الشرقي بالكرنك، ثم نقلت إلى روما بواسطة قسطنطين الثاني في سنة ٣٥٧.

أتحدث في الماضي لأن هذه البنايات الآن هي فريسة لعقاب هذا الكلب حور محب، فهناك عمال يفككونها حجراً حجرا، وفي أسابيع قليلة لن يبقى منها شيء.

في هذا الموضوع، أحب أن أقصّ عليك حدثاً غير عادي، كنت شاهداً عليه. فبعد إعطاء انطلاقة هذه الأشغال بأيام، استدعى أخناتون النحات بيك وابنه من. لن أنسى أبداً هذا المشهد الذي دار في «البيت الكبير».

كان الملك معتدلاً في مجلسه، برأسه الحليق، ولحيته الاصطناعية ذات الرأس الحاد معلقة بذقنه. ولم يكن يضع على رأسه تاجه الأبيض أو الأحمر، ولكنه كان يضع وشاحاً يسقط على قفاه، وحتى كتفيه، وإكليلاً مزينا بأراييس يشده بإحكام والثعبان المقدس الذي يكوّنه، بدا يبسط خواتمه على قمة الرأس بطريقة جعلته يعطي الانطباع بانتصابه مهدداً على جبهته.

مستغرباً أني لم ألحظ الفرعون يمسك الخوبش بيده، ذاك السيف الذي هو على شكل منجل الذي لم يتخل عنه أبداً والده، وسلف والده.

وكان بيك منحنياً أمام العرش، وكان يلبس تنورة مزدوجة، فالفوقية مقصصة داخل قماش ناعم أبيض شفاف تصل حتى الكعبين، أما الثانية وهي التحتية فكانت تصل حتى وسط فخذه وكانت منسوجة من الكتان. وكان صدره ملفوفاً في قميص واسع وممنطقاً بحزام. لم أره بمثل ذلك التأنق أبداً، وبعد التحايا الواجبة، عمّ الصمت مدة قبل أن يرتفع صوت الفرعون في القاعة:

ـ إرفع رأسك وانظر إلي!

أطاعه بيك فأكد الفرعون:

ـ أنظر إليّ جيداً! لاحظ جسدي، وتمعن في تفاصيل قدّي!. تأملني.

ومع خجله، فقد تفحصت عينا بيك الفرعون.

ـ أنت ترى ردفيّ، وترى فخذيّ، وترى نهديّ النابتين، وترى هيئتي الأنثوية. أنا أمرد الوجه، وشفتاي سميكتين جداً، ووجهي نحيل جداً، وذقني بارزة جداً. هل ترى كل هذا؟

وافق النحات هامساً، فأضاف الفرعون:

ـ إذن فهكذا ستمثلني من الآن فصاعداً. كما فرض ذلك معات، وبدون مداهنة. فلتكن كل ضربة إزميل منك تمجيداً للحقيقة. أنا صنيعة خالقي.

غمغم بيك بشيء لم أفهمه، كأن صوته صدر عن أمعائه ومات على أطراف شفتيه، فقال «من أحببت»:

ـ هذا ليس كل شيء. فمن أجل هذا التمثال الذي أريده ضخماً، ستجعلني فيه عارياً ولا أريد عضوي.

ـ عذراً يا مليكي. بدون عضو؟

لم تفارق عيناي النحات. رأيته يترنح. كان كما أعتقد على وشك أن يغمى عليه.

انطلقت من حلق أخناتون ضحكة شفافة، ثم قال:

ـ هيا! تمالك نفسك! أنت لم تفهم شيئاً. لقد ولّى زمن الفن الكاذب، فأنا لست خجلاً من جسدي. إنه اتحاد بين والدي ووالدتي. سيكون هذا التمثال انبعاثاً غير جنسي للإله آتون. ذكري وأنثوي. أب الكون وأمه. كل فجر يقربني منه، وقريباً سنكون، أنا وهو، واحد.

وهنا تجرأ النحات فهمس:

ـ إذا ما صعدت إلى الإله من سيسد الفراغ الذي تخلفه هاهنا؟

رد عليه «من كان مفيداً لآتون»، بابتسامة هادئة قائلاً:

ـ الزوجة الملكية الكبرى.

صدفة أم لا، لست أدري، ففي اليوم الذي سيعقب هذه المحادثة سيمنح اسم جديد لنيفرتيتي إذ ستدعى نيفر نيفرو آتون والذي يعني «جميل هو جمال آتون»، وقريباً، وكنا نجهله في ذلك الوقت، سيختفي مبدأ أوزيريس إله الأموات، ولم يعد هناك إلا كائن أعلى وهو آتون قرص مصدر الحياة وعين الشمس.

ورداً على سؤالك. نعم أذكر الطبيب نيفري، وكنت أجهل إن كان يستطيع كتابة أفكار حكيمة. هو بلا شك عامل السن. صحيح أنه عالجني من انتفاخ أمعائي ولكن ماذا كان ثمن ذلك؟ ما زلت أنصت له كأن الأمر حدث بالأمس فقط، يأمرني قائلاً: «في الليل، إمزج طحيناً جافاً مع جعة طيبة. ستأكل منه أربعة أيام، وافحص ما سيخرج من مصرانك الغليظ كل صباح. وإذا كان ما سيخرج منه على شكل كريات سوداء صغيرة، فاعلم إذن أن التهابك قد شفي، وإذا ما خرج منك مثل فول مورد، فهنا أيضاً عليك أن تطمئن. وإذا لم يخرج أي شيء طيلة

الأيام الأربعة، فلتقم بمضغ جذور دغم[1] مع الجعة، وهنا سيبرح المرض جسدك». هل تتخيل المشهد يا أخي؟ أن أجبر مسرعاً بعد استفاقتي لأتأمل «كرياتي»، وابتلاع هذه النبتة التي هي بمذاق الزيت!

يا للهول. . . مجرد التفكير في الأمر يعيد إلي انتفاخي. لأجل هذا، أجدني مجبراً على إنهاء رسالتي هنا. إلى اللقاء.

القاهرة

فتح باب المكتب فجأة، قاطعاً قراءة الباحثين، فظهر خلفه رجل ستيني بابتسامة حارة، ثم قال مندفعاً:

ـ صباح النور[2]! كيف حال صديقيّ؟

رفع لوكاس رأسه مندهشاً، ثم قال:

ـ حسن؟ ماذا تفعل هنا؟ ظننتك في لندن.

ـ وصلت البارحة فقط. وأقصد غداً السفارة لألتحق بالبعثة الفرنسية لبوباستيون.

أشار إلى ورق البردي:

ـ إذن؟ أين وصلتما؟

دمدم الفرنسي:

(١) من المحتمل أن يكون زيت الخروع.

(٢) هكذا وردت في النص الأصلي (المترجم).

ـ قبل أن أجيبك، اسمح لي أن أعرب لك عن امتناني، فبفضلك وبفضل العزيزة جوديت لم أعد أستمتع تقريباً بضوضاء النهار.

ثم صرخ مندهشاً:

ـ لكن بحق الشيطان. من أين حصلت على هذه المراسلة المنتحلة؟

تكشر وجه عالم الآثار المصرية مستغرباً ثم سأل:

ـ منتحلة؟ من أين علمت أنها ملفقة؟

ـ بربك! فعالم من مثل مستواك لا يمكن أن يصدق مثل هذا الخلط الغريب! هل فحصتها على الأقل قبل أن تسلمها لصديقتنا؟

ـ طبعاً، لكن، لنقل إني عبرت عليها حتى لا أضع يدي في النار، لكن وبغض النظر على بعض عدم التناسق والتناقض الموجود فيها، فأنا أعتقد أن هناك حظوظاً قوية لأن تكون هذه الوثائق أصلية.

أصر لوكاس قائلاً:

ـ هذا لا يجيب على سؤالي عن المكان الذي وجدت فيه هذه اللفافات.

التفت المصري إلى جوديت وسألها:

ـ ألم تشرحي له؟

رفعت المرأة كتفيها كأنما لتدفع الخطأ عنها، ثم قالت:

ـ شرحت له بالطبع. أخبرته أن فلاحاً أعطاك إياها، لكنه رفض تصديق الأمر.

هز حسن الأسمر رأسه وأكد ذلك للوكاس قائلاً:

ـ ومع ذلك فهذا ما حدث فعلاً. لقد أكد لي الفلاح بأنه وجد ورق

البردي في مكان قريب من الموقع الذي تشتغل فيه حالياً البعثة الفرنسية، والمتاخم للسقارة.

ضحك لوكاس ساخراً وهو يقول:

ـ وجد هذا الكنز، وهو يحرث أرضه.

فرقع أصبعيه، ثم أضاف:

ـ هكذا بهذه البساطة!

ـ بالبساطة نفسها التي مكنت من إيجاد حوالي خمسين لوحة طينية سنة ١٨٨٧ «رسائل تل العمارنة» الشهيرة.

رفع ذراعيه إلى السماء ثم قال:

ـ ولكن لماذا تشك بالأمر إلى هذه الدرجة؟ ألا يصنع عالم الاكتشافات الأثرية من قصص عجيبة؟ وإذا لم تكن مؤمناً بالعجائب فأنت تقفل كل الأبواب على المستحيل، غير أن مهنتنا ليست سوى سلسلة من الانتصارات على المستحيل.

تابع المصري قائلاً:

ـ انظر إلى مصير التابوت الحجري الذي وجد في القبر الذي يحمل رقم ٥٥...

توجه بالقول إلى جوديت:

ـ هل تعلمين أن التابوت الحجري اختفى سنة ١٩٣١؟

ـ تابعت هذه القصة. وإذا كانت ذاكرتي جيدة ففي سنة ٢٠٠٠ أو في سنة ٢٠٠١ سيكتشف وجودها في متحف الفن المصري بميونخ.

ـ نعم، فهنا يتدخل ما هو عجيب. ظهرت صورة على غلاف مجلة

ألمانية متخصصة في علم الآثار المصرية وعنوانها «كي إم تي»، وهو ما أرغم المتحف على الاعتراف بامتلاكه للتابوت الحجري. وبحسب أقوال المدير فقد أهدي للمتحف من قبل ابنة نيكولاس كوتولاكيس سنة ١٩٩٤، وهو يوناني سويسري، من جنيف، وعالم آثار قديمة، وكان قد اشتراه هذا العالم في إيطاليا سنة ١٩٥٠. كل هذا متجاهلاً دعاوى المختصين بالآثار المصرية.

ـ وفي النهاية، لم تسترجعه مصر إلا في يناير من سنة ٢٠٠٢.

تدخل لوكاس قائلاً:

ـ لا أقصد إغضابكما، ولكني لا أرى أي رابط بين ما ذكرتماه وبين هذه المراسلة التي نزلت من السماء.

زفر الأسمر بغيظ، ثم قال:

ـ على كل حال، أنوي إخضاع ورق البردي لاختبار الكربون ١٤. وقد أخذت موعداً في لندن الأسبوع القادم. وحتى ذلك. . .

خطف نظرة إلى ساعته، ثم أضاف:

ـ عليّ أن أغادر، وإذا كنتما غير ملتزمين بموعد هذه الليلة، يمكننا تناول العشاء معاً. ما رأيكما؟

قالت جوديت مرحبة:

ـ بكل سرور.

وافقها لوكاس الرأي. فقال المصري وهو يقصد الباب:

ـ إذن نلتقي هذه الليلة.

ثم أضاف مداعباً:

ـ اعملا جيداً.

ما إن توارى خلف الباب حتى تغيرت سحنة وجه لوكاس الذي قال:

ـ إنه يأخذنا على متن فلاكة[1] حيث لا أعرف شيئاً.

ـ بروفيسور لوكاس. ألم نعقد اتفاقاً معا؟ أذكرك بما قلت: «سأفك شفرة هذه الكتابة معك، وفي أسوأ الأحوال، قراءتها ستغني معارفك حول الموضوع».

ثم سألته:

ـ إذن؟ هل نتابع أم لا؟

وكأنما ليرد عليها، أخذ عالم الآثار المصرية ورق البردي، وبحث حيث بدأ قراءتهما، ثم توقف عند فقرة، فقرأ:

ـ «بالمقابل، شيّد الفرعون «حوت بن بن» أي «مقر حجرة بن بن» أذكرك بأن البن بن هي البقايا المقدسة منذ الأزمنة البعيدة. والمرتفع الأول الذي كوّن مركز المعبد الشمسي الكبير لهيليوبوليس والتي تجسد نطفة آتون المذهلة. كان المكان يتمثل كمعبد بصف من الأعمدة ممركز في المسلّة الوحيدة المشيّدة في الكرنك من طرف أمنحوتب الثالث. كان خطوة أخرى في اتجاه التغيير». ممتع هذا المعبد المكرم لحجرة بن بن.

ـ لماذا إذن؟

ـ أغراني دوماً ولع الناس الشديد بالحجر.

---

(١) قارب مصري بشراع (المترجم).

استمر قائلاً:

ـ انظري إلى الكعبة، الحجر الأسود الموجود في مكة، والذي يقدسه مسلمو العالم.

ـ هذا صحيح. فعلى ما هو إنساني التخلص من مخاوفه النكوصية. ليس هناك الكعبة فقط. ألم يكن الرومان على سبيل المثال، يحتفلون كل سنة في شهر مارس بتمثال الإلهة سيبيل، التي يحوي رأسها حجراً مقدساً؟ يمكننا الحديث أيضاً عن الإنكا الذين لم يكونوا بمعزل عن ذلك، ففي حصن في قمة ماشو باكشو وجد حجر مقدس جميل مكرس لعبادة الشعب. أنا متأكدة من أننا لو بحثنا جيداً لتمكنا من إيجاد العديد من الأمثلة من هذا النوع.

قاطعت نفسها فجأة، ثم سألته:

ـ هل سجلت ما أشار إليه أنوكيس عندما تحدث عن طريقة بناء جديدة؟

ـ طريقة جديدة في البناء؟

ـ الثلاثات[١].

قفزت الشابة من مكانها:

ـ لست غبية، إنه الطوب الحجري الشهير!

ـ نعم، فقد كان مضغوطاً بالوقت بلاشك، إضافة إلى اندفاع الشباب، إذ كان أخناتون يطلب كل شيء وفي الحال. وبحجمها ووزنها مثلت الثلاثات إيجابيات الطوب فهي لا تشغل حيزاً كبيراً إذ تبلغ اثنين

(١) مشتقة من العدد ثلاثة.

وخمسين سنتمتراً في الطول على اثنين وعشرين سنتمتراً في العرض، وهي سهلة الاستخراج، كما أنها سهلة الحمل والاستعمال ما دامت لا تزن إلا نصف كيلوغرام. هذه الخصائص هي التي ساعدت في المحافظة على برنامج بناء مهم، وتنفيذه في وقت قصير جداً.

تدخلت جوديت:

ـ للأسف، فهذا الطوب الذي كان سهلاً في الاستخراج، كان سهلاً أيضاً في التفكيك. فعمال حور محب الهمجيون لم يبقوا له على أثر.

ـ هذا صحيح. لكن لا تنسي أن هؤلاء العمال هم من سيعيد استعماله في بناء ودعم بناءات لاحقة، من بينها بوابات هياكل معبد الكرنك الثانية والعاشرة، والحادية عشرة، وهو ما يمنحنا اليوم فرصة جيدة لدراستها. لقد كان عملاً جباراً بكل تأكيد. فلهذا اليوم تم عدّ أزيد من خمسة وثلاثين ثلاثات. بقي فقط تجميع القطع وتنظيمها وإيجاد مواضعها الصحيحة. كأنه لغز بحجم كوكب!

ـ قرأت مثلي تماماً أن الفرعون فاجأ الجميع حين أعلن عن تنظيم احتفال سد بعد أربع سنوات فقط من اعتلائه العرش. هل لديك تفسير لذلك؟

مرر لوكاس راحة يده على خده بطريقة آلية، ثم قال:

ـ يبدو لي أن هناك تفسيراً واحداً مناسباً، وهو أنه أراد إعلان طبيعته فوق البشرية، وميزته الألوهية.

ـ أضيف إلى ما قلته، وأنا على علم مسبق أنك لن تشاطرني الرأي نفسه، مرضه. من المؤكد أنه كان على علم بوضعيته الصحية الهشة. كان يظن أن الاحتفال سيجدد له الحياة. على كل حال، أنا سعيدة أني

لم أكن مخطئة عندما أكدت لك أن الأعمال المنجزة كانت تحت إشرافه. بالنسبة لي يمثل هذا دليلاً على أن هذه التماثيل التي تصور جسده المتحول هي انعكاس لما كان عليه في الواقع. بالمقابل، ما كان يستطيع أي فنان أن يجرؤ على رسم صورة غير جيدة للإله الملك بدون إذنه.

ـ أرى ما ترمين إليه يا جوديت. وأنا متفق معك، واعترف بأن الفنانين لم يكونوا إلا مستسلمين لرغبات أخناتون. لكن إلى هذا، يمكن قبول أنه كان يجسد بشكل غير طبيعي. هناك خطوة أرفض أن أقوم بها، وهي أن هذه التجربة كانت جزءاً من شكل فني جديد. هذا كل ما في الأمر.

ـ ومع ذلك، فقد قرأت جيداً وصف اللقاء الذي جرى ما بين بيك والملك. أخناتون هو من يملي إرداته. وعلى أي حال فالوصف الموجود على الحجر الجنائزي للنحات يمثله بكل وضوح، فهو يعرّف نفسه بأنه «المتعلم الذي أخذ تعليمه من صاحب الجلالة».

ثار لوكاس عليها بالقول:

ـ مرة أخرى، تخلطين كل شيء. تريثي قليلاً بحق الشيطان! كيف تأملين تحرير عمل جاد عن أخناتون وأنت تستمرين في ترك قيادك لحماسك الزائد؟ إذا ما فحصنا الصور الجدارية، ألا نتأكد من أنها تقوم فقط بالتعبير عن الأفكار الثورية نفسها التي سلط أخناتون الضوء عليها في المجال الديني؟ أحجام الصور الإنسانية المعدلة تذهب في اتجاه الابتكار. والدليل على ذلك أنها غير مقتصرة فقط على جسد الفرعون

أو على أفراد العائلة الملكية. فسريعاً سيمثل أقرباء الملك على الهيئة نفسها.

ـ هل هناك ما هو أكثر منطقاً؟ أطلق أخناتون موضة، ومن الطبيعي أن تظهر بطانته الرغبة بأن يمثلوا مثل عاهلهم، إرضاءً له، وعلى كل حال، فصورة الملك هي من تمثل التحول الجسدي. انظر جيداً إلى المجسم الكبير المنحوت من قبل بيك. كان عارياً ودون أعضائه الجنسية!

ـ بداية، اعلمي أنه وإلى حدود الساعة التي نتحدث فيها، يوجد هناك من يتساءل إن كان هذا التمثال يجسد أخناتون. فمن غير المستبعد أن يتعلق الأمر بنيفرتيتي ملفوفة في فستان لصق جسدها.

قالت جوديت ساخرة:

ـ نيفرتيتي ممسكة الصولجانات الملكية، وبلحية مستعارة؟

ـ شوهد مثل هذا الأمر عند الملكات الوريثات، وخاصة مع الملكة حتشبسوت، ثم اسمحي لي أن أعيدك إلى الشروح المقدمة في هذه الرسائل التي تؤمنين بها كثيراً. سأعيد ما قاله الفرعون «إنه اتحاد بين والدي ووالدتي. سيكون هذا التمثال انبعاث غير جنسي للإله آتون. ذكري وأنثوي». أليس هذا واضحاً بما يكفي؟ لقد أراد أخناتون أن يكون مثل إله الشمس. الإله الذي أخصب نفسه بنفسه. رجل وامرأة في الآن نفسه.

كانا قد بلغا عتبة المكتب عندما توقفت جوديت، والتفتت إلى لوكاس ثم قالت:

ـ حسناً إذن. سأطرح عليك السؤال من زاوية أخرى. ألا يمكن أن

تكون فكرة إله مخصي قد استوحاها أخناتون من جسده؟ ألا يمكن أن يكون هذا الجسد الأنثوي قد أتى ليدعم الفكرة التي تحركت داخل روحه، والفكرة التي رعاها كهنة هيرموبوليس، وبسلوك والده الذي أخذ مسافة عن آمون، أو لعلها فكرة أشخاص آخرين نجهلهم؟ ألا يمكن أن يكون هذا الجسد وانجذابه إلى الرجال والنساء معاً عوض صده، شجعه على العكس من ذلك، على الدفاع والرقي وتطوير رؤيته للعالم التي بدأ في إدراكها شاباً؟ على كل...

ورفعت يدها كما لو أنها تقوم بحركة دفاعية، ثم قالت:

ـ أعلم أنك ستصرخ، ولكن ألا يمكن مقارنة هذا المسار مع مسار موسى أو عيسى أو محمد؟ فالعقيدة التي بشر بها الرجال الثلاثة مستوحاة أيضاً من تعليم سابق. فقد اعتمد عيسى على التوراة، وموسى كان قد سبقه إبراهيم ومن الضروري أن يكون محمد قد تأثر بالرسولين الموحدين اللذين سبقاه. وما جعل أخناتون مختلفاً عن خلفائه، يمكن أن يكون جسده. جسد وحساسية مثل ما قلت لك، شجعاه على الذهاب أبعد من والده والقيام بخطوة لم يتجرأ أحد ممن سبقه على القيام بها.

لم يرد لوكاس، إذ وضع يده على مقبض الباب، ثم دعا الشابة لتلحق به.

من كيبر إلى أنوكيس

سلمت لي رسالتك وأنا مستسلم لدور في لعبة سينيت مع جاري كيهات البارع جداً في هذه اللعبة. لم أستطع هزمه أبداً إلا مرة واحدة، في اليوم الموالي لليوم الذي اكتشفنا فيه التمثال الضخم الخالي من عضو الفرعون الراحل. فهذه الرؤية شوشت روح كيهات المسكين حتى بدا عاجزاً عن التركيز ساعات بعد ذلك. حتى إن العظيمات والقضبان الصغيرة كانت تسقط من يديه المرتعشتين، وبطبيعة الحال، فقد استغللت الفرصة لأحقق عليه نصراً كبيراً. هل كان يرتعش خوفاً أم إنه كان خجلاً؟

في هذا الوقت، كنت عاجزاً عن الجزم في ذلك. لكني فهمت الأمر على حقيقته بعد ذلك. فقد تحدثنا في الموضوع. لم يكن الأمر يتعلق بالخوف أو الخجل، ولكن بالإعجاب. هكذا اكتشف صورة الإله بكل أبعادها. إله متخلص من كل الأشياء المختلقة عادة، وإله حقيقي لا يحمل جسد رياضي وعضلات جاموس. وأخيراً هناك فرعون غير كامل، يعيدنا إلى صورتنا. انتهى التفاضل، وانتهت المداهنة التي ترافق تصرفاتنا اليومية منذ القديم. في الواقع، كنا من بين الأوائل الذين أحيوا

هذه الابتكارات، وحتى تلك المتعلقة بأوشيبتي[1]. أعتقد أنه كانت لأخناتون فكرة نبيلة عندما قرر حذف تعريفات القاعدة السحرية التي تجعلها فعّالة. هل تتخيل الارتياح الذي شعر به الأذلاء المساكين، المحكومين بالقيام بأعمال في حقول بعيدة!

تتساءل قائلاً أي حشرة قد تكون لسعت الفرعون، لينظم حفلة سد بعد أربع سنوات من الحكم. بداية، أتمنى أن تكون فهمت جيداً أنه عندما انطلق في تشييد بنايات تكرم آتون في قلب الكرنك، فقد بصق أخناتون على كهنة طيبة. استفزاز جعلني أصفق له طويلاً. هناك نقطة هامة نسيت أن تذكرها. فأنت تعلم أنه كان للنساء الحق، ومنذ القديم، في خدمة المعبد ككاهنات أو موسيقيات أو راقصات، واستفادت أكثر من ملكة من وضعية شرفية داخل طقس حاتور، حتى إن بعض العاهلات تمكنّ من ربط علاقات حميمية جداً مع الآلهة. ألسن معنيات بأن يعدن إليهم الانتصاب الألوهي؟ وهذه موتمويا جدة الملك على سبيل المثال، ألم تعد ابنها مع آمون؟ في غضون ذلك، تفرض العادة بخصوص امتياز تقديم القرابين، أن الفرعون وحده هو المسموح له بذلك، بفضل وظيفته ككاهن أول في كل الشرائع. لكن وفي حرم

(١) يتعلق الأمر بتماثيل مجسمة للإنسان من الخشب والتي كان من المفترض أن تصير خادمة الموت. وفي الدولة الوسطى، وعندما ظهر استخدام أوشيبتي لأول مرة، لم يكن لكل ميت إلا تمثالٌ واحد في قبره. لكن وفي الدولة الحديثة، أخذت توضع المئات من هذه التماثيل في صناديق (كانت تصل حتى سبعمائة)، ولم تعد تمثل الرجل بل عبيده. وأخذ كل واحد يحصل على تمثال بحسب إمكاناته، فهناك المصنوع منها من الحجر، ومن الخشب، وأحياناً من النحاس ومن الخزف الأزرق.

حوت بن بن، لم أفوت فرصة التأكد من أن نيفرتيتي هي من قام بذلك، وليس أخناتون. هذا يؤكد ما أشرت إليه في رسالة سابقة، فأخناتون انتقل من أم إلى أخرى. وهذا العمل الرمزي كان تمهيداً لارتقاء نيفرتيتي. ارتقاء لم تصل إليه، بحسب رأيي، إلا حتشبسوت، فضلاً عن ذلك، وبخصوص الملكة، هل تعلم أن اسم نيفر نيفرو آتون نيفرتيتي صار أمراً شاقاً ومتعباً على نحاتينا؟ فالويل لمن ينحت إطاراً دون أن يترك مكاناً كافياً لرص كل التعريفات! رعب الفنان. . .

على فكرة! فقد نسيت أن تذكر حفلة أوبيت، والتي دارت في السنة نفسها، وهو ما شكل إعلاناً للتناقض الذي على الفرعون مجابهته. فمن جهة كان يدغدغ كهنة آمون، ومن جهة ثانية كان يخضع للعادة مادامت أوبيت لم تكن احتفاء بأول أيام السنة فقط، ولكن أيضاً لتمجيد آمون. أحببت دوماً تلك الأيام. ليس من أجل العظمة والذهب، وأقل من ذلك مظاهر التدين المبالغ فيها، ولكن فقط من أجل جودها علينا بالنهر والمياه. أحبها أيضاً لأنها احتفال كل الشعب، كل المصريين دون أدنى تمييز.

أذكر تلك السنة أن الاحتفالات بدأت في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني للفيضان، حيث كانت السماء بزرقة خاصة، زرقة تحسدنا عليها كل البلدان، زرقة صافية جداً، معدنية وناعمة في الآن ذاته، حارقة ومريحة.

بدأت المراسيم الأولى كما يجب في حرم الكرنك، وكان التجار قد اتخذوا أماكن لهم من الفجر عند مدخل الهيكل، يبيعون كل

شيء، الرمان، والعنب، والبطيخ، والتين، والبشوكة، والخبز، وطيور جاهزة للطهي، أو مطهوة، وقد تداخلت نداءاتهم، وكان الكهنة برؤوسهم الحليقة قد اتجهوا إلى «المكان الكبير» حيث خزنت القوارب الثلاثة المصغرة المخصصة على التوالي لآمون وزوجته موت وابنه خونسو.

كان قارب آمون الأكبر من بينها، ويمكن تمييزه من بين ألف برأسي الخروفين اللذين يزينان مقدمته ومؤخرته. وضعها الحمالون على أكتافهم، واجتازوا بها الساحات، وساروا على الممشى المحاطة جوانبه بتماثيل أبو الهول قاصدين البحيرة المقدسة المرتبطة بالنهر، حيث ينتظرهم أسطول مربوط على طول الرصيف. تفك ثلاث سفن شبيهة بتلك المجسمات المحمولة، لكنها أكبر. معابد حقيقية طافية، وطويلة بأزيد من مائة ذراع. كنت أتساءل دوماً كيف تستطيع أن تطفو على الماء وهي مغلفة بالذهب والكثير من الأحجار الدقيقة والكثيفة والفضة والنحاس والفيروز. وعلى طول المراكب يمكن الاستمتاع بصور تظهر الملك يقوم بعدد من الطقوس المعروفة لفائدة آمون. وفي المكان المخصص عادة لمدير الدفة أعدت مجالس رسمية، وضعت بها تماثيل الآلهة. ويتبع الفرعون المصحوب بالملكة، الحملة. وكانت «الجميلة أتت» في هذا اليوم أكثر تألقاً من أي يوم آخر. وكان يسير على رأس الموكب جندي وضارب طبل لم يتجاوز العشرين من العمر، وكان يدعى سيتي. ظلت هذه الذكرى حية بداخلي، لأن سيتي لم يكن إلا ابن أخي. وعند الوصول إلى النيل توضع السفن الصغيرة كل واحدة في السفينة المشابهة لها. وتنطلق الأناشيد، والأغاني والعزف على السيستر، والناي. تتشرب السماء من الموسيقى وتملأ قلوبنا حماسة.

ولكن تلك السفن الثقيلة، بسبب وزنها، لا يمكنها أن تتحرك لوحدها. فيتم سحبها من البحيرة المقدسة حتى المياه العميقة، والتي تتطلب تسخير مئات العساكر الحاضرين. وكانوا ينتظروننا في تنانيرهم العسكرية، مسلحين برماح، وحراب وفؤوس ودروع، ومؤطرين بواسطة حملة الأعلام والبحارة. وبعد صلاة موجهة لآمون، يقوم الرجال الذين اختيروا لسحب السفينة، بمسك الحبال الغليظة، ثم مشجعين ومدعمين بصراخ العامة يشرعون في سحب السفن حتى النيل الأكبر، لتربط بعد ذلك بالمراكب الجرارة، وتبدأ الرحلة.

ينزلق الإله آمون في المياه، وخلف الزوج الملكي يتقدم حامل المبخرة الذي يمسك وعاء كبيراً من الذهب حيث يحرق صمغ الصنوبر. كان العطر الذي يصدر عنها قوياً جداً حد أنه يجتاح جلودنا وقلوبنا. وكان الزوج الملكي متبوعاً بالكاهن الأكبر برأسه اللامعة، يلبس كما تفرض ذلك المناسبة، تنورة من جلد النمر فقط، محاطاً براقصين وراقصات نصف عراة، وبهلوانات، ومغنيات وأطفال، وكنا نتبعهم على طول ضفة النهر عاجزين عن زحزحة أعيننا عن العرض. وعند الوصول إلى المكان المقصود، تحمل القوارب المقدسة من جديد إلى محراب المعبد. أحد عشر يوماً بعد ذلك، يقوم الموكب برحلة معاكسة حيث ينتظر آمون في مخزنه بالكرنك ولادة السنة التاسعة.

آه! كم أنا حزين فجأة. سوداويتك معدية. أكره ممفيس. هي ليست مدينة بل ساحة للعرض العسكري، مختنقة بأناسها وضجيجهم. هو خطأ تلك السفن المتجهة جميعها من كل فروع النيل إلى الميناء.

هو خطأ هؤلاء التجار الهمجيين التيريين[١] والكاريين[٢] كل هؤلاء الغرباء الذين سكنوا دورنا. يمكنك أن تتخيل ما صار عليه حي بيرو نيفر «السفر الجميل»[٣]. السفر الجميل! أختنق هنا!

لو تعلم المكان الضيق الذي أسكن فيه، وكيف أبكي داري في آخت أتون. زرتني بها مراراً ولا يمكنك نسيانها. طابقان بنوافذ واسعة مغلقة، وتلك الستائر الجميلة مختلفة الألوان، والتي أعددتها في محل سينموت للحياكة. وغرفتي! قصر! في كل ليلة، وقبل أن أنام، ألطف مزاجي، وذلك بتذكر الجدران التي رسم عليها عنب بري في محابق خضراء، وورود صفراء، وبتلات حمراء بنية ببقع سوداء، وأوراق اللوتس البيضاء. أغمض عيني وأتجول في حديقتي. أزيد من مئتي ذراع مربع ٥٥ حيث الكثير من الجميز وحوالي مئة نخلة، وأشجار التين وأشجار الطرفاء[٤] وجذور الدوالي. إنجاز عظيم ما قام به البستانيون في هذا المكان المحاط بالصحراء من كل جانب. وسريري. آه! سريري الذي صنع من أجود أنواع خشب الصنوبر. كان مرتفعاً حد أني كنت محتاجاً للصعود إليه إلى وضع درجة. يمكنك تصور ما آلت إليه وضعيتي اليوم. هل يعقل أن يفرض علي سني المتقدم النوم على فراش حقير من القش، وحتى على الأرض؟ لو تعلم كم تؤلمني كليتاي جراء ذلك!

---

(١) سكان تير، المدينة الفينيقية القديمة.

(٢) سكان يعود أصلهم إلى كاري، وهي منطقة في الجنوب الغربي لآسيا الصغرى. وأصل الكاريين كان موضع خلاف كبير. فالترجمة اليونانية تدفع للاعتقاد بأنهم أتوا من جزر الإيجي والتي هجروها عند دخول اليونان إليها.

(٣) مناطق محاذية للموانئ، ويبقى موقعها غير مؤكد.

(٤) شجرة نحيلة الأغصان (المترجم).

هيا! وكما تقول ذلك جيداً. فلنوقف هذا اللغط. لكن اسمح لي أن أنهي رسالتي بهذا: عليك اللعنة يا حور محب!

من أنوكيس إلى كيبر

لقد جعلت الدمع يصعد إلى عينيّ، وأنا من ظننت أنك سعيد في ممفيس! إسمعني إذن! لمَ لا تأتي لتقضي بعض الأيام عندنا؟ لن نذهب لصيد الطيور المتوحشة أو السمك كما كنا نفعل في السابق، لأن ذلك وللأسف الشديد لم يعد مناسباً لعمرينا، ولكننا نستطيع تمضية ليال جميلة نتمازح فيها، ولمَ لا نلعب سينيت مع أني أفضل لعبة الضامة؟

لا تنسى أن لطيبة أيضاً مساوئها، وإذا كان صحيحاً أن المدينة متوهجة، وأن منازلنا محاطة بحدائق مملوءة بالورود ما يجعل الحياة بهيجة داخلها، فأنا أرى أيضاً أن الضوضاء القادمة من الميناء لاتطاق كتلك في ممفيس تماماً. كل هذه السفن المتزاحمة! تصمّ آذاننا نداءات رؤساء العمال وأوامرهم الموجهة للعمال من أجل تفريغ حمولات الحجر القادمة من مقالع الجنوب، ومن قبل التجار الذين يستقبلون فواكه سورية، وبراميل النبيذ القادمة من الجزر الإيونية، أو مواشي مصر السفلى. وإذا كانت رائحة الأسماك الشهية أو الحمام المشوي تسيح في متاهة الأزقة الضيقة فإن طاعون المياه النتنة ليس ببعيد. وكما تعلم، فوحدهم سكان ضفاف النيل من لهم ميزة التخلص من فضلاتهم في النهر. أما الآخرون، فهم يتخلصون منها كيفما اتفق، وحيثما اتفق. والذباب! آه من الذباب. . . يلاحق الدم الساخن حيثما تواجد، وهذه

الحشرات اللعينة لا تميز بين أحد فهي تلاحق الصعاليك والزوجات الملكية الكبرى وحتى الفرعون نفسه.

كم من موسم مر، وكم نحن ضعفاء! أذكر وكأن ذلك حدث بالأمس فقط، نفر سراً، وبرشاقة من القصب وأوراق البردي إلى الميناء، وضاربين المجاديف بقوة على متن زورق الحظ، على طول هذا المستنقع الذي لم أعد أذكر اسمه قرب إيلاهوم.

كم كان عمرنا؟ سبعة عشرة سنة؟ أكثر بقليل؟ كانت تحلق فوق رؤوسنا أعداد لا تحصى من طيور المستنقع حتى لنخالها سحباً. لم نكن وحيدين. كان هناك مياو القط الذي دربه والدي بصبر ليجلب الطيور، ولحسن حظنا، تمكنّا من اصطياد واحد. وكانت هناك أيضاً الصغيرة أنيسكي. ما أزال أذكر اسمها، لأن بنت أخي تحمل الإسم نفسه. لم تكن قد بلغت الخامسة عشرة بعد من عمرها، وكانت تأكلك بعينيها وتصرخ وتنقنق كالدجاجة في كل مرة تجدف فيها. لأنك كنت تجدف حينها! مازلت أسمع للآن ضحكتها تطن في رأسي عندما كنت تتهيأ لترمي بطاً بسلاحك، وتفقد توازنك في اندفاعك لتنتهي في الماء. ستخبرني يوماً إن كنت جامعت الصغيرة سراً. أعتقد أنك كنت تفعل ذلك، بالنظر إلى جسدها الذي كان كجسد امرأة، وما كنت لتفوت فرصة مماثلة.

في رسالتي الأخيرة، توقفت في الكرنك عند السنة الرابعة من حكم أخناتون، وذكرت أنه في هذا الوقت بدأت العلامات المبشرة بالتحول الكبير الذي لن يتأخر كثيراً حتى يتحقق. ومع ذلك، فلنوضح أنه، وعدا التحدي الذي رفعه في وجه كهنة طيبة، وذلك بتمجيد آتون عبر بنايات

في قلب الكرنك، فقد تحاشى العاهل مهاجمتهم. ولم يقم بأي شيء لكبح عقيدة آمون رع. استمر اسم الإله في التداول كاسم الفرعون تماماً، ولم يهدد كبير الكهنة في أي وقت من الأوقات. ومع ذلك، فقد كانت النار ترقد تحت هذه المظاهر الهادئة، وبدا توتر حقيقي يظهر بشكل خفي بين الفرعون الشاب وطيبة «مدينة ملك الآلهة». ومع هذا، فالمعابد المشيدة تكريماً لآتون، والقرابين، والتي كانت على شكل طعام أو المواد القيمة لم تكن صادمة أو غير عادية. ولكن موقف الكهنة بدأ بالتغير. هل أحسوا أننا كنا إزاء ظاهرة أكثر أهمية؟ هل كانوا يخشون ممتلكاتهم؟ هل كان يضايقهم رؤية فرعون واهن على رأس الإمبراطورية، بمشاركة ملكة تمنح القوة الرجولية؟ من يستطيع أن يجيبنا؟ شيء أكيد هو أنها كانت ساعات عذاب طويلة ومواسم آلام كبرى حتى نهاية السنة الخامسة عندما ستنفجر المأساة. لم أتصور أبداً أن يكون الكهنة قادرين على كل تلك الوحشية! لأنه بدون أدنى شك، كان الكهنة هم من دفع إلى ذلك الجرم الدنيء. ثم أنكروا كل ذلك. كانوا حاذقين بالفعل! وإذا لم يطلقوا السهم فنحن نعلم أنهم جهزوا القوس. عندما اكتشفنا ما حاولوا القيام به، وكانوا قريبين جداً من النجاح فيه، اجتاح الرعب والذعر قلب «من أحببت». أمسك رأسه بين يديه، وسمعته يهمس بصوت جعله الاحتقار مرتعشاً «ما يتفوه به الكهنة أسوأ مما سمعت في السنة الرابعة، وأسوأ من السنة الثالثة، وأسوأ من السنة الثانية، وأسوأ من السنة الأولى، إنه أبغض مما سمعه أمنحوتب الثاني، وأسوأ مما سمعه تحوتمس الرابع». بعد أن قال هذه الكلمات، قام وأمر بتجهيز عربته لينصرف خارج القصر وحيداً وبدون حماية في قلب الليل.

ولم يظهر إلا بعد يومين بادي الرضى، سيماء وجهه مشعة، وتبرق عيناه بألف نار، ومجرداً من كل علامة تعب. . . وفي الغد، وقبل طلوع الفجر، أيقظ بارنفر كبير خدم الملك، وبانهيسي الذي كان قد عين قبل وقت قصير سيد خدم آتون، والوزير ناخت، وبعض المخلصين، وكنت من الحاضرين أيضاً، وطلب منا أن نتبعه. آه. نسيت! كان أيضاً هذا الكلب، حور محب الذي كان قد رقي أخيراً رئيساً للمجندين. حور محب. . . سنتحدث عنه فيما بعد.

كانت النجوم ماتزال تملأ السماء. وكانت هناك سفينة جاهزة، صعدنا على متنها. وفي سادس أيام إبحارنا، أبلغنا الفرعون أننا قد اقتربنا. في هذا الوقت، كنا ما بين طيبة وممفيس، في منطقة الأرنب البري في الضفة الشرقية[1]. وفي الجهة المقابلة عند السفح الآخر إلى الشمال قليلاً، حيث كنت أعلم أن مدينة هيرموبوليس ترتفع. وبما أن بارنفر قد استغرب توقفنا المفاجئ في قلب هذا القفر، أخرسه الملك بحركة جافة من يده وطلب منا الترجل.

كان الصمت يلفنا، وعندما بدأ ضوء النهار يضيء ما حولنا، أخذنا نميز ما يحويه المكان. فالصخور الكلسية التي ترافق عادة النهر تتراجع هاهنا منتهكة أراض أخرى. تتبعت نظرات «من أحببت» محاولاً اكتشاف ما كان ينظر إليه بقوة، حيث جبال مستديرة مشكلة مدرجاً وحيث سهل مستطيل منغلق على نفسه بمخرج واحد هو النيل. لاشيء في هذا المنظر يغري بالمشاهدة. وهكذا رأيته! نعم، في الشرق، رأيت الشمس

---

(١) حوالي ٦٥ كيلومتراً جنوب مدينة مينيح، و٤٠ كيلومتراً من المكان الذي أطلق عليه اسم العمارنة.

تشرق ببطء على شكل نصف دائرة، يشكلها واد جاف. كان يلزمني بعض الوقت لأتمثل أهمية هذه الإشارات مع كل ما تتضمنه من رموز. هل كنت ضحية سراب؟ هل كنت تحت سحر «من أحببت» عند رؤية شيء غير موجود؟ لا، كان كل شيء حقيقي، فقد كانت الشمس والتلّتين تشكل آخيت بالهيروغليفية!

آخيت يعني «الأفق». هل تفهم ما أحاول أن أقوله لك؟ لم يكن الأمر يتعلق بمصادفة، وإنما بنداء. لقد كان الإله يوجه رسالة إلى مصطفاه. لم أستطع فهم فحوى الرسالة في تلك اللحظة. وامتنعت عن طرح الأسئلة، ومثل المرافقين الآخرين، ظللت جامداً بلا حركة، ننتظر. كم مر من الوقت على ذلك؟ لا أدري. في النهاية كسر صوت الملك الصمت قائلاً:

ـ هنا. هنا سنشيد مدينة إلهي.

صمت للحظة ثم عاد للقول:

ـ لن تكون حدودها، في الشمال أو في الجنوب. في الشرق أو في الغرب. وسنناديها آخت آتون «أفق آتون».

فكرت (ليس هيكلاً أو معبداً. لا. لقد قال جيداً: «مدينة جديدة»).

جازف أحدهم بالقول، ولعله بارنفر:

ـ هل نحن متأكدون أن الكهنة لم يحصلوا على هذا الموقع؟

ـ لا، لا يملك هذا المكان أحد. فقد كان وسيكون لآتون.

لاحظت دون أن أعبر عن ذلك، ألا شيء مفاجئ في كون هذا

الموقع بلا مالك. من كان يريد هذا المكان الحزين من الصحراء، والبعيد جداً عن كل شيء؟

عندما سمعت حور محب يرطن بكلمات لم أذكر منها إلا «إنها مجازفات. . . خطيرة». استدار أخناتون الذي كان واقفاً بالمرصاد لكل شيء، ولأي كان، تجاه رئيس المجندين ثم قال:

ـ هل انت قلق يا حور محب؟

ـ نعم يا صاحب الجلالة، أنا كذلك.

ـ هل ستعلمني بسبب ذلك؟

ـ أنا خائف. خائف من تسبب هذه المدينة الجديدة بعض الحنق لرجال آمون، وخائف أيضاً من أجل حدودك.

عقد الفرعون حاجبيه، ثم قال:

ـ حدودي؟ هل هناك عدو غير معروف يزحف نحونا؟ هل مصر في خطر؟

هزّ حور محب رأسه قائلاً:

ـ لا، ولكني أحس أنه ومنذ بضعة مواسم تتجه الريح في غير صالحنا. فبعض البدو وقطاع الطرق ينهبون ضواحينا، ويسخرون من اسمك. وبعض الأمراء الثائرين لم يعودوا يقومون بواجبهم في القبائل، و. . .

أوقفه الملك بإشارة من يده ثم قال:

ـ مخاوفك ليست صلبة بقدر هذه الريح التي تعتقد أنها تتجه في غير صالحنا. الحب يا حور محب. الحب هو أكثر النهاب مودة من

الآخرين، وهو أكثر وحشية من قطاع الطرق، وهو الأمير الأكثر ثورة. . . هذا الحب الثاوي في قلوبنا سينبجس بفضل آتون، ويغرق العالم. هو من سينتصر!

حوّل ناظريه، وصوب سبابته نحو نقطة في الصحراء، ثم قال:

ـ فليشيد هيكل هنا! وعندما يتم ذلك سنعود لتطهير المكان.

رفع ذراعيه إلى السماء، ثم تابع بصوت صاف:

ـ سيحيا آتون مثل أبي رع حور آختي، سأشيد هذه المدينة في هذا المكان. لن أبني في الجنوب أو في الشمال، في الغرب أو في الشرق، ولن أحرك لوحة الشمال إلى الشمال، ولن أشيدها في الغرب من آخت آتون، ولكنني سأشيد آخت آتون من أجل آتون، أي في المكان الذي حدده أبي بنفسه. وحتى لا تأتي الملكة لتقول لي «أنظر، هذا موقع جميل لآخت آتون، وتقصد بذلك مكاناً آخر»، وأنا لن أتبع ما ستقول. وحتى لا يأتي موظف من موظفي النعمة ليقول لي «انظر، هناك موقع جميل». سأشيد معبد آتون الكبير من أجل آتون أبي الكبير هنا، في هذا المكان. وسأشيد معبد آتون الصغير، من أجل آتون أبي في هذا المكان. وسأشيد ظل الشمس للزوجة الملكية الكبرى نيفر نيفرو آتون نيفرتيتي من أجل آتون أبي، في هذا المكان، هنا. سأنظم كل الأعمال في هذا المكان، هنا. سأصمم قصراً ملكياً لي، وقصراً آخر للزوجة الملكية الكبرى في هذا المكان، هنا. سيشيد قبري في الجبل الشرقي، شرق آخت آتون، حيث يلزم دفني بعد ملايين من حفلة سد التي سيأمر أبي آتون بها. ويلزم أيضاً دفن الزوجة الملكية الكبرى نيفرتيتي بعد ملايين السنين في آخت آتون، والأميرة ميريت آتون أيضاً.

وإذا ما مت في مدينة في الشمال أو في الجنوب، في الشرق أو في الغرب بعد ملايين السنين، فلأجلب ولأدفن أيضاً في آخت آتون، وإذا ما ماتت الزوجة الملكية الكبرى بعد ملايين السنين في مدينة في الشمال أو في الجنوب، في الشرق أو في الغرب، فلتجلب ولتدفن في آخت آتون. وإذا ما ماتت الأميرة ميريت آتون في مدينة في الشمال أو في الجنوب، في الشرق أو في الغرب بعد ملايين السنين، فلتجلب ولتدفن في آخت آتون. ولتشيد مقابر لكبار العرافين، ولآباء آتون المؤلهين، ولخدام آتون. ولتشيد قبور للموظفين، وللجميع في الجبل شرق آخت آتون حيث يلزم دفنهم!

وفي اندفاعه، خاطب الكاتب الملكي وبيك الناحت قائلاً:

ـ اتبعاني! سأريكما حدود المدينة القادمة، وفي كل مكان أحدده ستضعان لوحة. أربع عشرة في الإجمال، وستحفران عليها الكلمات التي سأمليها عليكما باسم آتون.

أذعن بيك والكاتب للملك، وتحرك الثلاثة في سحابة من الغبار اللامع، وعندما عادوا إلينا كانت الشمس عمودية على النهر.

أمر الفرعون قائلاً:

ـ سنعود!

وعلى امتداد طريق العودة، لم يجرؤ أحد، حتى حور محب، على القيام بأدنى تعليق، ليس فقط خوفاً من غضب الملك، ولكن لأننا كنا مشوشين حد أننا كنا عاجزين عن التفكير. وبالنسبة لـ«من أحببت» كان كل شيء واضحاً، أما بالنسبة لنا فقد كنا حائرين.

قام البعض ممن علم بالمشروع بإعلام الفرعون بالسلبيات المتعلقة

باختيار هذا الموقع، ولاحظوا أنه إذا كان من الحكمة جعل المدينة الجديدة بعيدة عن كل شيء، وخاصة عن العاصمة، فهذا البعد يشكل ضعفاً لها، لأنها وهي معزولة، سيكون من الصعب أن تسمع باقي البلاد عن تعاليم الإله المفضل لأخناتون. كانت هناك أيضاً، مخاطر التعرض للغارات والاعتداءات، فهذه المنطقة من الصحراء تعرف مرور رجال غير شرفاء، وقبائل خارجة عن القانون تعيش على القتل والنهب. ولم تستطع أي من هذه الانتقادات التأثير على قرار الملك. فكما قلت سابقاً ف«بالنسبة له، كان كل شيء واضحاً».

بعد حوالي ثلاثين يوماً من ذلك، كان الهيكل قد بني، فعدنا إلى الموقع من أجل مباشرة المراسم المكرمة لآتون، وللتدشين الرسمي للورش. ففي هذا المكان، أعطى الفرعون أمره الأول إلى المهندسين قائلاً: «هنا، في مكان وموقع الهيكل، ستشيدون المحراب الداخلي للمعبد الكبير الذي سيكون مكرساً، مثل المدينة، للإله الواحد».

الإله الواحد، نعم. كان هذا ما قاله. الإله الواحد.

تبادلت النظرات مع بارنفر. ولو أن أحداً فاجأنا لكان بكل تأكيد استطاع أن يفك شفرة تساؤلنا الأخرس. إله واحد إذن. إلى ماذا ستؤول باقي الآلهة؟

أعادنا صوت الفرعون إلى الواقع، فقد صعد بضع درجات مؤدية إلى المنصة، حيث وضع عليها هيكل حجري، وأخذ يعرض علينا رؤيته. كان يصف لنا كل جزء، وكل طريق، وكل منزل والكائنات التي تسكنه. كان يعبر دون شغف. أود أن أقول دون حمى. لكن وفي لحظات معينة، وعندما يبلغ به التأثر ذروته، كان صوته يضطرب قليلاً.

كان يعدد البنايات التي يتعين بناؤها، وأنهى عرضه بوصف المراسم المتعلقة بشرع آتون، والتي كان ينوي إعلانها مؤكداً القرابين التي ستقدم له، والأعياد التي كانت ستنظم.

ولن نعلم بالأخبارالسعيدة إلا حين عودتنا إلى طيبة، فقد وضعت نيفرتيتي طفلاً ثالثاً، أنثى وهي عنخس إن با آتون الذي يعني اسمها «التي تعيش بآتون». لكن هل كان ذلك خبراً سعيداً بالفعل؟ هل يمكن الاحتفال بغياب الوريث الذكر؟ وسرت شائعة بأن الأم الملكية الجديدة تيي، وحين سماعها الخبر، كسرت مزهرية، ولكننا نعلم ما تساويه الشائعات...

أستأذن منك الآن يا صديقي، فقد حان موعد قيلولتي. أضمك إلى قلبي.

القاهرة

أطلق لوكاس ضحكة قصيرة، ثم قال:

- يمتعني مراسلنا الغامض.

ثم أشار إلى فقرة من الرسالة وأضاف:

- يقول لنا «*فلنوضح أنه وعدا التحدي الذي رفعه في وجه كهنة طيبة، وذلك بتمجيد آتون عبر بنايات في قلب الكرنك، فقد تحاشى العاهل مهاجمتهم*». لكأننا نحلم أمام سذاجة كبيرة كهذه! ألم يعي أنوكيس هذا جيداً خطورة هذه العملية؟ أن يهدي في قلب قدس أقداس كهنة آمون محراباً لآتون. ما الذي كان ينبغي أن يفعل أكثر من ذلك لجلب غضب الكهنة؟ قلب التماثيل؟ إحراق طيبة؟

جادلت جوديت قائلة:

- على كل حال، وإذا ما حكمنا على هذا الرد الكاشف «ما يتفوه به الكهنة أسوأ مما سمعته في السنة الرابعة إلى آخر ذلك. الواضح أن الأمور سارت بشكل سيِّئ.

أزاحت خصلة ثائرة من على جبهتها، وسألته مشككة:

ـ ما الذي كان يمكن أن يحدث؟

ـ أنى لنا أن نعرف؟ فمن المحتمل أنه وفي وقت معين، تسممت الأوضاع بشكل غير معقول حد أنها جعلت الجو لا يحتمل للعيش فيه، فكان يستلزم إيجاد بديل. إما الدخول في معركة مع الكهنة، وهو ما كان سيكون خطيراً أو مغادرة طيبة. واختار أخناتون الطريق الثانية. فبرحيله، واختياره تشييد مدينة جديدة، ضرب، إذا تجرأت على القول، عصفورين بحجر واحد. فمن جهة، أنزل طيبة إلى درجة ثانية، وبالتالي الكهنة معها، ومن جهة ثانية، خلق مكاناً جديداً ملائماً حيث يمكنه حفظ وتطوير رؤيته الجديدة للعالم على مهل.

ـ رؤية بحجم متواضع. . . أقصد هنا حجم المدينة.

ـ تضم المنطقة المتواجدة داخل ما نسميه «اللوحات الحدودية» والتي تبلغ حوالي ستة عشر كيلومتراً على ثلاثة عشر كيلومتراً، بمعنى أن المساحة أكبر بكثير من المدينة نفسها[١].

ـ لكن من الصعب تقييم النسبة المئوية للأراضي الخصبة التي تتضمنها هذه الحدود. وبالاعتماد على التقديرات يمكن تصور أن الزراعة هناك كانت كفيلة بإطعام ما بين ثلاثين إلى أربعين ألف شخص.

توقف قليلاً، قبل أن يضيف:

ـ هل تذكرين ما أخبرتك به حين تحدثت عن إرادة أخناتون بقطع الصلة مع الأعراف والتقاليد الماضية؟ أخبرتك بأن «قطع الصلة» كانت كلمة السر في حياته. فإذا ما أعدت قراءة الفقرة المتعلقة بمراسم دفنه

(١) تعرف المدينة اليوم تحت اسم تل العمارنة.

وأقربائه في الضفة الشرقية، فهنا أيضاً يتعلق الأمر بقطع الصلة. فلم يحدث أبداً لغاية ذلك اليوم، أن دفن فرعون أو أحد أفراد عائلته بعيداً عن وادي الملوك، داخل مجال آمون.

توقف لوكاس فجأة، ليقول:

ـ تأخر الوقت. هل نذهب للعشاء؟

ـ بكل سرور. أعرف مكاناً سيعجبك.

ـ أتمنى ألا يكون فيه ضجيج كثير.

أطلقت الشابة ضحكة، ثم قالت:

ـ هل نسيت بروفيسور لوكاس أننا في القاهرة؟ فهنا رأى الضجيج النور.

ثم أضافت مسرعة:

ـ ولكن حيث سآخذك، وجد الهدوء مرفأ له.

كانت تلزمهما أزيد من ساعة ليجتازا جسر قصر النيل الذي يعبر النهر ويسيران بمحاذاة دار الأوبرا، هدية اليابان لمصر، وعبور الجيزة، ليدخلا أخيراً في الطريق القديمة التي تلقب بالأهرامات.

ألقى فيليب لوكاس نظرة تجاه العمارات الشاذة الكثيرة والفيلات، والمتاجر التي تحاذي الطريق ثم قال:

ـ من يمكنه القول إنه وحتى وقت قصير، كان كل شيء هنا عبارة عن حقول، وجداول وبرك على امتداد البصر؟

ـ وقت قصير؟ كان ذلك في عهد الكتاب المسافرين، وعلماء البعثات!

ـ أنت مخطئة يا جوديت. في الستينات، كان بالإمكان ملاحظة مساحات خضراء شاسعة، والنخل، والأهرامات على امتداد الأفق. بعد ذلك ساءت الأمور. والآن ينبغي البحث عن الأهرام بين عمارتين، وغابة من حبال الغسيل، وجيش من الصحون المقعرة اللاقطة للفضائيات. حتى إنه وقبل وقت، كانت السلطات تنوي تمرير طريق سيارة في ظل هرم خيوبس لكن ولله الحمد، فقد تمكنت حركة مناصرة للبيئة من إيقاف هذا المشروع المعتوه!

وبالنسبة للنيل، فالاعتداءات لم تتغير. تعرفين بلا شك الكاتب المصري، نجيب محفوظ، الحائز على جائزة نوبل للآداب. كان عاشقاً كبيراً للنيل. في معرض حديثه عن شبابه ذكر أنه وفي وقت من الأوقات، لم يكن النيل محتقراً مثل ما هو عليه الآن، فلم تكن تلقى فيه نفايات المعامل، ولم تكن تبنى على ضفافه عمارات قبيحة. مصر الحديثة تكاد تخنق هذا النهر الخالد. عِرْقُ الحياة الذي قدسه أجدادنا[١].

غادرت سيارة الأجرة الطريق الرئيسية لتلج أخرى فرعية، تحاذي قناة، وقد جعلت السيارة تهتز.

أعلنت جوديت:

ـ اقتربنا.

بعد حوالي عشر دقائق من ذلك، توقفت العربة أمام مدخل مطعم بدون سقف. وعندما قرأ لوحة الإسم المضاءة بالنيون، أعلن متعجباً:

---

(١) Nadjib Mahfuz, Mon Egypte, J-C. Lttés, 1996.

ـ سبق وأن حضرت هنا!

ـ لا؟!

ـ بكل تأكيد. حدث هذا قبل حوالي أربعين سنة.

أنقد سائق سيارة الأجرة المبلغ المتفق عليه، لأن عدادات سيارات الأجرة هنا، كحال إشارات المرور الضوئية لا تصلح إلا للزينة فقط. شرح قائلاً:

ـ إذا ما تذكرت جيداً، فالمطعم كان في ملكية يوناني يدعى أندريا، مشهور بخبزه «المصنوع بالمحل»، والدجاج، والحمام المشوي.

أشارت جوديت إلى زاوية قرب المدخل حيث انحنت امرأة تعجن الطحين، ورجلاها أرضاً على فرن واطئ مخصص لإعداد الخبز. هزّ لوكاس رأسه متفهماً الأمر، ثم قال:

ـ بكل تأكيد. فهذه هي مصر أيضاً. حركات موروثة عن السلف تسخر من الزمن.

ـ نسيت روح الدعابة والسخرية الذاتية اللتين مكنتا هذا الشعب من مقاومة البؤس الذي فرض عليه. يطلقون عليها هنا في مصر «النكتة»[1]، وهي طريقة من أجل الاستمرار في العيش، وذلك بالاستهزاء من مصيره.

أخذت جوديت مكانها إلى الطاولة التي اقترحها كبير الندل متابعة حديثها:

ـ فضلاً عن ذلك، هناك العديد من الرسوم الكاريكاتيرية، وجدت

---

(١) هكذا ورد في النص الأصلي (المترجم).

في بعض القبور، والتي تؤكد أن هذه الروح هي نفسها منذ زمن بعيد. فهي تعود إلى التراث الجيني لهذا الشعب.

أكد عالم آثار المصرية قول جوديت بحركة من رأسه، وهو يفحص قائمة الطعام بطريقة شكلية إذ كان قد اختار سلطة، وحمصاً[1]، وحمامة مشوية. وقرر أنه سيروي كل هذا بجعة ستيلا التي يعتبرها لوكاس كأفضل أنواع الجعة في العالم.

وبالكاد مررا طلباتهما إلى النادل، حتى صدر صوت كأنه الرعد من إحدى الموائد المجاورة قائلاً:

ـ لا، لست متأكداً! أهذا أنت؟

بدت هيئة رجل ملتح، قصير القامة، بدين يقصدهما ليقف أمام عالم الآثار المصرية، ليضيف:

ـ فيليب لوكاس! بلحمه وشحمه!

رد الفرنسي، وقد بدا عليه الاضطراب!

ـ نعم. لم أتشرف.

ـ هيا! لا تقل إنك لا تعرفني! لم تمض على ذلك إلا خمس وعشرون سنة.

فتح الرجل ذراعيه، وقال اسمه كقدر محتوم:

ـ آرتين سارافيان! آرتين.

تأمله لوكاس لحظة، ثم قال متعجباً:

---

(١) هكذا ورد في النص الأصلي (المترجم).

ـ أحمق الاسكندرية!

أخذ الرجل جوديت شاهدة وهو يقول:

ـ هل سمعته سيدتي؟ مثل هؤلاء الرجال هم من يتسببون في الحروب.

وقف عالم الآثار المصرية، ومد يده إلى مخاطبه قائلاً:

ـ سعيد جداً بلقائك مجدداً.

أشار إلى كرسي فارغ، وهو يدعوه بالقول:

ـ انضم إلينا.

ـ شكراً. أصدقائي ينتظرونني.

توجه لوكاس بحديثه إلى جوديت قائلاً:

ـ تعرفت إلى آرتين قبل مدة طويلة في الإسكندرية. كنت وقتها في بعثة مكلفة بالبحث عن المقبرة اليونانية، وهي نفسها التي أعلن عنها فريق جون إيف أومبرور. انحدر إلينا آرتين ذات صباح، وقرع أسماعنا بنظرياته.

ـ بخصوص مقبرة آباري؟

ـ أبداً. بخصوص الإسكندر الأكبر.

عقدت جوديت حاجبيها، فأضاف:

ـ نعم. فهذا الصديق العزيز كان مقتنعاً...

قاطعه المدعو آرتين مصححاً:

ـ ومايزال مقتنعاً!

ـ مايزال مقتنعاً... بأن قبر مؤسس الإسكندرية يوجد في مكان ما

تحت كثبان واحة سيوا. وكان يريد إقناعنا بشتى الطرق أن نرجئ مشروعنا، وننكب على القيام بأعمال حفر في تلك المنطقة.

جادلت جوديت قائلة:

- إذا لم تخنّي الذاكرة، فقد تمت أعمال الحفر هذه.

- في الواقع نعم، حدث ذلك في فبراير من سنة ١٩٩٥ بإيعاز من عالمة آثار يونانية نسيت اسمها.

- ليانا سوفالتزيس.

أكد آرتين سارافيان قائلاً:

- ليانا سوفالتزيس، وكنت أنا من أقنعها بالقيام بتلك الحفريات.

- و. . . يبدو لي أنكم لم تجدوا شيئاً.

اشتعل الأرميني غضباً وهو يقول:

- لم نجد شيئاً لأن السلطات المصرية لم تترك لنا وقتاً كافياً! فبعد سنة من ذلك، أمرنا بإيقاف البعثة.

تدخل لوكاس مجدداً:

- لافتقاركم إلى أدلة ملموسة.

- نعم. . . من السهل قول ذلك. أنا متأكد أنه لو منحنا وقتاً كافياً لكنا وجدنا القبر. إنه هناك. أنا أكيد من ذلك!

انخرط بعدها في عرض غير مرتب نسبياً، حيث تسببت سمكة في وفاة فاتح اليونان إثر وليمة في بابل، وكيفية نقل جثته، وعن كهنة آمون الذين كانوا يحكمون واحة سيوا. ليختم بالقول:

- أنا أعلم أن أحداً ما سيعثر على التابوت هناك في أحد الأيام.

أبدى لوكاس ملاحظة:

- يظن العديدون، وعلى العكس من ذلك، أن جثته لم تغادر بابل أبداً.

- هذا خطأ! فالمؤرخ اللاتيني كوينت كيرس يخبرنا دقيقة بدقيقة لحظة احتضار الإسكندر، ومن جملة ما كتب: «في غضون هذا، كان الحزن يفضح من تحلق حول السرير. أزال خاتمه من إصبعه، وسلمه إلى بيرديكاس مضيفاً وصيته بأن ينقل جثمانه جوار آمون. وما كان الجنرالات أبداً ليخونوا إرادته الأخيرة». وكان آمون يحكم واحة سيوا. لا تنس أن المحاريب هناك أكدت ألوهية الإسكندر، وأعلنته «ابن آمون».

أجبرته عودة النادل على التوقف، فاستغلها لوكاس فرصة لتغيير مجرى الحديث قائلاً:

- وعدا هواك الإسكندراني. ماذا صار بك؟

- أنا أحيا! أحاول البقاء حياً. أكتب الشعر. أنا كافافي[1] عصري، ولكن لا أحد يعلم ذلك!

أشار إلى جوديت قائلاً:

- لم تشرفني بهذه السيدة الفاتنة...

- جوديت فابر. كانت واحدة من طلابي.

بالغ آرتين في إبداء شعوره بالإعجاب قائلاً:

---

(١) قسطنطين كافافي، ولد في الإسكندرية في ٢٩ من شهر نيسان سنة ١٨٦٣، من بين أكبر الشعراء اليونانيين المعاصرين.

ـ عالمة آثار مصرية؟ لكنها ما تزال صغيرة. كم تبلغين من العمر؟

ـ تسعة وعشرين سنة، سيدي.

جادل الأرميني:

ـ ما تزالين طفلة.

توقف قليلاً ثم سأل:

ـ وعلى أي موضوع تعملين هذه الأيام؟

رسمت جوديت تقطيبة مراوغة، وهي تقول:

ـ على أخناتون.

ـ أخناتون؟

احمر وجه سارفيان حماسة دفعة واحدة، وصاح:

ـ موسى!

ـ عفواً؟

كرر:

ـ موسى! لاتقولي لي إنك تجهلين أن موسى كان من أتباع أخناتون؟ ومن المحتمل جداً أن يكون هو وأخناتون شخصاً واحداً.

غمغم لوكاس متذمراً:

ـ ها نحن أولاء! ها قد مضى في نظرياته المجدفة.

ـ نظريات مجدفة؟ على الإنسان أن يكون أعمى لكي لا يرى الرابط بين الرجلين. وبغض النظر عن ذلك، فاسم موسى في حد ذاته، يعدّ دليلاً على أن هذه الشخصية مصرية أصلية.

سألت جوديت:

ـ ما الذي تود قوله؟

ـ كما هو معروف، فالأسرة المصرية التي وجدته في مهده المصنوع من البردي اختارت له اسم موشى لأنها «انتشلته من المياه»، وفي العبرية، تعني ميشتي «المياه»، هذا التضارب مثير للضحك لأنها تحوي في مضمونها أن ابنة الفرعون كانت تتقن بشكل كاف اللغة العبرية ومشتقاتها، لتتمكن من تصريف ماشاح، وهو فعل نادر الاستعمال، والذي يعني (انتشال) أو حتى (ميشيتيبو) الذي يعني (انتشلته). بالمقابل، وإذا كان الطفل يدعى «من انتشل من المياه» فاسمه بالعبرية كان سيكون «ماشوي» وهو مناسب لاسم المفعول به.

ـ وإذن؟

ـ وإذن ليس موشى من تنبغي قراءته، ولكن موزيس المشتق من كلمة مونر والتي تعني «ابن الـ. . .» أو «طفل الـ. . .» في لغة مصر القديمة. فقد كان مصطلحاً لا يمكن نشره.

رفع لوكاس كتفيه وقال:

ـ لكن يا عزيزي، هذه نظرية الدكتور فرويد التي تفرغها من محتواها أمامنا هنا!

ـ وأنا أوافقها تماماً. فمن الأكيد أن موسى كان مصرياً من أصول أرستقراطية، حوّل فيما بعد إلى إسرائيلي حتى تدعم بشكل جيد فكرة الارتقاء الاجتماعي الذي لا يمكن فصله عن أسطورة هيروس. فمن جهة، لديكم ابتداع أنه إله واحد، المبدأ الوحيد لخلق العالم، والذي لا

يحتاج إلى تماثيل، والذي ظهر لشخص مختار من قبل هذا الإله وهو أخناتون. ومن جهة أخرى، هناك موسى الذي اعتنق المبادئ نفسها.

سارع في التدقيق قائلاً:

ـ ألم يربككما التأكد من أنه في الوقت نفسه الذي اختفى فيه أخناتون حيث انبعث في مصر تعدد الآلهة، خرج من شعب من العبيد اليهود رسول موحى له ينادي بالإيمان بإلاله واحد؟ وعلى كل، فأنتم معشر علماء الآثار المصرية، لا تعلمون شيئاً مما حل بالفرعون بعد سبع عشرة سنة من حكمه. أود القول إنه لا شيء مثبت علمياً، وبصفة قطعية. إذن فلم لا نقبل هذه النظرية؟

أطلق لوكاس ضحكة، ثم قال:

ـ حتى فرويد لم يكن قادراً على الذهاب بعيداً! زد على ذلك أن كل المختصين سيقولون لك إنه من أجل الدفاع عن أطروحته تورط في خليط من المتناقضات.

ـ دعك من فرويد! فالسيناريو يخضع لمنطق لا يفحم. اسمعني، فنحن في حوالي القرن الخامس عشر قبل عهدنا هذا. ساءت الأمور، وبدا كهنة آمون أكثر تهديداً، وهم يتلقون دعماً من قبل المعارضين للتحولات التي فرضها الفرعون. ماذا يفعل أخناتون؟ عندما أحسّ بأن السلطة تطير من بين يديه، قرر أن يتابع حلمه في مكان آخر، واستمال معه عدداً من المخلصين لآتون، والذين لم يكونوا يودون العودة إلى الاعتقاد بتعدد الآلهة، والحالمين بترك مصر، وهم العبريون، وهذا ما يفسر تشابهاً كبيراً في عدد من التقاليد اليهودية والتقاليد المصرية كالختان مثلاً. فطقس الختان لم يكن معروفاً لدى الشعوب الآسيوية أو البابلية أو

السومرية. اقتصرت هذه العملية على مصر فقط، ومن أجل دواع صحية. لماذا إذن تبنى موسى طقساً مصرياً خالصاً مع أنه من المفروض أنه يكره ظالميه؟

قالت جوديت مستمتعة:

ـ أنت تملك جواباً بكل تأكيد.

ـ بكل تأكيد. فإذا كان موسى قد تصرف على مثل ذلك النحو فلأنه كان مصرياً، وعقيدته كانت مستوحاة من عقيدة آتون.

أخذ لوكاس الوقت ليقضم من الخبز الدائري الصغير والساخن الذي وضعه النادل على المائدة، قبل أن يقول:

ـ لا تغضب يا صديقي آرتين. فكل هذا سخيف! فمنذ سنوات يستمتع البعض بمثل هذا الجدال هنا وهناك. فالدفاع عن فكرة أن أخناتون وموسى كانا شخصاً واحداً، وأن موسى كان متأثراً بالعقيدة الآتونية هو تجاوز للعديد من النقاط الأساسية. أولا، فالتوحيد الذي آمن به أخناتون يتلخص في الاعتقاد في إله واحد هو الشمس. إله متمثل. بينما أعلن موسى عن إله غير مرئي باسم غير منطوق، ومن المستحيل تجسيده. ثانياً، إذا رفع الفرعون من شأن آتون فهو لم يشطب من اللائحة بعض الآلهة الأخرى. نعلم على سبيل المثال أنه حوّل المعبد الجنائزي الخاص بأمنحوتب الثالث من صورة مدقوقة لآمون إلى تجسيد لبتاح الإله الرسمي لممفيس، ولم يمس أبداً شرع هذا الإله. والمعبد النوبي البارز بأمادا يشهد في الآن نفسه جور آمون والتسامح تجاه تحوت. مثل هذا التصرف لم يوجد قط لدى موسى. تذكر مشهد عجل الذهب... ثالثاً، وهي نقطة غاية في الأهمية، وهي أن إله

أخناتون صامت، فآتون لم يقل شيئاً. أما في حالة موسى، فلم يكف ياهفي عن إلقاء خطبه. لقد فعل ذلك كثيراً حتى أعطى موسى التوراة.

ـ لا أرى في عرضك ما يناقض فكرة أن أخناتون كان من الممكن أن يكون موسى.

ـ إذا لم تكن هذه هي صلابة الرأس، فأنا لم أعرف شيئاً مثلها! فأنت تقف على الدقة الأكثر الأساسية! أتابع إذن. فبحسب العهد القديم كانت قد انقضت أربع مئة وعشرون سنة بين خروج العبريين من مصر، وبين بناء هيكل سليمان في القدس. هذا البناء بحسب غالبية المؤرخين، تم في حدود سنة تسع مئة وثمانين قبل الميلاد، وهو ما يجعل الرحيل الجماعي قد تم حوالي ١٤٠٠ سنة قبل الميلاد. بينما ظهرت العقيدة الآتونية قرناً بعد ذلك! والعبريون المتواجدون في مصر ليسوا أكثر معرفة بأخناتون من موسى! ترى الآن أن فرضياتك غير سليمة! ليست على السكة الصحيحة.

تابع لوكاس بسؤال سريع:

ـ إذا كان موسى هو أخناتون، لماذا أعلن إذن أن إلهه لا اسم له؟

ـ الجواب واضح، فعل ذلك خوفاً من أن يجدوه. أراد أن يحتمي بقرار تبني اسم إلهي «ياهفي»، والذي كان يقدس فوق مرتفعات بلاد مدين.

ـ هذا سخيف! هيا يا صديقي آرتين. فلتتحل بالقليل من العقل. الحق قبل كل شيء.

قام الأرميني عابس الوجه قائلاً وقد رفع ذقنه قليلاً:

ـ عزيزي! سأكتفي بأن أقول لك هذا فقط. في الوجود، ليست الحقيقة صائبة تماماً، وليس الصواب حقيقة تماماً.

انحنى على جوديت قائلاً:

ـ الوداع يا سيدتي. أنا معجب بتحملك رفيقاً مثله...

غمز لعالم الآثار المصرية بطرف عينه، واستدار مغادراً. لاحظت جوديت قائلة:

ـ شخص غريب.

ـ غريب. لطيف لكنه مع ذلك غريب.

صب لوكاس للشابة كأس جعة، وهو يتابع:

ـ والآن، أقترح أن نترك سجالنا لهذه الليلة، فالجو لطيف والبدر مكتمل، والمكان يعبق برائحة الياسمين، وهذا الخبز لذيذ جداً، ورؤية هذه الحمامات المشوية تقترب تجعل لعابي يكاد يتساقط. هل تسمحين؟.

من أنوكيس إلى كيبر

صديقي، عشت وقتاً عصيباً، فقد فاجأتني آنخري، زوجتي الودودة، أكتب إليك، وبطبيعة الحال سألتني:

ـ ماذا تخربش من جديد؟ هل تكتب رواية؟

ـ يا لها من فكرة! من يجرؤ على القيام بمثل هذا العمل بعد تحفة سينوحي الباهرة. قرأتها أليس كذلك؟

ردت قائلة:

ـ أليست قصة ذاك الرجل البسيط الذي اكتشف مصادفة سراً من أسرار الدولة أيام حملة جيشنا في ليبيا فأرغم على الفرار إلى سورية حيث عاش هناك ألف مغامرة ومغامرة؟

ـ تماماً! تحفة خالصة[١]. لا أراني إذن محاولاً منافسة موهبة مماثلة.

---

(١) لا تعكس هذه الإشارة بأي حال من الأحوال أزمة غرور لدى الكاتب. فسينوحي هو صاحب رواية قيل إنها «تاريخية» كتبت في عهد الدولة الوسطى، وهي تعد من بين الأعمال الكبرى سواء بأسلوب كتابتها أو بما حوت.

وبالطبع أصرت في طلبها إرضاءً لفضولها المعروفة به:

ـ لمن تكتب إذن؟

ـ إلى صديقي كيبر. هل تذكرينه؟

واسمح لي أن أنقل لك ردها كلمة بكلمة. وأتمنى ألا تأخذ مني مأخذاً قاسياً بسبب كلامها. هاك ما قالت:

ـ هل أذكره؟ عديم النفع ذاك! جامع القمصان!

أترى يا صديقي أن لديك سمعة سيئة؟ سارعتُ لنجدتك فذكرتها قائلاً:

ـ لكنه كان كاتباً ملكياً يا أختي.

ـ النموذج الجيّد! ومتى كان الكاتب مرادفاً للاندماج وللأخلاق الحسنة؟

وهكذا، استولت بحركة حادة على أوراقي، وجعلت تفحصها قبل أن تصرخ غاضبة:

ـ ماذا؟ بواسطة حورس، وبواسطة كل الآلهة هنا وهناك. هل فقدت عقلك؟ الكتابة عن «من لا ينطق اسمه»؟ هل تريد قتلنا؟ هل نسيت أن حور محب لا يحملك في قلبه، وأنه ينتظر رؤية ظل ريشة ليجعلك تدفع الثمن؟

أنت تعرفني، فقد رددت عليها بازدراء:

ـ لا يهمني حور محب! فليمت! ولتتعفن عظامه في الصحراء!

ـ وأنا؟ هل فكرت إلى ما سأؤول إذا ما تعفنت عظامك أنت؟ بماذا سأعيش؟ ومن سيلبي لي حاجياتي؟

وهنا تفاقمت الأمور. فقد افتعلت شجاراً رهيباً، ثم زفرت بقوة حين حاولت تهدئتها، وارتمت على قدمي نائحة وهي تقول:

ـ لا تفعل هذا يا أخي. أتوسل إليك! فكر فيّ. فكر فينا. إِرم كل هذا في النار.

وأمضيت بقية الليل أواسيها وأهدئ من روعها. وإذا ما كنت أقصّ عليك هذا المشهد فلكي أقول لك فقط، إلى أي حد يعرف أولئك المخلصون لأخناتون، مثلنا، أوقاتاً عصيبة. فبعد أزيد من عشر سنوات ما تزال المخاوف نفسها تسكننا.

لكن لنعد إلينا.

لم أنتظر رداً على رسالتي السابقة لأكتب لك. فالرغبة تستحوذني لألقي مسرعاً بكل ذكرياتي على ورق البردي قبل... لكن ممَ أخاف أكثر؟ من رجال حور محب أم من التوقف الفجائي لحياتي؟ من المرض أم من عصيان عقلي الذي يمنعني من الرؤية بشكل أوضح؟ فكل هذه المخاوف تتحالف، وتدفعني إلى عدم إضاعة الوقت.

كنا إذن في المواسم الأولى لآخت آتون. سنة بعد ذلك، وفي بداية السنة السادسة لحكمه، عدنا لتفقد الأماكن. كنت مندهشاً لاكتشاف السرعة التي قامت بها المدينة من الرمال. بالمقابل، لم تكن الأشغال في القصر قد انتهت بعد، فكان الفرعون مجبراً على الإقامة في خيمة صنعت من الخيزران المجدول. أطلق على هذا المأوى اسم «آتون راض»، وبعد الزوال من ذاك اليوم، أخذ مكانه في عربته المكونة من الذهب والفضة التي تشبه آتون، وأخذنا في أثره صاعداً الشارع الرئيسي

الذي صمم من الشرق إلى الغرب[1]. توقف في آخره، فتوجه إلى أعضاء البلاط المجتمعين بخطاب لم أذكر منه إلا هذا «انظروا! آتون هو من أراد هذه المدينة حتى يكرم فيها اسمه. سيحكمها آتون، أبي، وليس أياً من الموظفين!».

بعد انتهائه من الخطاب، قرر أن يقوم بجولة ليتفقد حالة اللوحات الحدودية، وكما أمر بذلك من قبل، فقد كانت اللوحات موضوعة في أماكن استراتيجية، إحدى عشرة في السفوح الكلسية من الضفة الشرقية، وثلاث على الضفة الغربية. وعند عودته من جولته، قصدنا معلناً بصوت مرتفع: «كما يعيش والدي، رع حور آختي الذي يستمتع في قطر النور باسمه الذي هو آتون، والذي يمنح الحياة أبداً، فهكذا يستمتع قلبي أيضاً بسبب الزوجة الملكية الكبرى، وأبنائها. سيمنح العمر الكبير «للزوجة الملكية الكبرى، نيفر نيفرو آتون نيفرتيتي التي ستحيا لملايين السنين وهي تحت حماية الفرعون، وسيمنح العمر الكبير للأميرتين ميريت آتون ومكت آتون ابنتيها اللتين هما تحت حماية إلملكة، أمهما. هذا في الواقع هو قسمي، والذي ينطق به قلبي، والذي لن أنكثه أبداً. فلوحة الجنوب التي هي على الجبل الشرقي من آخت آتون هي لوحة آخت آتون التي أنشأتها مكانها. لن أتجاوز أبداً حدودها الجنوبية. ووجدت لوحة الجنوب الشرقي لتقابلها مباشرة على الجبل الجنوبي لآخت آتون، في الجهة المعاكسة تماماً. ولوحة الوسط والتي هي على الجبل الشرقي هي لوحة آخت آتون والتي أنشأتها في مكانها على جبل

---

(١) سكة السلطان الحالي.

مطلع شمس آخت آتون. لن أتجاوز أبداً هذا الحد. ووضعت لوحة الوسط التي هي على الجبل الغربي من آخت آتون لتواجهها تماماً. في الاتجاه المعاكس تماماً.

«ووضعت لوحة الشمال لآخت آتون في مكانها، ولن أتجاوز أبداً هذا الحد الشمالي.

«الآن، وداخل هذه اللوحات الأربع من الجبل الشرقي إلى جبل الغرب، توجد آخت آتون بنفسها. إنها لوالدي رع حور آختي، والذي يستمتع بقرص النور الذي هو آتون، الذي يمنح الحياة أبداً، مع الجبال، والصحارى، والسهول والأراضي الجديدة، والأراضي المرتفعة، والحقول، والماء، والضفاف، والناس، والمواشي، والأشجار، وأشياء أخرى سيحييها أبي أبداً.

«لن أنكث أبداً قسمي هذا الذي أديته لآتون أبي، سيظل على لوحة الحد الجنوب غربي وعلى الحد الشمالي الغربي لآخت آتون. لن يدمر، ولن يمحى. لن يدق، ولن يدهن بالجبص. لن يختفي. وإذا ما اختفى، وإذا ما تلاشى، وإذا ما سقطت اللوحة التي هو عليها، فسأعيده للمكان الذي ينبغي أن يكون فيه».

أقسم لنا الملك بأنه لن ينكث أبداً وعده هذا، فلن تتجاوز مدينة الشمس الحدود التي رسمها لها. ستكون حدود المدينة نهائية. هذا ما فرضه آتون.

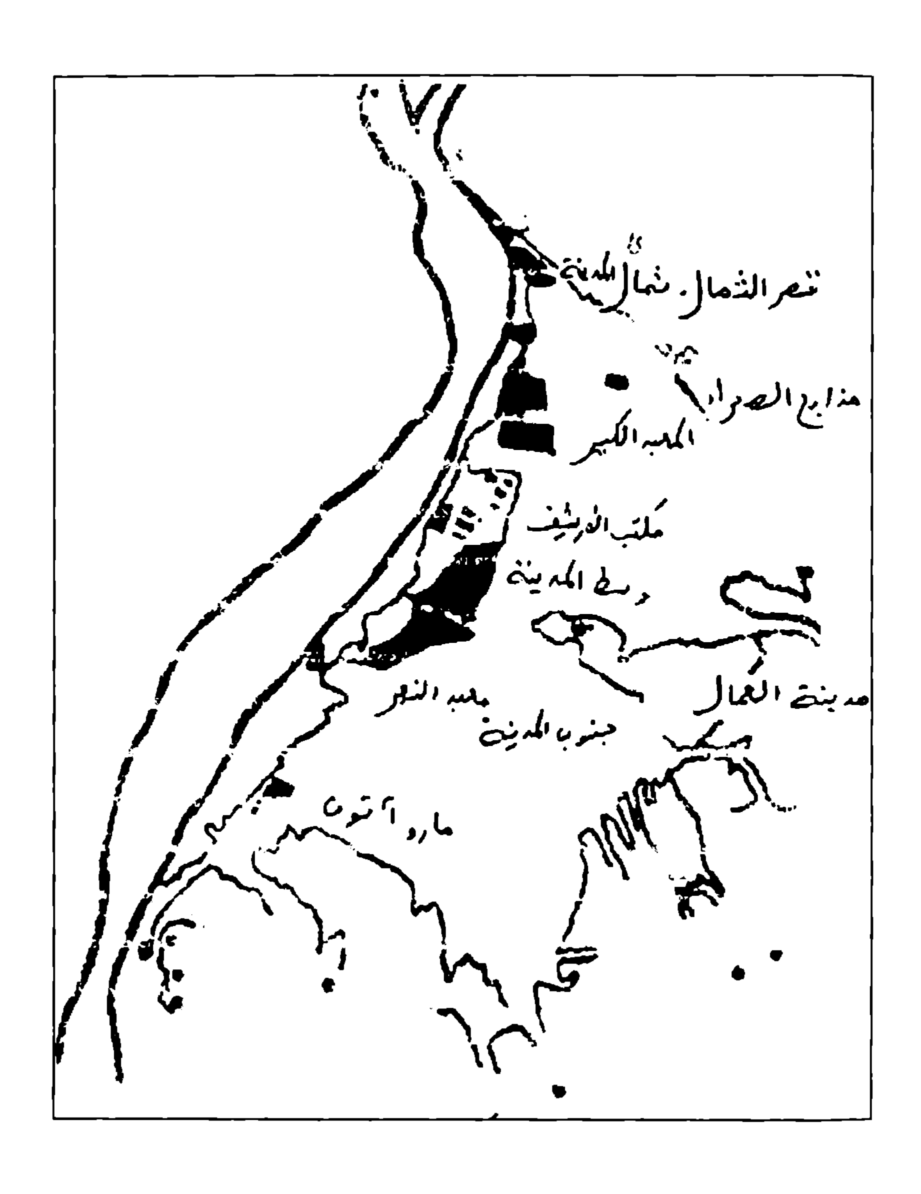
وفي هذه الفترة، شرع في تشييد المدافن الملكية والمقابر الخاصة، ومن بينها مقابر آي، والمربية تي.

وعند نهاية هذه السنة، بلغ إنجاز المشاريع، وتصاميم الملك مرحلة حاسمة، فقد وضع الجزء الأهم من المدينة، ومركزها الإداري، وكان قد شيّد جزء كبير. كانت نموذجية، هذا ما كانت عليه هذه المدينة، إذا أردت فهم ذلك، وقد رسمت لها رسماً، وأطلب عفوك مقدماً، فأنا فنان متواضع.

انظر جيداً... فالمنطقة الحضرية تقع في الضفة اليمنى للنهر، وفي هذا المكان المقفر الواسع الذي وصفته في رسالتي السابقة، وكما يمكن أن تتحقق من ذلك، فالمدينة لا تشغل إلا حيزاً صغيراً من المكان الذي حددته اللوحات الحدودية، والبوابة الشمالية الكبرى تفتح على ممر لثلاث طرق رئيسية وفرعية. الطريق الملكية المحاذية للنيل، وطريق الكاهن الكبير، وطريق العمال التي تحاذي السفوح.

هناك ثلاثة أحياء رئيسية. الحي المركزي، وحيي الشمال والجنوب. في الشمال، يمكنك أن تلاحظ الهيكل الكبير والمعابد الصغرى، وبير آتون أو «دار آتون»، وهو اسم غير سليم، ففي الحقيقة فهذا «المعبد الصغير» كان كبيراً مثل جمب آتون المشيّد في طيبة في داخل جداره المقدس. كانت البنايات معدة من قبل الملك نفسه.

وللوصول إلى قلب المعبد، كان على نيفرتيتي أن تعبر مجموعة من الساحات، وأعمدة الهياكل، وكلها مكشوفة بلا سقف، وموجهة إلى الشرق. وهو ما يمكّن الشمس من نشر أشعتها التي تخلت عنها. وبعد اجتياز البوابة الكبرى إلى القاعة الكبرى، وهي جمب آتون. ومن جانب آخر، كان يوجد هناك بير هاي أي «بيت المتع».



قصر الشمال . شمال المدينة
مذابح الصحراء
المعبد الكبير
مكتب الأرشيف
وسط المدينة
مدينة العمال
معبد النهر
جنوب المدينة
مارو آتون

ومن هنا، يتوجب على الملكة أيضاً قطع مسافة طويلة قبل الوصول إلى قلب المحراب حيث تنتظرها رؤية فاتنة، فعلى يسار ويمين الطريق المقدسة قسم ثلاث مئة وخمسة وستون محراباً من الطوب الصلب. كل واحد لكل يوم في السنة. وفي الطرف القصي يمكن رؤية قاعة كبرى أخرى. وبين الأعمدة الضخمة، حيث تشكل قمتها حزمة من البردي تنتصب أربعة تماثيل للفرعون.

في شمال المعبد المدمج في الجدار الضخم لمحيط المعبد يوجد الرواق الذي تستقبل فيه نيفرتيتي وأخناتون قبائل البلاد الأجنبية.

وأبعد من ذلك قليلاً، ناحية الشرق، تمتد طريق الكاهن الكبير المحفوفة بفيلات أنيقة، وهي مساكن الأثرياء، والموظفين. وكانت أشغال بناء آخت آتون قد بدأت في الجزء الجنوبي لهذه المدينة. وهنا أيضاً، يوجد البيت الذي يسكنه، وورشات النحّات تحوتمس، والذي سنعاود الحديث عنه.

وكلما ازدادت المدينة كبراً، إلا ويهرع الناس إلى آخت آتون، تجّار وحرفيون وموظفون صغار في الوظيفة العمومية، كلهم استقروا في الضاحية الشمالية، وعدا الإقامة الفخمة لحاتاي، مراقب الأشغال التي شيّدها، لم تكن هناك إلا بيوت متواضعة. وكانت قد حفرت هناك قناة لنقل القمح والجاودار[١].

وتم تشييد أيضاً «حوت بن بن» أو «مقر حجر بن بن»، في طرف شارع محاط بأبي الهول الذي يحميها من التأثيرات المعادية. وكان

---

(١) نوع من القمح (المترجم).

المكان المخصص للقرابين مكوناً من منصة مرتفعة مشكلة من سلم ودرابزين. كانت متموقعة أمام حجرة من الكوارتز قرب تمثال نصفي هائل للملك. ولم تكن حجرة بن بن ممثلة بمسلة، ولكن بصفيحة كبيرة منعزلة منحوتة هي أيضاً بالكوارتز. وتتضمن هذه المنطقة الشمالية أيضاً محراباً صغيراً وما لا يعد من الحدائق، ومن بينها حدائق الطيور، وحدائق الحيوانات المجلوبة من البلاد الأجنبية.

وكانت الطريق الملكية تربط كل هذه البنايات الرسمية إضافة إلى المناطق السكنية، وهو مكان لمرور المواكب الملكية التي تنطلق من الشمال بحدود القصر، وتنزل في خط مستقيم حتى قلب المدينة، وهي توصل ما بين الآثار حتى معبد آتون الصغير، وهي عمودية على النهر، ويعبرها جسر، وتمكن من الاتصال بالقصر الواقع على رابية، وبيت المال، ومكتب الأرشيف[1]، والمنطقة الغربية على يمين الجسر.

وكان قصر الشمال مخصصاً لميريت آتون، كبرى البنات الملكية، وكان يتواجد حول بحيرة عظيمة، وكان كل شيء يضم ساحة تطل على السماء، مزينة بمحارب مخصصة لتمجيد آتون. وحجرة مجهزة ببساط يشكل مكتب قاعة العرش، ومساكن خاصة بما فيها قاعة الصحة. وكان هناك بيت للطيور، وحظائر مهيأة بمعالف من الحجر.

وكانت غرفة الأميرة مزينة برسم بديع من البردي لدغل تسكنه طيور برية. تحفة خالصة.

وتمتد المنطقة الوسطى على جانبها الشرقي مع قصر آتون،

---

(١) هنا بالضبط اكتشفت اللوحات التي تسمى بلوحات تل العمارنة.

والمخازن المصنوعة من الآجر الصلب. والمنطقة الجنوبية التي كانت سكنية في جزئها الأكبر، تحتضن المساكن الكبرى للموظفين مثل بارنفر، ومثلي أنا أيضاً.

ويحتوي منزل الملك على شقق خاصة إضافة إلى حديقة داخلية، وجناح مستقل مكون من ست غرف صغيرة، تضم كل واحدة منها كوة مخصصة لسرير. وكان يجمع الحي الجنوبي أكثر بيوت العمارنة فخامة من بينها بيتك يا صديقي كيبر، وبيت الوزير ناخت. وإذا كان مسكنك رفيعاً فإنه يتوجب علي الاعتراف بأن مسكن الوزير كان أكثر رفعة، مطابخ، ومخازن وملحقات ومساكن مخصصة للخدم، وحظائر مخصصة للحيوانات وإصطبلات، ومعبد خاص، وحديقة مسيّجة حيث النباتات المزروعة في طين النيل الخصب، والمروية بماء بئر خاصة. وإذا لم تخنّي الذاكرة، فقد كان الدور الأرضي يضم أزيد من ثلاثين قاعة. واصطفت حوالي عشر غرف في الطابق الثاني حيث يعيش الأطفال، وخدم العائلة. ستقر بأنه مسكن فخم حقاً.

وأخيراً، وفي الشرق، وفي واد ضيق حفر في السفوح، هناك قرية العمال حيث يعيش مَن هناك برفقة زوجاتهم وأبنائهم. ويملك هناك أيضاً المسؤول عن اليد العاملة بيتاً أكبر، وأكثر تهذيباً من بيوت الآخرين.

وعلى عكس المدينة ذات التصميم غير المتزن، فقد كانت القرية منظمة جداً ومحروسة بواسطة جدار. وكان قد خصص لكل عامل مسكن من عشرة أذرع فقط على عشرين ذراع. أكثر من ستين منزلاً مقسمة على ستة صفوف مفصولة بخمسة أزقة. وعندما دخلت العائلات

إلى تلك البيوت كانت هناك الجدران فقط، وأتمّ السكان الأشغال مستعملين الآجر الطيني الجاف. وخارج محيط القرية، شيّدت العائلات معابد صغيرة خاصة حيث لا يمكن الصلاة هناك فقط، ولكنها تعتبر أيضاً أماكن للراحة وتناول الطعام.

تذكر أن غالبية سكان آخت آتون يقطنون دوراً صغيرة مزدحمة فيما بينها، ومبنية بالآجر أو بالطين. في حين خصص الحجر، وأنت تعلم ذلك، لمساكن الآلهة والأموات. وكان بيتي، ومع أنه أقل روعة بكثير من بيتك يا صديقي، مقسماً إلى ثلاثة أقسام. غرف استقبال، وبهو كبير حيث تدعم أعمدة خشبية متعددة الألوان سقفه، وقاعات استقبال مجتمعة أيضاً حول بهو يضم مقعداً واسعاً من طوب على شكل مكتب. وأخيراً وفي الخلف، هناك مسكني الخاص المكون من أربع غرف، وقاعة للراحة، ومقصورة للرفاهية، حيث أثث بمقعد من الكلس مثقوب ومحمول على صندوقين كبيرين من الطوب ومملوءين بالرمل. وبخصوص استحمامي، وكم هذا ضروري لكل مصري، كان لدي حجرة واسعة بأرض مبلطة، وسور صغير، أقف خلفه كيما يتمكن خادمي من صبّ الماء عليّ دون أن أكشف عن عورتي أو عورة زوجتي أمامه. ودهنت كل الجدران بالمونة ناصعة البياض حيث وضعت إفريزات مزينة بباقات من اللوتس. لكن، وللأسف الشديد، فقد أحيل كل هذا إلى خراب ونامت رمال الصحراء على الأسرة والمقاعد، وغدت حديقتي جافة، وما من وردة تنبت فيها.

وتمتد مدينة الأفق.هكذا من اللوحة الحدودية الجنوبية إلى اللوحة الحدودية الشمالية للجبل الشرقي لآخت آتون، ومن اللوحة الحدودية

الجنوبية الغربية لآخت آتون إلى اللوحة الحدودية الشمالية الغربية للجبل الشرقي، وعلى مساحة ست إيتيرو[1] وثلاثة أرباع خيت وأربعة أذرع.

وعند نهاية هذه السنة السادسة، غادرنا طيبة لنستقر بآخت آتون. لم يسجل هذا الرحيل أي تذمر أو أي حركة احتجاج أو حتى ثورة. ويوماً بعد يوم، وعند رؤية الساحة كان هناك الموظفون وعائلاتهم يتبعون الفرعون بكل خضوع وانقياد إلى منفاه.

مدينة رأيناها تبسط تحت عيوننا. ولدت مدينة في روح شاب حكم عليه الجميع أنه ضعيف ومتردد، ومدينة نبيلة بحدائقها ومآثرها، ومعابدها المفتوحة على الأفق.

وكما يمكنك أن تتأكد يا أخي، فحلم رجل واحد أضحى حقيقة للجميع. إقدام جميل. ألا ترى أنه شجاع؟.

---

(١) حوالي ١٢ كيلومتراً.

من كيبر إلى أنوكيس

حقيقة، أنها كانت شجاعة جميلة، لكن إسمح لي أن أوضح لك أن الأشياء لم تكن وردية كما تصورها أنت. . فالنار كانت ترقد في الأسفل، وكان غضب الكلاب يكبر. فقد سمعت نباحهم في الخلوات المعتمة لمعابد طيبة. كسر سلطة كهنة آمون! وإبعاد أكلة الخيزران إلى الصف الثاني! هل تظن أنهم عاشوا هذه التقلبات دون عبوس؟ وبدون خوف؟ ومتنازلين؟ لا يا صديقي. لم يستسيغوا فكرة أن تهتز مصالحهم، وأن يعلموا أن الثروات الرئيسية ستتحول عن مخازن أموالهم لتسقط في صناديق آتون. لا تنس أن من يمس المركز الاقتصادي لبلد ما، يمس امتيازات الأقوياء. لكن، وأنت تعلم هذا أكثر مني، الكرنك كان هذا المركز. وإذا كانت هذه الثروات تعود إلى الفرعون فإن الكهنة هم من كان يديرها. ومع ولادة عاصمة جديدة، أضحى زمام التحكم يفلت من أياديهم. فكيف لهم إذن ألا ينفجروا، وألا يحلموا بمؤامرة؟ أعلمت أكثر من مرة بما يدبر من دسائس؟ وعندما كنت أعلم الفرعون بها، كان يبدو مجروحاً، وجرحه، وكنا شهوداً على ذلك، أخذ يتحول إلى غضب.

لكن قبل الغضب، وعلى عتبات السنة الثامنة، أبدى الفرعون إرادته في تجديد القسم الذي أداه سنتين قبل ذلك. هل تساءلت لمَ فعل ذلك؟ لأنه وأمام التوتر المتزايد الذي أخذ يستشعره من خلف جدران آخت آتون، أراد أن يؤكد بقوة، وعلناً، أن لا قوة في العالم تستطيع زحزحته عن إيمانه أو التشكيك فيه. رسالة وجهها إلى كل أولئك الذين أرادوا التأثير عليه بالكلمات أو بالقوة. نعم، لا تنتفض. فهذا ما كتبته بالضبط. بـ«القوة».

فبعض الجنرالات الذين كانوا إلى وقت قريب يفكرون في ذلك دون امتلاك الشجاعة للمرور إلى الفعل، ألهمهم كهنة آمون. وكانوا على استعداد للمجازفة بالقيام بهذا الأمر الذي لم يجرؤ أحد قبلهم على القيام به في السابق.

وفي سياق مختلف، هل يمكنك أن تكتب كلمة لنارمر ابني؟ ففي سن الثلاثين، هو ذا يقرر أن يتخلى عن مهنته ككاتب! ليفعل ماذا؟ افتح أذنيك جيداً. يود أن ينخرط في صياغة الذهب. يا له من انتهاك! الأفضل له أن يكون كاتباً على الخشب. هل تذكر ما كتبه أحد الشعراء: لم أر أبداً نحاتاً في سفارة، أو سباكاً يقوم بمهمة، ولكنني رأيت دوماً حداداً في عمله أمام لهب الفرن. أصابعه مثل جلد تمساح، ورائحته أنتن من بيض السمك! نعلم كلانا أنه ما من مهنة تستوجب احترامنا عدا مهنة كاتب أو طبيب. كيف يمكن تجاهل الطريقة التي يستخرج بها الذهب من المناجم؟ والعمل على هذا الذهب، مثل وضع اليدين في الدم. تخيل أولئك المساجين الذين يعملون في مناجم كوبتوس أو نوبة. الآلاف من المساكين الذين تسحقهم حرارة ألف شمس، عراة

ومصفدين، ومحروسين من قبل جنود لا يفقهون شيئاً من لغتهم، ماسكين بعصي المراقبين، يدفعون حتى المرضى منهم والنساء والشيوخ إلى العمل! الموت أمنيتهم الوحيدة للخلاص! عندما أتخيل أن ابني يرغب في العمل على هذا المعدن المنحدر من لحم الأموات، تتملكني الرغبة في إنكاره. كيف لا أفكر في ذلك في وضعه، إذا ما أراد أن ينتقل بمشاريعه إلى طور التنفيذ؟

كنت حاضراً عندما تقدم رئيس الفنون في أحد الأيام إلى بويم رع القذر، والذي، أعيد تذكيرك بهذا، أنه كان نبي آمون الثاني، والمدير العام للأشغال في المعبد. اكتفى بإلقاء نظرة زائغة على سلال القرابين المليئة بالأساور والقلائد، والعقود، والتي صنعها الحرفيون بقوة العرق. مرؤوسه الذي نسيت اسمه، همس بنبرة محابية، تقطر عسلا: «يا بويم رع. قلبك سعيد بما يحدث لك»، ولكن بويم رع لم يقل كلاماً جيداً، ولا كلمة تشجيع واحدة من أجل العمل المقدم. يا له من ظلم للنُحّات، وللنُقّاش وللفنانين التعساء. مجهولون يعيشون، ومجهولون ينطفئون. هل هذا المصير الحقير هو الذي يريده ابني؟ قل لي، قل لي إنه فقد صوابه!

من أنوكيس إلى كيبر

إهدأ! تتصرف كشيخ خرف! عش ودعه يعيش. فابنك يبلغ ثلاثين سنة! أنت لم تلده ليصير ملكك، وليعيش حياتك كما تتصورها أنت. هل اكتشف أن لديه مواهب فنان؟ فليكن، دعه حراً في اتباع الطريق التي ألهمه بها قلبه. ثم كن لطيفاً، وتوقف عن ذرف الدموع على العمال في نوبة أو في مكان آخر! لا أعتقد في أي من هذا الكلام. ما الذي يمكن قوله إذن عن الآلاف من الرجال الذين نستخدمهم منذ عدة مواسم لحمل حجارتنا وتشييد معابدنا ومآثرنا؟ وكالعادة، فأنت تعلن عن سوء نية. فبعض فنانينا حظي باعتراف أسيادهم.

تذكر التقدير الذي خصّ به الفرعون، وخاصة نيفرتيتي، تحوتمس، هذا النحات العظيم. أغرقته الملكة التي كرست له إعجاباً غير محدود، بالهدايا وبفضلها عرف حياة سعيدة.

هيا. عد إلى رشدك، ومد يدك إلى ابنك.

نسيت أن أضيف إلى وصفي للمدينة الجديدة، حفيف الأروقة والأصوات المشؤومة، فلا شك أن الأحداث الخطيرة التي ستعرفها السنة الحادية عشرة كان مصدرها تصرف كهنة آمون. ولكن فلنتئد. . .

فنحن في السنة الثامنة.

وولد لنيفرتيتي والملك مولود رابع. أنثى. واحدة أخرى، أطلق عليها اسم نيفر نيفرو آتون. الإسم نفسه للملكة. وبدا أن تيي كسرت مزهرية أخرى. ولكن هناك ربما ما هو أكثر أهمية من هذه الولادة.

أتذكر ذلك كما لو أنه حدث بالأمس فقط. فقد كان «من أحببت» يتواجد بمارو آتون بين النهر والصحراء. فهناك وتحت طلبه التحقت به منفذاً أمره. حياني بابتسامة مؤثرة. كانت سيماؤه مشرقة، وتفاصيل وجهه التي يحكم عليها أكثر من واحد بأنها شنيعة اختفت فجأة، وكان وجهه ناعماً يلمع فيه الشباب منتصراً. وكان جالساً على صفيحة من الكلس، ويمسك بورقة بردي. دعاني للجلوس قربه، ثم قال:

ـ اسمع... اسمع الكلمات التي ألهمني بها إلهي.

لم تحتفظ ذاكرتي بشيء، ولكن بالمقابل، أعيد نشر كل ما قاله الفرعون بأمره، وحفر على ثلاثة عشر عموداً على الكوة الغربية من باب قبر أب الإله آي. إليك أهمّ ما جاء فيها:

«أنت تبزغ ببهائك في أفق السماء. آيا قرص الشمس الحي، ومصدر الحياة، حين تشرق من الأفق، تملأ الأرض ببهائك، تحيط أشعتك بالأرض حتى نهاية ما خلقته، ومع أنك حاضر في عيونهم، فإن الناس لا يعرفون طريقك. حين تغيب تغرق الأرض في العتمة كأنها ميتة، وينام الناس في حجراتهم، مغطين رؤوسهم، ولا تبصر عينٌ بأخرى، ويمكن أن تسرق ممتلكاتهم التي هي تحت رؤوسهم دون أن يُحسوا، وتخرج الأسود من عرائنها

والثعابين من جحورها، وتغرق الأرض في الصمت، لأن خالقها في يستريح في أفقه، ثم إن الأرض تنير حين تشرق في الأفق، وتضيء نهاراً، وتطرد الظلمة وتنشر أشعتك.

الأرضان في عيد كل يوم، ويستفيق الناس ويقفون على أقدامهم، لأنك جعلتهم يستيقظون، وتينع الأشجار والنباتات، وتغادر الطيور أعشاشها محلقة بأجنحتها تعبداً لك، وتشرع في الحركة على قوائمها كل مخلوقات البرية، ويبدأ في الحياة كل ما يطير أو يحط عندما تشرق من أجلهم، حتى السفن الصاعدة والمنحدرة في التيار، ويُفتح كل طريق لأنك أشرقت، وتثب الحيوانات في البرية، والأسماك من أعماق النهر تقصدك وتقفز لتحييك. تنفذ أشعتك حتى العمق الأخضر، وتتعهد بتطوير الجنين عند النساء، وتحدث البذرة لدى الرجال، وتجعل الوليد يحيا في حضن أمه، وتخفف من بكائه، وتحضنه حتى في الرحم، مانحة النفس لتكفل الحياة لكل مخلوق. وحين ينزل من الرحم ليتنفس في يوم مولده، تشرع فمه بالكامل وتلبي حاجاته، وحين يكون الفرخ بعد في لحاء بيضته، تمنحه نفساً ليحيا، وحين تشكّله تماماً داخل البيضة لحين تمكنه من فقسها، يخرج من البيضة ويمشي على رجليه.

ما أوفر أعمالك حتى ما خفي منها علينا. أيها الإله الواحد الذي لا نظير له، خلقت الأرض بحسب قلبك، والناس والمواشي والحيوانات المتوحشة، وكل ما يحيا على الأرض وكل ما في الأعالي. خلقت بلاد سورية وكوش

وأرض مصر، خلقت النيل في العالم السفلي، وتحركه بحسب اشتهائك، ليحفظ أهل مصر بحسب ما خططت لهم، لأنك سيدهم المطلق (. . .) أنت في قلبي، ولا أحد يعرفك غير ابنك نفر خيبرو رع ون رع، الذي أعلمته بخططك وقوتك. تأتي الأرض إلى الوجود على يدك كما خلقتها، تشرق فيعيش الناس وتغرب فيموتون، أنت ميقات الحياة وبك يُحيا، تتملى الأعين ببهائك دون توقف حتى تغيب. (. . .).

عند انتهائه من قراءته، وضع الفرعون عينيه علي، ثم قال:

ـ هل تفهم الآن ما حملت وما أحمل داخلي؟

هززت رأسي مضطرباً. النيل والصحراء وحياتي ومعتقداتي. . . امتزج الكل في هذه الزوبعة التي ولّدها هذا النشيد في بطني وفي قلبي. لم أسمع طيلة حياتي أبداً شيئاً مؤثراً كذلك. الإله، إله واحد. إله خالق. دون عنف. دون عقاب. إله من نور.

سألت الفرعون:

ـ ما الذي سيحدث بالآلهة الأخرى؟

ـ لا وجود لإله أعظم من آتون.

ترددت فقلت وبعض الحيرة تتملكني:

ـ بالنسبة لك يا سيدي. ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لشعبك. . .

قاطعني قائلاً:

ـ ليست لي أي نية في فرض إيماني بالعنف أو بالإكراه. مع الوقت سيفرض إيماني من تلقاء ذاته. أضع أملي في الشباب، ففيه يظهر ربيع العالم. ويوماً بعد يوم، سيطفو شعاع آتون من أحشاء المدينة ليغمر كل مصر والعالم. غداً، في وقت لاحق، ستأتي الساعة وتختفي كل الآلهة المزعومة ويبقى آتون.

«أنت ميقات الحياة وبك يُحيا!».

ترى يا صديقي كيبر، فقد مرت السنون، وابيض شعر رأسي على قلته، ولكني ما أزال أسمع هذه الجملة دائماً. لم تفارقني أبداً. أجرؤ على الاعتراف الآن، وأنا أعلم أنه ما من هاوية تترصدني بعد موتي، أن فرعوني كان «ميقات حياتي، وقد حييت به».

إلى اللقاء، فقد تبللت عيناي وأخشى أن تفاجئني زوجتي...

القاهرة

علق لوكاس بنصف ابتسامة قائلاً:

ـ لو لم أكن أعرف أن هذه المراسلة ملفقة لكنت وجدتها مؤثرة.

ـ يبقى أن نعرف أنها ملفقة...

وأشارت بسبابتها إلى إحدى الفقرات، ثم قالت:

ـ تجعلني قراءة هذا النشيد أفكر فجأة بصديقك الأرميني ونظرياته. كيف لا يمكن التفكير في مزمور ١٠٤؟

نقرت على لوحة مفاتيح الحاسوب، ليظهر نص، لتضيف:

ـ لقد اهتممت بالأمر من قبل، واستخرجت الفقرات التي تبدو لي أنها تتماشى مع النشيد.

وضعت أصبعها على الشاشة مجدداً قائلة:

ـ انظر.

الآيات من ٢٠ إلى ٢٤

تجعل ظلمة فيصير ليل. فيه يدبّ كل حيوان الوعر.

الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها.

تشرق الشمس فتجتمع وفي مآويها تربض.

الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء.

ما أعظم أعمالك يا رب. كلها بحكمة صنعت. ملآنة الارض من غناك.

الآيات من ٢٧ إلى ٣٠

كلها إياك تترجى لترزقها قوتها في حينه.

تعطيها فتلتقط. تفتح يدك فتشبع خيراً.

تحجب وجهك فترتاع. تنزع أرواحها فتموت وإلى ترابها تعود.

ترسل روحك فتخلق. وتجدد وجه الأرض.

ـ هل تعتقد أن الأمر يتعلق بمصادفة؟

ـ أعتقد أن الكائنات البشرية لم تتوقف أبداً عن البحث عن خالقها، وأنهم يتبنون دائماً اللسان نفسه تقريباً بتوجههم إلى البراكين أو إلى الصاعقة أو إلى الآلهة. أنا على يقين أننا وإذا ما قمنا بدراسة معمقة للنصوص المقدسة سواء أكانت عند الإنكا أو في بلاد ما بين النهرين أو الهندية أو الهندوسية أو الصينية، فسنجد حتماً أن لها الصيغ نفسها أو الروح نفسها على الأقل.

ـ ولكن هذا لا يمنع من أن النشيد محيّر. إسمع «أنت في قلبي ولا أحد يعرفك عدا ابنك نيفر خيبرو رع ون رع، لأنك أعلمته بمشاريعك وقوتك». لدينا الانطباع أننا نسمع عيسى يحدثنا عن «أبيه الذي في

السماء». فجأة، يربط إنسان علاقات متميزة مع الخالق. وهو يصير ناطقاً باسمه، وحاملاً لواءه، وهو الوحيد الذي يعلم ما يجهله الفانون.

ـ هو ما يمكننا أن نسميه «نصاً موحى»، وفي علم النفس يوصف بالنص الأصلي، وهو يحوي كلمات مختزنة في الذاكرة البشرية.

ـ السؤال الذي يفرض نفسه هو معرفة لماذا؟ لماذا نجح موسى سنوات بعد ذلك، فيما فشل فيه سابقه؟

ـ لأن المجال الذي سيظهر فيه موسى مختلف. ففي البداية، كانت للنبي اليهودي قبيلة واحدة لتحويلها عن معتقدها السابق، بينما كان أمام أخناتون إمبراطورية. لم يكن لموسى من عدو ليحاربه إلا ارتياب قومه. أما أخناتون فكان عليه مجابهة كهنة آمون الأقوياء جداً.

إضافة إلى ذلك، أعلمك أن إله أخناتون الواحد لم تغادر أشعته أسوار مدينة الشمس. عاش آتون على الاكتفاء الذاتي في هذا المجال الصحراوي، وكدليل على ذلك، أنه يؤكد هو نفسه أنه لن يتجاوز أبداً حدود مدينته.

فتحت جوديت يديها قليلاً علامة على تساؤلها، ثم قالت:

ـ وهذا التصرف بالتحديد هو ما لا أفهمه. ما الذي يدفعه إلى تحديد حدود لظهور إلهه؟ لماذا يجبر نفسه على عدم مد آخت آتون خارج حدود معلومة؟ ألا يمكننا تخيل أنه بهذا يطبق اتفاقاً سرياً ربما توصل إليه مع كهنة آمون؟

هز لوكاس رأسه بقوة نافياً:

ـ مستحيل. فكهنة طيبة لم تكن لهم وسيلة لمعارضة إرادة الملك، ولم يكن الكهنة يشكلون معارضة بالمعنى الحديث للكلمة، ولا قادرين

على منع توسع مدينة الشمس أو تشييد أراض جديدة مخصصة لمجد آتون بطريقة أو بأخرى.

ـ ومع ذلك، فمتراسلانا الاثنان يوضحان أن كهنة الكرنك كانوا لا ينظرون إلى هذه التجربة بعين الرضى. بل إنهما يتحدثان عن المؤامرة.

ـ هناك اختلاف كبير بين فعلي «تآمر»، و«عارض». وفي وقت أو في آخر، كان على الكهنة أن يعبروا عن غبنهم، حتى إن الأمر بلغ، وهو أمر غير مستبعد، محاولة اغتيال. ولكن ما كان للمواجهة أن تذهب أبعد. فالفرعون ظل سيد البلاد والمقرر الوحيد فيها.

ـ في هذه الحال، لماذا لم يبحث أخناتون عن نشر فكرته في البلاد كلها؟

قطب لوكاس جبهته، ثم قال حائراً:

ـ أقرّ وبكل تواضع، أني لا أملك جواباً محدداً. يمكن تخيل أنه بتبنيه هذه السياسة أراد وضع حدود في المساحة والزمن لتجربته الشخصية، وما إن يتأكد أن ما كان يأمله من تغيير سيأخذ مكانه في مدينة الأفق، حتى يمكن أن يحدث في البعيد.

رفع كتفيه مقراً:

ـ لا أعلم. كل هذا يظل في الانتظار. فلا يكاد يمر يوم دون أن يكتشف شيء جديد. غداً، أو خلال شهر، ستضاف قطعة جديدة إلى اللغز الكبير.

من كيبر إلى أنوكيس

اتبعت مشورتك بخصوص ابني أن «عش ودعه يعيش». أليس هذا ما أوصيت به؟ وهكذا أفهمته أنه من الآن وصاعداً أنه أضحى حراً باتباع إلهامه الجديد، ومع ذلك، أوضحت له تحديداً أنني حر أيضاً في أن أتمنى ألا أسمع عنه أبداً. هل ارتحت الآن؟ في المرة القادمة، لا تأخذ أمثلة غبية للدفاع عن وضعية الفنانين. ذكرت تحوتمس النحات. أنقل لك ما كتبته بالحرف «أغرقته الملكة التي كرست له إعجاباً غير محدود، بالهدايا وبفضلها عرف حياة سعيدة». آه! يا لك من طفل! ألم تعلم أن تحوتمس المسكين هذا كان مغرماً بنيفرتيتي؟ أنظر مجدداً، ولو قليلاً للتمثال النصفي الذي صنعه لها[1]!، هذا ليس عمل فنان، ولكنه صنيعة عاشق متيم. كان متيماً بالزوجة الملكية الكبرى، ومع أن الملكة لم تكن

---

(١) أخرج من قبل عالم الآثار المصرية الألماني ليدفيك بورشاردت في السادس من كانون الأول لسنة ١٩١٢، و«أغفل» إبلاغ مصلحة الآثار المصرية بما اكتشفه. فتم إخفاء التمثال على المراقبين ليُرحّل إلى ألمانيا حيث سيعرض هناك سنة ١٩٢٢، (مايزال التمثال هناك إلى اليوم). وابتداء من ذلك التاريخ حظرت السلطات المصرية على كل علماء الآثار الألمان القيام بأعمال تنقيب في مصر.

تمنحه أي امتياز إلا أن يحتك خفيفاً من وقت لآخر بظلها. وكان تحوتمس يقتل نفسه في كل مرة تغادر ورشته. هل تعلم كيف انتهى كل هذا؟ أليس كذلك؟

لم ينته من التمثال النصفي، وترك بمحض إرادته محجر العين اليسرى فارغاً! كانت طريقته في الانتقام أن يترك لنا ملكة عوراء!

وإذن، أرجوك ألا تحدثني عن المصير السعيد لبعض الفنانين. أما بخصوص بقية ما ورد في رسالتك. فلا أشعر الآن أني بمزاج لائق للتعليق عليها.

أنوكيس إلى كيبر

لن تتغير بكل تأكيد! كيف تسمح لنفسك أن تبدو جاف الطبع؟ ما الذي كنت تتمناه لابنك؟ أن يكون غاسل أرجل؟ حامل نعل؟ هيا! إذا كان يريد أن ينطلق في صياغة الذهب، فلا تعلن الحرب عليه. فأنت من سيفقده. لا تنس أبداً أنه عندما يعلن أب الحرب على ابنه فإن الإله الواحد يقف دائماً إلى جانب الابن.

أما بخصوص التمثال النصفي لنيفرتيتي فأنت مخطئ. فتحوتمس لم يتركها عوراء بإرادته. أعتقد أنه لم يملك الوقت لإتمامه.

هذا كل شيء. ألم تقسم...

القاهرة

قاطعت جوديت قراءة لوكاس لتسأل:

- هل هذا رأيك أيضاً؟

تأملها عالم الآثار المصرية من فوق نظارته قائلاً:

- تقصدين حالة التمثال النصفي؟

- نعم، مادام أنه لم يكن هناك أي أثر لمادة لاصقة في المحجر الفارغ، ما يعني أن العين لم تفقد.

- لقد قيل حول الموضوع، أشياء أكثر حماقة! وذهب البعض مقترحاً أن الملكة كانت تعاني رمداً خطيراً أو كثافة في غشاء العين وهو ما يقابل المعنى القديم للمرض. وشخصياً، أرى أن التفسير الذي قدمه أنوكيس عادياً، فلسبب أو لآخر لم يتمكن النحات من إتمام التمثال النصفي وهو ما يفسر بالمقابل، عدم وجوده في مدينة الأفق.

- لا أفهمك.

- عندما قرر البلاط الرحيل عن مدينة آتون. من المحتمل أن يكون تحوتمس قد قام بمثل ما يمكن أن يقوم به أي فنان آخر في مكانه، وهو

حمل الأعمال التي يحرص عليها، ويترك الأخرى التي لم يستطع إتمامها أو الأعمال التالفة. وبالنظر إلى أنه وفي الورشة نفسها، وجد عالم الآثار المصرية الألماني بورشاردت، التمثال النصفي المشهور. كيف لا يمكن استخلاص أنه ينتمي إلى الأعمال غير المنتهية؟ هذا لا ينقص شيئاً من عظمة تلك القطعة الفريدة.

أكدت جوديت:

ـ هذا صحيح. عندما أفكر أن متحف برلين حيث يتواجد حالياً، لم يجد أكثر أصالة من إضافة جسد عار إلى رأس نيفرتيتي...

عقد لوكاس حاجبيه، ثم قال متفاجئاً:

ـ لست جادة في ما تقولين؟ لا علم لي بهذه القضية.

ـ هذا حديث جداً، فقد طلب محافظ المتحف من فنانين هنغاريين إنجاز تمثال من النحاس حيث وضع الرأس الكلسي للملكة[1]، تخيل قليلاً ردة فعل علماء الآثار المصريين!

لم يستطع لوكاس تمالك نفسه فأطلق ضحكة ثم قال:

ـ إذا أردت رأيي، فالباحث الألماني لم يستسغ منعه من التنقيب بعد تقارير الشرطة التي أشارت إلى صلاته المحتملة مع تجّار الآثار.

ـ من يعرف! ربما لأن المصريين لا يقبلون أبداً أن تسلب نيفرتيتي.

---

(١) في السابع من شهر حزيران لسنة ٢٠٠٣ طالب وزير الثقافة المصري فاروق حسني الاسترجاع الفوري للتمثال النصفي. وأخطرت اليونيسكو بهذا «انتهاك الأخلاق العلمية».

من أنوكيس إلى كيبر

. . . لم تحكم بأنه من المفيد مناقشة رسالتي الأخيرة؟ لايهم. سأتابع آملاً أن تجد هذه الرسالة في بيتك جواً أكثر ترحيباً.

هل تذكر يا كيبر، كم كان العيش جميلاً في مدينة أفق آتون. كنا كالمعزولين عن العالم، وعن مصر التي استمرت في التحرك. أشك إن عرف قرويو الوادي بوجود العاصمة الجديدة وأحلام فرعونها. أما أولئك الذين أعلموا، فقد كانوا منقسمين ما بين الريبة والرفض. فمن يكون إذن هذا الإله الذي أراد فجأة أن يحل محل آلهة أجدادنا؟ من يكون هذا الإله الذي يظهر ازدراءه للوصفات السحرية ومملكة الأموات؟ في الواقع، من القوة الاعتراف بأن غالبية الشعب العظمى كانت ما تزال مستمرة في ممارسة عبادتها بحسب اعتقادها. بالمقابل، وفي قلب مدينة الأفق، وعلى بعد خطوات فقط من قصر الفرعون، كان البعض يصلي لبات! سراً، وآخرون للإلهة هيكيت! بل إن هناك من كان يصلي لآمون نفسه. فمن الصعب جداً خلخلة التقاليد يا صديقي، خاصة عند صغار الناس المتشبثين بجذورهم. في العمق، كيف يمكن أن يكون الأمر غير ذلك؟ فالفرعون يعيش والملكة وأبناءهما في مزهرية

مسيّجة. وإذا كان أخناتون ينشر تعاليمه كل يوم بحرارة وحماس، فإنه كان منفياً في المدينة.

كنا ننصت لتعاليمه كما كان يتمنى «بالقلب». ومن بيننا جميعاً، كان معاي، الكاتب الملكي وحامل الأختام الملكية في اعتقادي، الأكثر إسهاباً في التمجيد. كان يعلن «اسمعوا ما أقوله! لأني أخبركم بما خصني به السيد من إحسان. وأنتم تقولون كم هي عظيمة الأشياء التي فعلت من أجل هذا الرجل المعدم! لم أكن شيئاً، ولكن الأمير مكنني. وسمح لي أن أكبر، حصل لي هذا، أنا الذي كنت أتسول الخبز».

للأسف، فعدا أتباعه من كان يود أن يسمع هذه الأشياء؟ آتون وابنه المختار لم يحكما إلا مربعاً في الصحراء. في الحقيقة، كان علي أن أكتب، آتون وابنه و«من كانت تريح آتون بصوتها الناعم، ويديها الجميلتين»، نيفرتيتي، لأنه ومنذ أن أقمنا في «أفق القرص»، ازدادت أهمية الملكة. فالأعمال الدينية التي كانت تقوم بها يومياً أضحت كثيرة، فقد كانت تحضر كل المراسم، وكانت مكلفة بـ«بيت راحة آتون»، وتدير بحب كهنة النساء. ولم تكن في عيني الفرعون ملكته فقط، ولكن أيضاً إلهته، وبالتالي فقد كانت كذلك بالنسبة لكل سكان المدينة. فملكة «الأرضين» كانت على نفس قدر رع، الواحد، وزوجها دائماً وأبداً. كانت نيفرتيتي تشبه إيزيس ونيفتيس وحاتور وتيفنوت وكل الآلهات الأنثوية المحفورة في ذاكرتنا. كانت سلطتها عظيمة. دائماً أقل من سلطة زوجها بطبيعة الحال، ولكنها تقاربها. تقاربها جداً. ما أزال أراها في ذاك اليوم الذي ظهرت فيه برفقة الفرعون من شرفة الظهور. كنا خاضعين جميعاً، ليس لجمالها الذي لا يقارن، ولكن لتاج آتيف الذي

كان يزين رأسها. فهذا التاج الأبيض، والذي قسم قليلاً في قمته لاستقبال شمس صغيرة وريشتي نعامة، كان يحوي سحراً مريعاً. في كل تاريخ أرضنا، لم يسمح لامرأة أبداً، عدا حتشبسوت العظيمة، أن تحمل تاجاً مماثلاً. لكن حتشبسوت كانت فرعوناً!

وتستمر ساعة الزمن الرملية في السيلان، وفي منتصف السنة الحادية عشرة، ازداد خامس مواليد الزوج الملكي. أنثى أيضاً! وتحركت الألسن بدورها، ولم تبد تيي هذه المرة أي ردة فعل. أعتقد أنها استسلمت. وأطلق على المولود اسم نفر نفرو رع. فنزوع نيفرتيتي إلى وضع الإناث فقط إلى هذا العالم فاجأني. وكان من الممكن أن ينتظر من هذه المرأة التي ومن خلال بعض سيماتها التي تمثل الرجولة أكثر من بعض الرجال، أن تضع مواليد ذكراناً. لا، فالخطأ ربما يعود لزوجها، فأنوثة الفرعون كانت تنتصر على ذكورة زوجته.

إلى هنا، أستأذنك صديقي كبير. فلتجدك هذه الرسالة بمزاج أفضل وصحة جيدة.

من كيبر إلى أنوكيس

صحتي؟ لنتحدث عنها! مزاجي معكر. والطبيب الذي استدعيته وبّخني بقسوة. يبدو أني أبالغ في استهلاك الجعة والنبيذ، وبرأيه علي أن أتوقف عن الشرب. كل الأطباء يمنعونني من فعل ذلك. سألته قائلاً «لماذا أفرض على نفسي هذه التضحية؟» فرد علي «لتعيش أكثر»، فقلت له «هل يمكنك أن تضمن لي أني سأعيش أكثر؟». وظهرت ابتسامة حزينة على نقطة اتصال شفتيه، تنهد ثم قال «ليست مثل تلك الحالة التي يمكن للمرء أن يسيطر عليها، لكن العالم مسيطر عليه. لا، للأسف، ليست لي هذه السلطة»، ليضيف «لكن الحياة تبدو لك بكل تأكيد أكثر طولاً». يعرف الطبيب كيف يمزح، ومزاحه مر.

هذه المرة، قرأتك وأعدت القراءة، ولم أجد شيئاً مهماً لأقوله، وليست الرغبة ما ينقصني. أقدر لك أيضاً أنك لا تمنح دور الملكة ما يكفي من قيمة. كانت الجميلة دائمة الحضور. وكانت وزوجها لا يكادان يفترقان. كان يستسلم في العلن لمظاهر الحب، والتي من جانبي، أراها مبالغاً فيها. كنا نتمنى احتشاماً أكثر من طرف الزوج الملكي، وينبغي أيضاً إضافة البنات، فقد كن بتمثيل ثابت. فعندما كان

يظهر الفرعون، كنا نعلم أن ذريته ليست بعيدة تماماً. ليس لي صبر كبير على الأولاد، وأقل للبنات، وخاصة عندما يكنّ صغيرات جداً. فهناك صراخ، وحركة دائمة في كل اتجاه. في النهاية. . . فنسل الزوج الملكي كان محتملاً نسبياً، حتى إني كنت أحس ببعض الحنان للصغيرة عنخس إن با آتون. ولم أشك أبداً أنها ستنتهي في أحضان هذا الغبي توت عنخ آمون. فلتقتلع أوزيريس لسانه! انقلب في وقت أقل مما لزم هذا الفاسق حور محب لقول ذلك. يستحيل الدخول في طرقات آتون.

كنت مصيباً عندما أشرت إلى أننا نعيش الاكتفاء الذاتي، وأن هيمنة إله الفرعون تتوقف عند اللوحات الحدودية. يكفي أن تتذكر أنه ولمسافة يوم واحد على متن حصان من مدينة القرص استمر ماحو حاكم مدينة نفروسي[1] في لامبالاته، مضحياً للآلهة التقليديين. لكنه خطأ من؟ فقد اكتفى الفرعون بغمرنا بخطبه الجميلة وأحاسيسه النبيلة. التسامح والسلام والحب. الحب والتسامح والسلام. كان يمجّ أسماعنا بهذه الكلمات لسنوات عديدة. هل تعتقد أنه يمكن فرض تحولات عميقة ودائمة بهذه القواعد فقط؟ وكدليل على ذلك فقد أخذت الأمور تتحرك على حدود مصر، وصرنا أقل احتراماً، وبدأ التابعون لنا يأخذون بعض الحرية، وشرعت أنظار أعدائنا تتجه نحو فتوحاتنا، وأداء الإتاوات صار أقل انتظاماً. وكان عاهلنا الذي منح نفسه لمصيره الألوهي، غير مهتم بالعالم الأرضي الذي كان على الرغم من ذلك، يستمر في العيش. وكانت لامبالاته معدية، وانتشرت حتى في جسد الدولة. لم نكن نشعر بها كذلك، ولكن العاصفة كانت تكبر لتدوي حوالي السنة

---

(١) كانت المدينة تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً من المدينة الشمسية، شمال هيرموبوليس.

التاسعة. وإذا كانت ذاكرتي مخلصة، ففي هذا الوقت، فرض الفرعون اسماً جديداً لآتون، «رع يعيش، رافد النور الذي يبتهج في منطقة النور باسمه، رع الأب الذي أتى على شكل آتون». لم تكن هناك أي إشارة إلى حور آختي الإله الشمسي، ذي رأس الصقر أو إلى شو إله الهواء المشعّ، فوحده رع الذي يعيش إلى جوار آتون.

ولكن، لم يكن هنا الاضطراب الكبير. فكأن أحدهم أقسم بأن ترتفع كل العواصف الرملية مرة واحدة لتضرب البلادين، ووجدتني في قلب العاصفة لأني كنت مطالباً بتطبيق أوامر الفرعون. حدث هذا في الشهر الأول من موسم شمو. كان الجو حاراً والرمال حارقة، والكثبان تشتعل، وضباب كثيف ينتشر على سطح النيل وفوق مدينة الأفق. عندما استدعاني الفرعون، كانت الشمس بالكاد تظهر في درجات الشرق. استقبلني واقفاً وهي حالة نادرة. لم أره أبداً كذلك. كان مصفر الوجه، ولا ينطق كلمة. وكان يزأر. ثم هدر:

- اضربوا كل التماثيل! اكسروا كل المجسمات! حطموا كل الصور الجدارية! ابتداء من اليوم، لا أريد أن يوجد أثر لآمون. لا شيء منه! آمون إله بدين جداً، وفاسد جداً ليستمر في العيش إلى جانبي. لا مكان له هنا بعد في الوادي. فلتنزل عليه اللعنة! ملعون آمون!

شيء غريب. فبينما كان يتكلم، لمحت الملكة تيي، شبه مختبئة خلف عمود، ترقبنا في صمت. كنت متأكداً أنها متفقة مع كلام ابنها.

ومنذ غد ذلك اليوم، كان غضب الفرعون يصب في الطرقات ومعابد البلادين. وانطلق المنادون في الساحات، والحدائق معلنين أن آمون لم يكن إلهاً حقيقياً، وأن الوقت قد حان لتدميره بالكامل. في

الوقت نفسه، كان العمال المرسلون إلى البلاد العليا والسفلى قد شرعوا في مهمتهم التدميرية. وقد فعلوا ما أمر به الفرعون. ضربت كل الأماكن التي حوت اسم آمون. وفي الأيام والأسابيع التي أعقبت ذلك، نقلت أراضي آمون، والمواشي والعبيد والذهب والفضة لفائدة الإله الواحد. وكان هناك بعض المقاومة أبداها كهنة طيبة، ولكنها غير ذات معنى حد أنها لا تستحق منا أن ندخلها في تفاصيل ما حدث. ويوماً بعد يوم، تتابعت أعمال الاستئصال، حتى الجعارين التذكارية لم تسلم من ذلك، أو العلامة التي تهم كتابة «الآلهة». سأذكر تلك الساعات ما حييت أبداً، وسأظل أسمع ضرب المطارق الأبح، وضرب الأزاميل الحديدية حتى آخر نفس لي. ما تزال إلى اليوم تطن في أذني كأنها نشيد انتصار. نعم، لقد هزمنا هؤلاء الكهنة أصحاب السلطة الكلية، ووصفاتهم السحرية المزعومة، إلى غير ذلك مما كانوا يتوفرون عليه. وأخيراً ملك أحدهم الشجاعة لتخليصنا من هذا الرزح! وحتى أكون صريحاً تماماً معك، أعترف لك بما تعرفه قبلاً، وهو أني لم أجدني أبداً متوافقاً مع أحد الكهنة، ولكن آتون حصل على رضاي. لماذا؟ لأنه من السهل، طلب الرحمة من إله واحد، على فعل ذلك من مائة. هل سبق وحاولت أخي أنوكيس، وضع قائمة لآلهتنا؟ أنوكيس، وأنات، وأنيبيس، وآيس، وأبوبيس، وآش، وأستارتي، وآتوم، وباستيت، وبينو، وبيس، وبوبيس. . . أقف هاهنا. فمجرد تعدادهم يرهقني. والقول بأنهم عادوا ليستمروا في الإقامة في البلادين! يا للخسارة! . . .

قاطع فيليب قراءتها قائلاً:

ـ صديقنا كيير مخطئ.

سألته جوديت:

ـ ما الذي تريد قوله؟

ـ عندما كتب ألا شيء نجا من إزالة العلامات المقدسة المجنونة هذه، فقد أخطأ. ففي قبر الوزير راموز التي تم اكتشافه، لم يدمر الإسم الأول لأخناتون بمعنى أمنحوتب أو أمنتوحب. وفي قبر وزير آخر وهو خيرويف كان اسم آمون محذوفاً بالفعل، ونجده في الألواح الحجرية الملكية لأمنحوتب الثالث، ولأخناتون نفسه. وفي لوحة لآمنحات حذف اسم آمون بالفعل، لكن اسم أوزيريس لم يمس مع أنه كان مصحوباً بأسماء العديد من الآلهة والآلهات كإيزيس وحورس، وجيب، ونوت. ومع ذلك، كان يمكن لهذه اللوحة أن تكون مستفزة للعمال مادام أوزيريس يعرف كـ«أول الآلهة وخالق السماء والأرض». يمكنني إعطاء حالات عديدة. فالفيوم مثلاً بدا أن المطارق والأزاميل تجنبتها.

ـ لماذا يفاجئك هذا؟ فيمكن تخيل أن أولئك الذين كلفوا بهذه المهمة، لم يقوموا بها بشكل جيد، أو إنهم كانوا أقل بكثير من حجم المهمة الموكلة إليهم. ويمكن افتراض أن بعض العمال بدوا محافظين في القيام بعمل يخالف معتقداتهم.

قبل لوكاس الأمر قائلاً:

ـ ممكن. لكنها جزء فقط من الحقيقة، برأيي، العملية لم تكن

منظمة وعميقة كما أراد متراسلانا لنا أن نتصور. إذا كانت لأخناتون النية القاطعة لإخراس آمون، فكان عليه أن يقصد الأهم مباشرة، بمعنى حرم الكرنك نفسه حيث، أذكرك، يوجد قدس أقداس منافسه.·وكان عليه أن يرسل عماله وجنوده إلى هذا المركز العصبي، وكان يمكنه أن يرجئ عملياته في المعابد الأخرى المنثورة في كل البلاد. وعلى كل، فهذا بالضبط ما سيقوم به بعد ذلك حور محب، فهو لن يبخل لا على الشكل، ولا على الوسائل.

مررت جوديت يدها على شعرها بطريقة آلية، ثم قالت:

ـ في النهاية، كان على أخناتون أن يبدو ألف مرة أكثر صرامة تجاه الآلهة الأخرى، وألا يصرَّ على الانغلاق في مدينته. كان عليه أن يقوم بخطوات أخرى، ويكسر شوكة المقاومة، ويوقف بصفة نهائية كهنة آمون.

علّق عالم الآثار المصرية قائلاً:

ـ بكل تأكيد، ولكن في هذه الحالة، أما كان سيتهم بالاستبداد والطغيان؟

ارتسمت على شفتي الشابة ابتسامة ساخرة، ثم قالت:

ـ أليس هذا ما حدث؟ فالعديد من المؤرخين، القدامى منهم والمحدثين، جرموا فعله. فقد وصف، وما يزال، بالمجنون، والمتعصب والمريض والمصاب بالصرع، والديكتاتور، والمصاب بجنون العظمة، وإلى ما هنالك، أو إنه يوصف كروح معتوهة، والمجنون الغاضب الذي لايفكر إلا في الانتقام.

ـ هذا صحيح. ولكن لديك أيضاً معسكر من يعتبرونه مثل مارك

أوريل. دائماً في قلب مثل هذا النوع من المغامرة، فالرأي والحكم متقاسمان. يمكننا أيضاً أن نفسح مجالاً للنظرية التي تقول بأن أخناتون ارتكب خطأ جسيماً، بإقدامه على فتح المعابد والسماح لمجتمع الأموات الولوج إلى تعليم مبدأ ظل إلى حدود ذلك الوقت مقتصراً على بعض المصطفين.

تنهّد قبل أن يختم بالقول:

ـ في العمق، كان أخناتون يملك كل الميزات الضرورية ليلتحق بمكانة الإله الكوني، الخالق لعالم الحيوان والنبات وأب المصريين، والشعوب الأجنبية أيضاً. ومع كل فجر يولد، كان يحمل أماني كل البشرية بدون تمييز. ولو أنه عرف كيف يدبر قضيته على نحو جيد، لحقق آتون النصر نفسه الذي عرفه إله موسى. ولكن، هل أراد أخناتون ذلك؟

خيم عليهما الصمت للحظات قبل أن يعيد لوكاس قراءته.

من كيبر إلى أنوكيس

. . . والقول بأنهم عادوا ليستمروا في الإقامة في البلادين! يا للخسارة! أقول أحياناً لنفسي بأن أخناتون افتقد الشجاعة. إذا أردت رأيي، فإنه كان منفعلاً جداً ـ وورعاً أكثر من اللازم! وأنه كان متحمساً لقراره بإيقاف طفيليي آمون، واعتقدت أنهم انتهوا فعلاً. لكن للأسف. فقد كنا منغلقين في مدينة القرص، ولم نكن مطلعين على ما يروج بين مصر العليا ومصر السفلى. ولم أعلم، مثلك تماماً إلا بعد ذلك، بعد ذلك بكثير، التسامح المبالغ فيه للعمال المهدمين، وبخاصة نقص العدد. فلمحو آمون وأتباعه من أرض كيمي بصفة نهائية، كان على الفرعون أن يستخدم الجيش وليس بضعة رجال.

نعم، وفي نهاية هذه السنة التاسعة، كنا نحسّ بالثقة. وكانت السنة الموالية تخبّئ لنا خيبة الأمل. فلسادس مرة، وضعت «الجميلة أتت» مولوداً. ولسادس مرة، كان المولود أنثى. باعتراف أن الأمر يتعلق هاهنا بلعنة. ست بنات لفرعون! وعلقت الملكة تيي الحية دائماً، والتي أضحت طباعها أكثر جفاءً، بطريقة خرافية «شمعة أخرى في وضح النهار»، وأسمى الزوج الملكي المولود الجديد بستب إن رع.

عليّ أن أستأذنك الآن يا أنوكيس. فأنا أنتظر قدوم طبيبي بين لحظة وأخرى. أتمنى ألا يلقي علي مجدداً خطابه الاعتيادي المحشو باللوم والأوامر العقيمة.

تقبل تحياتي التعبة.

من أنوكيس إلى كيبر

أصلي لآتون لتستعيد قواك في أسرع وقت. فأنت الصديق الوحيد المتبقي لي على هذه الأرض. هل تسمح أن تمحو من بالك ألا تتركني؟ لأني لن أتحمل ذلك.

ابنة سادسة. هذا صحيح. وطنت في أذني الملاحظة المرة للملكة الأم، والتي وإن تجاوزت الخمسين، كانت ما تزال تحتفظ بكامل قواها.

تتذكر ولادة ستب إن رع ولكن من الغريب أنك لم تأت على ذكر حادثة مهمة وقعت في نهاية السنة العاشرة لحكم «من كان لصالح آتون». هو التعب بدون شك. ألا يذكرك اسم كيا بشيء؟ لقد كانت تنتمي إلى الكائنات التي لا تعد ولاتحصى التي تتحرك في الحريم الملكي. وفجأة، ولدهشة الجميع، جعلها أخناتون المفضلة لديه حتى إنه منحها لقب «الزوجة الثانية»، فوداعاً لصورة الحب الكامل التي كان يمنحها الزوج الملكي حتى تلك اللحظة! وبضربة مروحة أتت منافسة لتمحو رابطة حب مثالي، وتحول الحب الأسطوري إلى حب فقط. وباختصار، إلى حب مشترك. ولم أستطع أبداً فهم ما الذي جال في

خاطر الفرعون. فلم تكن كيا جميلة جداً، وحتى لو أنها كانت جميلة، لم تكن تستطيع منافسة جمال نيفرتيتي أبداً. لم تكن تستطيع امرأة ذلك. في الحقيقة، كونت رأيي الخاص المتعلق بهذه القضية، وأعلم أنك لن تتفق معي عليه، على اعتبار ما قلته لي بخصوص تحوتمس، وخيبة الحب التي تعرض لها. أعتقد أن العلاقات بين الملك وزوجته كانت سيئة، والواقع أنه اتهمها بأنها خضعت لسحر أناشيد الحب لنحاتها المفضل، وأقصد هنا تحوتمس بطبيعة الحال. في اعتقادي أنها انتهت إلى فراشه، وعلم الملك بذلك. وهذا ما يفسر اختيار الملك لكيا، وتوالت الأحداث.

القاهرة

رفعت جوديت ناظريها وسألت:

ـ هل من الممكن أن تكون هذه المفضلة الثقيلة من أصول ميتانية؟

ـ الغموض. هنا أيضاً يمكن أن نفسر اسمها كتعريف لكي، وهي كلمة مصرية لـ«قرد»، والذي يتضمن اسماً غريباً «الجميلة البشعة». وكما شرحت للدكتور يعقوب، فنحن نجهل كل شيء عنها. في الخمسينات من القرن الماضي، اكتشف وجود هذه الشخصية، وذلك بقراءة اسمها على بعض الأشياء المستخرجة من مقابر تل العمارنة. ومن ضمن هذه الأشياء، لوحة قرابين، وأوعية وأنابيب تجميل إضافة إلى غطاء مكسور. لم نحصل لها على تمثال، وكل ما هنالك رسم حيث تظهر بوجه مبتسم وودود يدفعنا إلى الاعتقاد أنها المرأة الطفل. وعلى بعض اللوحات المستخرجة من هيرموبوليس يمكن أيضاً رؤية اسمها محفوراً

فوق اسم ميريت آتون، وعنخ سن دا آتون وهي نقطة تشير إلى أن كيا كانت تحتل حتماً مرتبة معتبرة. لكن من أين أتت؟ يعرّفها وصف وجد على مخروط جنائزي كان لرئيس خدم مدفون في طيبة على أنها «المفضلة القادمة من نهرين»، ومع أنها لم تحمل أبداً لقب زوجة ملكية، ولم تمثل أبداً وهي تحمل الأرابيس الخاص بالملكات، إلا أن كل شيء يمنح الانطباع على أنها كانت تتمتع بتقدير كبير داخل البلاط.

ـ أعتقد انها حصلت على لقب تاشب سيت أي «المفضلة المحبوبة جداً».

وافق لوكاس على ما قالته، ثم سألها:

ـ هل سمعت قصة الأخوين؟

رسمت الشابة سيماء التساؤل على وجهها فأضاف:

ـ يتعلق الأمر بنص قديم يصل حتى الدولة الجديدة، والذي يحكي قصة فرعون سقط في حب فاتنة أجنبية بوله، وذلك بعد أن استنشق عبير خصلة من شعرها. تحدد الحكاية ذلك كالآتي «أحبها صاحب الجلالة، ومنحها مكاناً في صف السيدة الكبرى»، من هنا يمكن الاعتقاد أن المرأة المقصودة يمكن أن تكون كيا الغامضة.

رفع كتفيه، واستمر بالقول:

ـ قيل الكثير من أن اسم كيا يمكن أن يكون لقباً ودوداً منح لنيفرتيتي من طرف زوجها، وهو أمر لا مصداقية له أبداً.

ـ لماذا؟

ـ لأننا نملك ما يكفي من القرائن التي توضح أن هذه المفضلة

كانت موجودة بالفعل، وأنها كانت تتمتع باحترام كبير في حياتها، وأنها كانت تحضر قداس عبادة آتون من ضمن مزايا أخرى، والذي كان يبدو الحصة الحصرية لأخناتون ونيفرتيتي، وأنها كانت تملك معبداً شمسياً، وهو بكل تأكيد ملائم للأراضي التي كانت تمنح لها عائدات. إضافة إلى ذلك، يمكنها أن تقوم بالقداس إلى جانب الملك أو بمفردها وهذا شيء غريب.

أشار إلى ورق البردي مبتسماً، ثم قال:

ـ أما عن الفكرة المعبر عنها من قبل مراسلنا، والتي تقول بأن نيفرتيتي كانت عشيقة لتحوتمس، فأقل ما يقال عنها إنها خيالية.

قالت جوديت مداعبة قائلة:

ـ هل كنت في ورشة النحات أو تحت سرير الملكة؟

ثم أضافت مسرعة:

ـ سأستمر في القراءة...

من كيبر إلى أنوكيس

صديقي، هو ذا أسبوع قد مر، وأنا أضجر من تكرار فعل ما قاله لي نيفري. تذكر ربما أني كنت أنتظر زيارته لي وأتخوف منها. نعم، فقد أحسست أن صحتي تتقهقر لكني لم أتصورها أبداً بلغت هذا الحد. حدثنا الحكيم بتا حوتب عن الشيخوخة، كان يفعل ذلك دون غرور، وكان يقول إنها وقت البشاعة وتحول الجسد والروح. تحجب الرؤية، وتغرق الذاكرة، وتئن الرجلان، وتشتكي المفاصل تحت ثقل جسد يتوجب عليها الاستمرار في حمله. في ذلك الوقت، كنت أبتسم وأنا أنصت لكلامه الحزين. يا لحمقي!

أعلم اليوم أنه كان محقاً، وأجهل كم بقي لي من أسابيع أو شهور لأعيشها، ولكن نيفري لم يترك لي الكثير من الأمل. قد لا أرى فجر السنة القادمة.

يؤلمني مرض لا اسم له. أنا آسف، فقد أحببت دوماً أن أتعرف على هوية أعدائي. وبشكل غريب، لست متألماً أو حزيناً. تعلم أنه ومنذ نفينا من مدينة الأفق، فقد وجودنا، وجودي على الأقل، كل معنى. على الأقل لديك امرأة تسهر على أيامك ولياليك. صوت

يكلمك. ونظرة تلتقي بنظرتك، بينما أنا أسير وحدتي. فليتوقف كل شيء هاهنا، ولتستمر حياتي هناك في الغرب الجميل. لحد الساعة، أمتلئ بالأعشاب الطبية، وأعدد الحقن. وبحسب نيفري، يجعلني هذا العلاج أتألم أقل. سنرى.

أعود إلى رسالتك الآن، وكما قلت سابقاً. لا أعتقد أن نيفرتيتي كانت عشيقة لتحوتمس، وارتقاء كيا أكثر بساطة في الفهم، وأنا متفاجئ أنه لا علم لك بالقضية. فقد استطاعت كيا أن تقوم بما لم تستطعه الملكة أو أي امرأة أخرى. ففي بداية السنة العاشرة، وضعت كيا للملك وريثاً ذكراً! بعد ولادة البنات الست، كان للحدث وقع الزلزال. كيف لك أن تجهله؟ فقد كنت مع ذلك تعيش في القصر، وتقتسم معه خصوصيته. ألم يقل شيئاً؟ لقد علمنا جميعاً أن توت عنخ آمون أي «صورة آمون الحية» لأن الأمر يتعلق به، كان ابن كيا. تخيل سعادة الأب! وأخيراً ابن ذكر! ولد! كان الحاضر مبشر إذن. وقد أديت له كل الصلوات حتى لا يمسه مكروه، وألا ينضب حليب أمه. ولم يتردد أحد بالمناسبة في دعاء كل الآلهة معلنين «فليحفظ كل إله اسمك، وكل مكان تتواجد فيه، وكل حليب ستشربه». لا أتذكر البقية. ومنذ ذلك الوقت، يمكنك أن تفهم بسهولة أن كيا خرجت من العتمة إلى النور.

آه! لم تدم هذه الترقية إلا وقتاً قصيراً. ففي بداية السنة الثانية عشرة، أعيدت إلى عتمات الحريم الملكي، ولم أعد أسمع عنها شيئاً حتى اليوم الذي توفيت فيه، سنة بعد ذلك. هل ماتت حزناً أم غضباً؟ الاثنان بلا شك. ربما تصورت لفترة قصيرة أنها ما دامت قد منحت للفرعون وريثاً ذكراً يمكنها أن تحل محل الزوجة الملكية الكبرى.

كانت مخطئة، فنيفرتيتي لم تكن تنتمي إلى النساء اللائي يبعدن، ولكنها كانت من أولئك اللائي يتركن. لقد أظهر لنا المستقبل ذلك. تغيب الشمس، ويزحف الشفق. وقريباً سيحل موعد أخذي للدواء. بعد ذلك، سأذهب لأستلقي تحت الجميزة الوحيدة التي تلقي ظلها حتى طرف الزقاق. أقبلك يا صديقي.

القاهرة

تساءلت جوديت:

ـ توت عنخ آمون، إبن كيا؟ هل تصدق هذا؟ شخصياً، اعتقدت دوماً أنه أخ أخناتون، وأنه ابن تيي، وضعته إلى هذا العالم في سن متأخرة.

رسم فيليب لوكاس موجة بيده في الهواء، ثم قال:

ـ مثلما يمكنك أن تتحققي، فهذا الملك كان مليئاً بعلامات الاستفهام، وهناك العديد من الآراء، فواحد منها يرى أن تيي كانت بالفعل والدة توت عنخ آمون. أشك في ذلك، إذ إنه وإذا ما اعتمدنا على الترتيب الزمني فالسنة العاشرة من حكم أخناتون كانت الملكة الأم قد شارفت على الخمسين. ومن المحتمل أنها ما كانت تستطيع وضع ابن في ذلك السن.

ـ هذا ليس رأي الجميع، فعالمة آثار مصرية محنكة مثل كريستيان دي روش نوبلكور مقتنعة بخلاف ذلك تماماً. فبالنسبة إليها، كانت تيي قادرة على الإنجاب برغم سنها المتقدم. ولدعم نظريتها، تذكر بقوة

نساء مصر ونوبة والشبه الكبير بين أمنحوتب الثالث والملكة وتوت عنخ آمون.

ـ شبه يجد تفسيراً له أيضاً إذا كان أخناتون هو الأب. فلن تكون المرة الأولى التي يرث فيها حفيد بعض ملامح جديه.

أطلق عالم الآثار المصرية بحيوية:

ـ الغموض. أقول لك إن كل شيء غامض. هناك من يفترض أيضاً أن توت عنخ آمون كان نتاج علاقة غير شرعية بين أخناتون و... أمه تيي! بالمقابل، بالنسبة لكيا، لدينا يقين، وما قاله كيبر صحيح. فقد اختفت المفضلة في وادي النيل بالسرعة ذاتها التي ظهرت بها. فلربما وضعت الوريث حوالي السنة العاشرة، ولكن بعد سنتين من ذلك سيختفي اسمها، ويمكن أن تكون ماتت بالفعل، إلا إذا كانت ضحية لزوال الحظوة. وما هو أكيد في أمرها، هو أن أحداً لم يعثر على قبرها.

مررت جوديت يدها على شعرها. ثم فكرت للحظة قبل أن تغرق مجدداً في قراءة أوراق البردي.

من أنوكيس إلى كيبر

قفزت عند استلامي رسالتك. كيف لم أهتم بالشائعات التي كانت تتداول في ذلك الوقت؟ صحيح أنه كان يهمس في البلاط أن ولداً ذكراً ولد، وأن أمه هي المفضلة لدى الملك. وأنه عند ولادته أطلق عليه اسم توت عنخ آمون «صورة آمون الحية»، وهو الإسم الذي لن يحتفظ به طويلاً إذ وفي يوم تتويجه، حيث كان يبلغ التاسعة من عمره فقط، أعيد تسميته بنب خيبرو رع. وكما تعلم، سيسمى بعد ذلك، توت عنخ آمون. حتماً، لن يغفر لي ذلك. وإذا لم يؤكد لي «من أحببت» الخبر من خلال حديثي معه، فإنه لم ينكره أيضاً. في كل الأحوال، أن يكون توت عنخ آمون ابناً لكيا أو لا، لا يغير ذلك شيئاً من خيانته. بطبيعة الحال، ستجادل بالقول إنه كان صبياً، وإنه كان تحت سيطرة حور محب والآخرين. ومع هذا، فقد كان قبل كل شيء، الفرعون، ومادام كذلك، فقد كان سيد مصر المطلق. ولكن فلنتحدث عن شيء آخر، فكل ما يذكرني بفترة ما بعد أخناتون يؤلم قلبي.

•

توقفنا على ما يبدو لي عند السنة الثانية عشرة حيث قدم ممثلو

القوى الكبرى لآسيا وأفريقية والإيجيين إلى مدينة الأفق ليتلقوا رضى الفرعون.

أيام احتفالات، وأيام مجيدة! لم يقر أبداً في ذاكرة رجل، احتفال بمثل تلك الروعة. كانت التمهيدات قد انطلقت من طيبة، ولكن الاحتفال جرى في آخت آتون. هل تذكر الأثاث الجميل الذي استعمل للمناسبة؟ فتحت سماء صافية كأنها رصعت بالياقوت. كأني ما أزال أرى الملك والملكة مرافقين بأتباعهما، ومحملين على هوادج حتى المنصة التي أقيمت في الصحراء، شرق المدينة. وصولاً إلى المكان، أخذ الزوج الملكي مكانيهما على عرشين مذهبين، بينما تجمعت البنات الست تحت مظلة فضية. وبدأ الاستعراض. وبحسب الدور تقدم مبعوثو ليبيا وبونت ونهرين وقبرص وسورية وفلسطين أمام العائلة الملكية لتقديم الهدايا أمام أقدام أفرادها. وكانت الهدايا التي يحملها عبيدهم، تتنافس فيما بينها جمالاً، فمن أسلحة مزينة، وعربات وخيول وأحجار كريمة ورئام وأسود وبقر وحشي وريش وبيض النعام وبخور وصمغ وعبيد شبان وأثاث من خشب الأبنوس والعاج، وعقود من الذهب وما لا أذكره!

ولم يكن مبعوثو إفريقية بأقل من ذلك، فقد وضعوا عند قدم العرش أكياساً جلدية مليئة بالذهب والفضة، وكان يمكن أن يلمح من خلفهم حيوانات بقرون طويلة، وكلاب صيد وفهود موثوقة.

وكانت نيفرتيتي التي تنعم في جلوسها تحت مظلة تمنحها ظلاً مناسباً، تضع ثوباً من الكتان، وتزين جيدها بصدرية من الذهب، تتأمل من موقعها العرض. أما الفرعون، فقد كان يزين رأسه بتاجه الثنائي،

وفي يده الصولجان والسوط، يهز رأسه بين الفينة والأخرى، كأنما ليعبر عن رضاه على عرض الصداقة والخضوع هذا.

ولم ألحظ في أي لحظة بريق تفضل أو تباه يعبر حدقتيه. لم ألحظ إلا تعابير الرقة.

كان يوماً لا ينسى، سيظل محفوراً أبداً في ذاكرتي، وفي ذاكرة كل من حضر الحفل. وللأسف... ففي ساعة الزمن الرملية تتقاطر بالدور حبات رمل السعادة والتعاسة. فلا شيء ثابت في هذا العالم السفلي. لا شيء نهائي حتى الموت. ولن تتأخر ساعات الشؤم في أخذ مكان ساعات السعادة تلك. كانت تلك آخر رؤية للعائلة الملكية سعيدة ومجتمعة، التي يمنحنا القدر إياها.

لا أود أن أستمر في أكثر من هذا، وأشعر برغبة لا تقاوم في أن أنام على هذه الصورة السعيدة. لكن المهمة لن تكون سهلة. فالأنباء الحزينة التي أخبرتني بها عن صحتك تعذبني. أتوسل إليك أن تحارب. لا تدع السواد يجتاحك. فالأسوأ ليس دوماً أكيداً.

القاهرة

مررت جوديت يدها على جيدها كما لو أنها تبحث عن فسحة في صدرها، قائلة:

ـ لا أملك إلا أن أقول إن «الصداقة ليست سوى الإبن الشرعي للحب، لكنه ابن بدماء ملكية». فهذان الإثنان لا يدعان مجالاً للشك بأنهما صديقان حقيقيان.

رد لوكاس وابتسامة خفيفة تعلو شفتيه قائلاً:

ـ إذا وجدا. . .

وقبل أن ينتظر رد الشابة علق بالقول:

ـ في الواقع، كان هذا الاستقبال مجرد احتفال عادي، فقد انحطّت الأوضاع منذ مدة على الحدود المصرية، وأخذ انحراف مزاج الحلفاء في التزايد. ومن المحتمل أن أخناتون أخذ القرار بتنظيم هذا الاحتفال نزولاً عند ضغط أب الإله آي، وخاصة تحت ضغط حور محب، فبعد أن يئسوا من إقناع الفرعون باستعمال القوة رداً على ادعاءات بعض خصوم البلادين، قام المحيطون بأخناتون بإفهامه أنه يتعين عليه استدعاء كل ممثلي الإمبراطورية لتكريمه على وجه السرعة. وكان هذا، بالمناسبة نفسها، طريقة مواربة لإيقاف كل الخصوم الشرهين جداً، مثل ملك الحيتيين سوبيلوليوما ولإخضاع كل الموالين ليكونوا دوماً خاضعين لخليفة سيد مصر. افتقد أخناتون للأسف الشديد، الفراسة السياسية، فهذا «الدور بار» أتى متأخراً، فالانقسام في الإمبراطورية المصرية كان قد بدأ.

وافقت جوديت بالقول:

ـ تكفي قراءة رد كيبر للتأكد من ذلك. . .

من كيبر إلى أنوكيس

آه! يا أخي! كم أرضيتني. لم ترني حفلة السنة الثانية عشرة إلا السعادة واللذة. هل نسيت أني حضرتها؟ كان ذلك جميلاً وعظيماً!

لكن هذه اللوحة المليئة بالألوان والأناشيد والموسيقى كانت تخفي مشهداً آخر. فلم تعد بلادنا تكترث منذ مدة طويلة بالصراعات الخارجية. فقد تظاهر أخناتون بجهله للمشاكل التي أحدثها بعض جيراننا المتلهفين لاستغلال سلبيتنا. وبدا رجالنا المخلصون يسقطون تباعاً تحت سلطة الموالين المتنافسين وخاصة بين اليدين المفترستين للأمورو للسهل الساحلي السوري، المسير بواسطة ملك بدون وساوس، المدعو عبديا شيرتا. وتحركات الأناضول على هضبة السهل العلوي للفرات، والحيثيون الذين يهددون كل يوم أكثر الميتانيين. فقد اعتلى المتوحش سوبيلوليوما العرش بقوة بعدما تخلص من كل منافسيه. كانت عرباته العسكرية تهاجم بانتظام الجيوش الحورتية التي لم يعد بإمكانها التحكم في طريق الفرات العلوية. لقد ولى الزمن الذي كان فيه حلفاؤنا يحدثون الرعب في القلاع الحيتية لحاتوزاس. ولوضع حد لهذه الإساءات، كان يتعين على الفرعون أن يقود جيشه لبث الرعب في الأراضي الأناضولية لسوبيلوليوما. وللأسف، ألف مرة للأسف، أن ملكنا لم يحمل سيفاً أبداً في حياته. فمع كل شهامته، وكل رفضه لإراقة الدماء، سيظل محبوساً، زاهداً في آخت أتون مقتنعاً بأن الحب وليس العنف هو السلاح الوحيد القادر على الانتصار. لم تكن إذن احتفالات السنة الثانية عشرة إلا غواية، وطريقة مشوشة لنذكِّر أعداءنا أن مصر لم تكن ميتة تماماً. ولكن لكم من الوقت؟

وكما لاحظت، فأيام سوداء كانت تنتظرنا، وبقية الأحداث، وأنت تعلم بها، كانت أكثر سواداً. فأبناء الأسرى المنحدرين من آسيا منحوا صورة لهيجان سيصير من الآن فصاعداً كالمرض المزمن مع انفجار الحرب بين الميتانيين والحيتانيين، بينما الدول الموالية لسورية ستلفي

نفسها مقحمة في الصراع. مقام المنافسين سيعرف ارتفاعاً وانخفاضاً، ولكن في النهاية، سينتصر الحيثيون، وسيهزم حلفاء مصر. واغتيل توشراتا بواسطة أحد أبنائه، وستمحى نهرين من خارطة آسيا الشرقية.

وعلى اعتبار كل هذه الكوارث، يمكننا فهم سبب عدم استمرار حلم فرعوننا أبداً. فعاجلاً أو آجلاً، كان على مصر أن ترفع رأسها. فلم نر أبداً أن إمبراطورية تقاوم فقط باعتمادها على المشاعر، فمعدن السيوف لم يصبَّ في قالب القلب، وإنما في قالب الغضب. وكل ما دمر باسم الكرم والحب كان يتوجب إعادة بنائه بالقوة وبالدم. فلعلك ترى الآن أكثر وضوحاً؟ فنحن نبحث عن أسباب الكارثة التي عشناها، وهذه واحدة، فقد رفض أخناتون الالتحاق بعجلة العنف، وأصر على أن الميتانيين والحيثيين سيظلون يتقاتلون إلى ما لا نهاية دون أن ينتصر طرف منهما، وعناده في الاقتصار على التهديدات الشفاهية، كل هذه الأخطاء أضعفت مصر.

لدي تحت ناظري رسالة مأساوية مبعوثة من طرف عبدي هيبا أحد الموالين لنا، أحكم أنت بنفسك: «فليزود الملك ما تحتاجه بلاده! كل بلاد الملك يا سيدي، قد هجرت. وفي كل مرة، يحضر فيها مبعوثوك أقول لهم «فقدت كل بلاد الملك» لكنهم لم يسمعوا لما قلت. فقد كل المحافظين. ليس هناك من محافظ تبقى للملك».

أغير الموضوع... هل لديك أخبار عن ميريروكا؟ كان عازف قيثارة في البلاط، والذي كان يعزف على الرباب أيضاً. موسيقي بارع، لو كان هنا في ممفيس، لأحضرته بكل سعادة ليجعل ليالي أكثر رقة.

القاهرة

قام لوكاس ثم همس:

ـ هذا ما أخبرتك به. افتقد أخناتون للفراسة السياسية. كل ما كتب في هذه الرسالة حقيقي. فهذه الفترة تمثل كارثة حقيقية لمصر. فقدت بابل، والميتاني الذي كان في غضون كل تلك السنوات حليفاً مخلصاً، تعرض للدمار، وألحقت سورية بالحيتيين، وما لا يقوله كيبر هو أن طرق فلسطين صارت مهلكة حقيقية. ومما لاشك فيه أن أخناتون المتفرغ لعبادته للإله الواحد، لم يفعل شيئاً لإيقاف تقدم الحيتيين، وملكهم سوبيلوليوما.

سألت جوديت:

ـ هل أراد ذلك؟ هل تعتقد أنه كان باستطاعته إيقاف هذا الزحف؟

ـ بكل تأكيد، ولكن لفعل ذلك كان يتعين عليه تحريك جيش مهم والبدء في مجهود حرب بدون امتياز. وهو انخراط رفضه الفرعون دائماً للأسباب التي نعرفها. ولأن السوء لا يأتي فرداً عادة، فإلى الكارثة السياسية، حلت المأساة العائلية. فالسنة الثانية عشرة كانت بالفعل سنة

حاسمة في مصير الفرعون ومن أحاط به. فقد انقلب كل شيء وتحطم بسرعة لا تصدق. تابعي القراءة رجاءً.

من أنوكيس إلى كيبر

فلتجدك هذه الرسالة وأن تنعم بصحة أفضل.

يا للسرعة المذهلة التي تذكرت بها اسم عازف القيثارة ميريروكا! ضحكت كثيراً وأنا أقرأ لك. أعيد التفكير في كلمات الحكيم بتا حوتب بخصوص الشيخوخة والذاكرة التي تغرق. يمكنك أن تطمئن، فذاكرتك على ما يبدو ما تزال غضة! ولست مستعداً بعد لتحنّط!

لا أعلم ما صار إليه هذ ا الموسيقي صاحب الصوت الآسر، بيد أني أعرف أحداً يمكنه تزويدي بأخباره. هل تذكر تلك الأغنية التي كان يؤديها كما هي عندما كانت تختلط الجعة والنبيذ في دمه، وعندما تلخبط الكحول أوتار قيثارته؟

«لا أحد عاد من هناك ليعلمنا أولئك الذين رحلوا

وليحدثنا عن رغباتهم وليواسي قلوبنا

إذن فاستمتع مادمت على قيد الحياة

فأنا سعادتك

فلا تتركها لأن شكواك لن تنجيك من حفرتك!».

لم تكن هذه الأبيات مبررة أبداً إلا في هذه اللحظة. عليك أن تغنيها كل صباح عند استيقاظك.

على فكرة! لماذا لا تستدعي موسيقياً؟ لا بد أن أحداً يوجد في ممفيس، يمتلك بعض الموهبة. تعلم أنه من العادة القول إنه، إذا كان الإنسان مريضاً، فلأنه كان ضحية لروح شريرة أو لعداوة روح ميت. سمعت بعض الحالات التي فشل فيها الطب، واستطاعت استعادة عافيتها بفضل الرقية والطلاسم. عندما يعجز الطب على شفائك، أليس من المنطق أن تبحث في مكان آخر على مساعدة؟ من أين ستأتي؟ هي نصيحة ولست ملزماً باتباعها، ولكن ماذا ستخسر؟ لابد أنه يوجد في ممفيس ساحر موهوب.

لكن، فلنعد إلى الماضي، فبعد شهور من التجمع الكبير للممثلين الأجانب، وفي الأسابيع الأولى من السنة الثالثة عشرة للحكم، ضرب الحداد الزوج الملكي. فقد توفيت الصغيرة مكت آتون، البالغة من العمر آنذاك اثنتا عشرة سنة فقط. يا لها من مأساة! ويا له من شرخ! هل هناك في العالم مصيبة لوالدين أكبر من دفن ابنهما؟ لم يكن الألم وحده من ضرب قلب أخناتون وقلب نيفرتيتي، ولكن شعوراً لا يوصف، مثل قطع الجمر المتأجج سكبت على بطن مفتوحة. يقضي النظام الطبيعي بأن يكون المتقدمون في العمر أول الراحلين، ويعد العكس تحريفاً لكل معتقداتنا. لم أر مثل ذلك الحزن الذي علا وجه «من أحببت»، ومحيا زوجته المشوّه. ووري جسد الفتاة في القبر الملكي الذي أعده الملك للعائلة، وكانت الملكة تهتز انتحاباً، لكن وبسرعة، كانت الدموع تنزلق على خديها. ألفيتني بعد المأتم، وحيداً معه على شرفة القصر. كان

الليل قد حلّ، وبالكاد يضيئنا نور النجوم، وبعد صمت طويل، أمسك ذراعي بقوة وصرخ في وجهي تقريباً:

ـ لماذا؟ لماذا يا آتون، يا إلهي؟ لماذا يا إله النور والأمل، وإله الحلم والحب؟ لماذا أظهر آتون عدم شفقته إزائي؟ لماذا أخذ ابنتي الصغيرة؟ أخبرني يا أنوكيس. أخبرني كلمات أفهمها.

كان حلقي مضغوطاً. أنّى لي بالكلمات؟ في عمق أي دارة؟

ـ لا أعلم يا سيدي. أعلم فقط أن الموت ليس النهاية. ستستمر مكت آتون في رحلتها في العالم الآخر.

ـ تحرم منا؟ تحرم من أبويها؟ تجتث من حبنا؟

ـ يعيش الحب بعد الموت. فليس لأننا لا نرى بأعيننا من نحب يعني ذلك أننا لا نراهم في قلوبنا. ألست مقتنعاً؟ النسيان هو ما يقتل وليس الموت. ستظل مكت آتون أبداً في ذاكرتنا.

وكان رد الملك بأن أمسك قبضته، واعتصم بالصمت.

وللأسف الشديد! فلم نكن إلا في بداية الكابوس...

فبعد مدة من ذلك، جاء الدور على الملكة الأم لتختفي، بعد معاناة مع ذاك المرض المريع. الأكثر إخافة من الموت نفسه. كانت العجوز ترتجف من القشعريرة ارتجافا. وكان من يراها على سريرها يقول إنها زنبقة ذابلة، جعلت في بركة مضطربة. كان كل جسدها يئن تحت صرخات ألمها. وعندما لم تكن ترتجف كانت تتقيأ. وكانت تتمرغ أرضاً، وانتهت في آلام فظيعة، وقد أهلكتها الحمى، ووقعت فريسة للهذيان.

وعلى امتداد احتضارها، كان يمكن سماعها تئن وتغمغم بكلمات تذكر شيئاً عن لعنة آمون، وانتقام كهنة طيبة.

وفي الشهور التي تلت موت تيي، استمر المرض الفظيع فحصد على التوالي الأخوات الصغيرات لمكت آتون، نفر نيفرو آتون تاشيري، ونفرنفرورع، والصغيرة ستب إن رع، والتي لم تكن تبلغ من العمر ثلاث سنوات.

القاهرة

ظلت جوديت تفكر للحظة قبل أن تهمس:

ـ هذا النوع من المأساة سرمدي.

ـ لكن أعيد تصوير المشهد نفسه من قبل فناني ذاك العصر، حيث ترى نيفرتيتي والملك دامعين. يمكن تسجيل أن وباء الطاعون كان في تلك الفترة قد بدأ ينتشر في الشرق الأوسط، وكان قد تفشى في هذه الفترة في آسيا الصغرى، ومن المحتمل أن يكون قد دخل مصر عن طريق قوافل البدو الرحل.

علّقت المرأة:

ـ إذا ما صدقنا الأعراض التي جاءت في الرسالة، أي القشعريرة والقيء والآلام العضلية، سيبدو أن تيي ماتت جراء هذا المرض. ومن غير المستبعد أن تكون كيا قد عانت من المصير ذاته، وهو ما يفسر اختفاءها المفاجئ.

ـ هذا معقول بالطبع، ومهما يكن، فابتداء من السنة الثانية عشرة

سيغرق كل شيء أو تقريباً سيغرق. فقد أخذ المُلك يغرق، وغرق الفرعون وأقاربه، وفي النهاية غرقت كل مدينة الشمس.

هزت جوديت رأسها قائلة:

ـ لعلك تذكر قضية توت عنخ آمون... ففي ٢٦ من شهر تشرين ثاني من سنة ١٩٢٢، مرر هوارد كارتز يداً مضطربة تأثراً حاملة شمعة في فتحة أقامها في باب قبر فرعوني، وإلى جانبه اللورد كارنارفون وابنته الليدي إيفلين ومساعد كارتر الذي كان يدعى كالندر. وبدأت قصة كنز توت عنخ آمون المدهشة، ومعها قصة اللعنة الفظيعة. بعد خمسة أشهر سيموت اللورد كارنارفون وقد أحاق به مرض غريب، وكان قد أسرَّ لأحد أصدقائه ساعات قبل وفاته بما يلي «سمعت النداء وأنا أستعد». وفي الوقت الذي لفظ فيه أنفاسه الأخيرة، حدث عطل كهربائي غير مبرر، أغرق القاهرة في عتمة كاملة لمدة ثلاث دقائق. في الوقت ذاته، أخذ فيه كلب الرجل في القصر العائلي في إنجلترا، في النباح المفاجئ قبل أن يموت بدوره. وعرف المصير نفسه أخ كارنارفون، إضافة إلى الطبيب الذي صور مومياء توت عنخ آمون بالأشعة. ألا ترى أنه شيء غريب؟

وكرد عليها دعا عالم الآثار المصرية الشابة إلى مواصلة حديثها بحركة من يده، فأضافت:

ـ وفي سنة ١٩٢٦، جاء الدور على محافظ الآثار المصرية ليقضي نحبه، نتيجة اختناقه إثر خروجه من القبر. وسيموت بعد وقت قصير من ذلك نائب محافظ متحف العاصمة من نيويورك.

سأل لوكاس:

ـ وما علاقة هذا بأخناتون؟

ـ على اعتقاد أن كهنة آمون، مستعينين بالسحرة الذين ذكرهم أنوكيس اتحدوا ليلقوا سحراً على الفرعون ومدينته.

هزت ضحكة قصيرة الفرنسي، فقال:

ـ لأنك تنتمين إلى أولئك الذين يؤمنون بقصص اللعنة؟ مع أنه لدينا تفسير لكل تلك الوفيات المتعاقبة.

ـ أعلم ذلك. يفترض أن هناك فطراً عرف بأنه يهاجم المسالك التنفسية، قد نما في المقبرة.

ـ تماماً، ومعلوم أيضاً أن رئتي اللورد كارنارفون كانتا ضعيفتين. لكن مثل هذه التفسيرات العقلانية جداً لم تقنع بما يكفي الحالمين من أمثالك. فقد ظهرت نظريات متعددة في كل مكان، بما فيها تلك التي تقول بأن هناك سماً نثر في أجواء المقبرة، أو على بعض حجرات الكنز والتابوت أو المومياء نفسها. فقد وضع العمال إذن ما يشبه قنبلة موقوتة، وفخاً قاتلاً يقفل على اللصوص. هذا رومنسي، ولكنه مستبعد.

من كيبر إلى أنوكيس

وتنصحني باستدعاء خدمات ساحر! ألا تعتقد أنه لو كان لهذا الجنس البشري أي سلطة، أما كان الفرعون سيسرع في إصدار أوامره لكل سحرة الإمبراطورية ليهموا إلى مساعدة ابنته؟ فموت هذه الطفلة يدل، إذا كان الأمر يحتاج إلى دليل، أن السحرة دجالون. بالنسبة لي، لم أعتقد أبداً في السحر أو في الوصفات السحرية لأوشيبتي أو التعويذات. كن محسناً إذن، ودعني أستمر في شرب دوائي المخلوط.

بخصوص الصغيرة مكت آتون. أتساءل إذا ما تجاهلت عن عمد سبب وفاتها. أذكِّرك بأنه ومنذ مدة ضاجع «من أحببت» الطفلة، ولم تمت بسبب المرض، وإنما عند وضعها لمولودها. فآلام الطفولة لديها تغلبت على ضعفها. وفي السنوات التي ستعقب ذلك، ستعرف ميريت آتون وعنخ سن دا آتون هما أيضاً الفراش الملكي. لا يمكنك أن تجهل ذلك، مادام قد ولد ابنان من هذه العلاقات. بنتان! البنات دائماً وأبداً.

إسأل إن لم يكن الفرعون ضحية مرض معين، يجعله لا يلد إلا إناثاً! عندما أعيد التفكير في كل هذا، أفهم أكثر التبجيل الذي حظيت به

كيا. كنت مستعداً لبذل الغالي والنفيس لمعرفة كيف تمكنت هذه المرأة من وضع توت عنخ آمون. ال...

القاهرة

قطعت جوديت قراءتها مستمتعة:

ـ يا له من عصر! كيف لا يتم التفكير بتجاوز الحدود في كل هذه العلاقات المحرمة والتي، للتذكير فقط، كانت تتم بمباركة الملكة.

ـ الوضع لا يقارن بما نسميه في فرنسا حق التفاخذ، ولا يمكن وضعه على حساب السلوك الشبقي والمقلق للفرعون. فقد كان سادة مصر دوماً محتاجين لإلصاق صورة ذكورية بألوهيتهم المخلدة. فكل من حكم البلاد يوصف كـ«حامل البذرة الإلهية»، والقادمة من ألوهية خاصة. وفي حالة أخناتون، فآمون هو من جعل منه طبعاً، الأب المطلق والكامل للجيل القادم.

وافقت جوديت بابتسامة لطيفة قائلة:

ـ ومثل من سبقه، لم يتورع عن إلقاء ما انتقل إليه إلى بناته. ألا ترى أن هذا كان مؤذ قليلاً؟

اكتفى عالم الآثار المصرية برفع ذراعيه مع تعبير قدري قائلاً:

ـ لكل حضارة زلاتها، ومن الصعب الحكم برؤية وعقل قرننا الحادي والعشرين هذا.

سارع مضيفاً:

ـ هل تسمحين أن نتابع؟ فقد قاربت الساعة الثامنة مساءً، وبي جوع شديد.

واصلت جوديت القراءة من المكان الذي توقفت عنده.

من كيبر إلى أنوكيس

. . . كنت مستعداً لبذل الغالي والنفيس لمعرفة كيف تمكنت هذه المرأة من وضع توت عنخ آمون. الذكور! هوس ملوكنا! كما لو أن المرأة عاجزة عن حكم مصر. كانت حتشبسوت تقدر بوزن الرجال في حدود علمي! ولو أن الأمر أوكل إلي، لسلمت بمحض إرادتي مصير البلادين إلى نساء حاكمات، فهن أولى وأجدر من الرجال. انظر إلى ابني! وماذا يصنع بحياته؟ صائغ الذهب. . . أفضل أن أوقف رسالتي هنا، وإلا فسأجازف مرة أخرى بتعكير مزاجي، وهو ما لا ينصحني به طبيبي.

أحييك يا صديقي وإلى اللقاء.

من أنوكيس إلى كيبر

توقف عن طرق أذني بابنك. هو يعيش الحياة التي يرغب فيها، كما عشت أنت حياتك. ذاكرتك مخلصة لك دوماً لكني أحس الشيخوخة تنتصر عليك بالنسبة للبقية.

ذكرت حتشبسوت العظيمة. هذه المرة، أنا من يفاجئك متلبساً بجرم المحاباة. هل نسيت أنه كان يمكنها أن تكون فقط شريكة حكم مثلما كانت أحمس نفرتاري مع ابنها أمنحوتب الأول؟ وسواء شئت ذلك أم أبيت، فقد خطت خطوة زائدة عندما حازت كل صفات الملك. حالة لم يتقبلها أبداً شريكها المسكين في الحكم تحوتمس. ومباشرة بعد وفاة حتشبسوت، وبسبب غضبه على كونه عاش لعشرين سنة في الظل، سارع لمحو اسم الملكة من على كل الآثار! ولا يمكن القول بأنه كانت تصدر عن حتشبسوت أنوثة كبيرة! لحية مصطنعة وملابس ذكورية! وشخصياً، لا أثق كثيراً في النساء في ما يتعلق بفن الحرب أو في السياسة. لكن لنمر إلى شيء آخر...

أعود إلى السنة الثانية عشرة التي كانت حاسمة، والتي حدثت بها أشياء كثيرة. تناقشنا حول موت البنات، وموت الملكة الأم، ولكن يبقى الأهم. لقد كنت على وشك الوصول إلى الأكثر خطورة. فعند نهاية هذه السنة تقريباً حدث المستحيل، وما لم يفكر فيه أي أحد من قبل. وهو الفراق بين نيفرتيتي و«من أحببت». من كان يتخيل ذلك؟ بينما وعلى امتداد كل تلك السنوات، منحا الشعب انطباعاً بأن الموت وحده من يستطيع تفريقهما. كانت نيفرتيتي من قرر الرحيل. ولم تكن هي من صرفت كما يظن. كانت هي، وبمحض اختيارها بعد أيام وأسابيع من الوجع، من ترك الإقامة الملكية لتذهب للعيش منزوية في قصر الشمال. لا شيء، ولا أحد استطاع منعها. وعلى كل حال، لم يكن الفرعون الذي لم يقم بأي محاولة لإعادتها إلى رشدها، حتى إنه يمكنني أن أقسم لك إنه كان مرتاحاً، وإنه كان يترقب هذه اللحظة منذ وقت طويل. منذ أن... هل أجرؤ على الإسرار لك به دون أن أدنس

ذكرى الملك؟ فيما بعد. . . في الحقيقة اندلع الصراع منذ أزيد من سنة. وكان واضحاً أكثر فأكثر حد أن الملكة قلقت على مستقبلهما المشترك. كانت قد بدأت في رؤية ما لا يراه أخناتون، وسماع ما يرفض أخناتون سماعه، مثل حور محب ومثل رئيس الخدم بارنفر ومثل الوزير آبر إل، (هل أعترف؟) ومثلي أنا أيضاً، أدركت الخطر الكبير المحدق الذي تتسببه حالة الفرعون على كل البلاد. فغريزتها كامرأة صرخت في وجه نيفرتيتي بأن عليها أن تتصرف قبل أن يفوت الأوان. ولهذا حاولت أن تسمع الصواب لزوجها! بلطف وصبر، ثم بعزيمة. وللأسف، لم يشأ أن يسمع شيئاً. فقد ظلت أذناه مغلقتان، وعيناه مقفلتان بإحكام. وبالنسبة إليه، كانت الحياة المستعارة هي الأفضل، ولم تكن هناك من حياة أخرى، ولا يهمه إذا ما تحول موالون إلى أعداء. وإذا كان الحيتيون يدّكون الأرض بنفاذ صبر على أبواب الصحراء، فإنه لم يحمل السيف، ولم يرق قطرة دم واحدة. ولم تدم هذه المواجهة بين الملك والزوجة الملكية الكبرى ساعة أو شهراً بل دامت زهاء سنتين. قررت نيفرتيتي حانقة وقد استنفدت كل قواها وحججها، التنحي. فذات صباح من شهر ميزوري للسنة الرابعة عشرة، وتحت حرارة مضنية، رحلت إلى قصر الشمال، ولم تخرج منه إلا ميتة. ولكن لنتئد.

أعلمتك صراحة أن سراً يعذبني. سأبوح لك به حتى لا تبدو لك ردة فعل نيفرتيتي مبالغاً فيها. لا يترك زوج بذريعة أن القدر لا يبتسم في وجهه أو أن العاصفة تزمجر، ولكن على العكس من ذلك، ففي وضعية مشابهة، يبرز التضامن. وفي الحقيقة، لم يكن الخلاف السياسي

واختلافهما في رؤية وطريقة حكم البلادين هما السبب فقط. فقد كان هناك ما هو أخطر.

فإذا كان الملك يحب النساء، فإن ميله للرجال كان أكثر وضوحاً. وإذا كان يغرف من لحظات سعادة إلى جوار أجساد النساء فإنه كان يجد متعة غير محدودة في التسافد أثناء التحاضن الرجولي. ولم تكن نيفرتيتي تجهل شيئاً من رغباته هذه، فقد كانت جزءاً من الحياة الخاصة لأخناتون، ولم تسمح لنفسها قط أن تبدي أي إشارة غادرة أو مقداراً من الجحود مهما كان صغيراً. لم يضايقها أبداً حب الفرعون للرجال، مادامت الروابط التي تجمعها بزوجها لا تتغير. وكانت كذلك. لكن، ومع فجر السنة الثانية عشرة ظهر شاب، أعترف هاهنا أنه كان وسيماً. كان بالكاد يبلغ العشرين من عمره، كأنه خرج من الشمس. كان يدعى سمنخ كا رع. في أي ظروف التقت نظراته بنظرات الملك؟ أجهل ذلك. لم يشأ أخناتون أبداً أن يخبرني بذلك. أعلم فقط أن سيمنخ كا رع استولى على روحه وقلبه.

هل كان بإمكانه الشك أن اعترافه بالحب الذي يشعره يقتل الملكة ويقتلني أيضاً؟ أنا الذي ظننت ألا أحد من الرجال سيحتل مكاناً في قلبه غيري! علمت دوماً خيانته. كنت أسخر منها، مادامت شهوة الجسد. لكن وفي هذه الحالة، لم يتعلق الأمر باتصال خفي بين جسدين، وإنما بمشاعر. كنت أتعذب وأدمى لكني لم أظهر شيئاً من ذلك أبداً. اكتفيت بأن أقول له:

ـ لكنك يا سيدي عرفت الحب من قبل مع «الجميلة أتت»، وتتحدث عنه الآن كما لو أنك اكتشفته لتوك.

ـ أنت مخطئ. لم أعرف الحب قط. أنّى لي ذلك؟ عندما وضعوني في حضرة نيفرتيتي لم أكن إلا صبياً! هل تعتقد أنه بإمكان صبي أن يعرف ماهية الحب؟ لا يمكن أن يُفرض الحب، فهو من يَفرض نفسه عليك.

رفع الفرعون يده، كما لو أنه يحذرني، ثم قال:

ـ لا أنكر شيئاً. تعلمت كيف أحترم الملكة، وأحببتها بطريقتي، وبطريقتها أحبتني. كانت أختي وأمي الأخرى. ولكن، ما نحسُّه لأم لا يقارن بشيء مما نحسه لغريب أو لغريبة. لأنه كما ترى، لا يمكن للزواج أن يصمد إذا لم يكن أحد غريباً عن الآخر، مع كونهما عاشقين.

وبما أني لم أقل شيئاً، فقد تفاجأ فسألني:

ـ هل تستهجن ما أقول؟

كنت على وشك أن أرد عليه بأني لا أستهجن قوله، ولكني أرفضه هو شخصياً، وأني أتقيأ لكونه جعلني أتألم بشدة دون أن يتساءل عن قدرتي على تحمل الألم. فكان يكفي أن يأتي هذا الشاب من الشمس ليمحي كل شيء، وليقلب وجودي ووجود الملكة. ومع ذلك اكتفيت بأن همست:

ـ أنت الفرعون.

لم تعجبه ملاحظتي، لأن قسمات وجهه اشتدت ثم قال:

ـ نعم. أنا الفرعون. سيد مصر، ولكني قبل كل شيء، سيد قلبي.

كنت على وشك أن أقول له:

ـ ليست مصر بحال جيدة يا سيدي، وأضحى قلبك سيدك.

اعتصم بالصمت للحظة كما لو أنه يفكر، ثم طلب مني بصوت فاجأني في هدوئه:

ـ أخبرني يا أنوكيس، هل تعلم السبب الحقيقي لرحيل الملكة؟

ـ أليس واضحاً؟ ألم تقدمه لي لتوك؟ هي لا تتحمل أن تشاركك مع سواها. وتخشى أيضاً على مستقبل مصر. هي...

ـ مصر! مصر! مجد مصر خالد، مثل الإله الواحد. ستعيش مصر وتحيا. ومستقبلها يشغلني، ثق بي، أكثر مما تتصور.

صمت وركز ناظريه علي قبل أن يواصل:

ـ اقترفت الملكة جريمة.

حملقت بعيني، فردد أخناتون:

ـ نعم. لقد خانتني. كانت تتآمر! لقد استعلمت الأمر. فقد دخلت في علاقة مع كهنة آمون، وهم من أثر عليها، وأدخلوا إلى رأسها أني أقود البلاد إلى الهاوية، وصدقتهم.

هل هذا ممكن؟ تفاديت التعليق.

واستمر يكنس ويضرب الهواء بعصبية:

ـ على كل حال. أنا أفكر في مستقبل مصر، وكدليل...

وترك الكلمات تسقط ما بيننا:

ـ قررت ألا أحكم وحدي.

منعت نفسي من قفزة باغتتني، فكرر:

ـ نعم. لقد سمعتني جيداً. سأتخذ شريكاً لي في الحكم.

اخترقت هزة عنيفة جسدي، وتمتمت:

ـ شريك في الحكم؟

ـ سمنخ كا رع.

رددت بألم:

ـ سمنخ كا رع؟ لكن... لديك ابن. توت عنخ آمون، الذي...

ـ لا تكن غبياً. إنه بعد طفل. فيما بعد عندما يصير راشداً سيخلفني، بعد سنتين سيبلغ سمنخ كا رع سن الرجال، حينها سأتوجه، وسأمنحه ابنتي ميريت آتون زوجة له.

توقف برهة قبل أن يحدد:

ـ وسأهب لشريكي الجديد في الحكم اسم نفر نيفرو آتون.

كنت على وشك الاختناق، وأنا أقول:

ـ إسم زوجتك؟

ـ تماماً. أليس ذلك طبيعياً مادام سيأخذ مكانها؟ و...

تجرأت على مقاطعته:

ـ سمنخ كا رع ليس نبيلاً! فقد أتى من لا شيء، ودمه...

لم أستطع إتمام جملتي، فقد أشار إليّ بسباته وصرخ في وجهي:

ـ دمه يعادل دمك يا أنوكيس! ويعادل دم من هو أكثر نبلاً.

وأتم حديثه بهذه الجملة الفظيعة:

ـ ويعادل دم الملكة!

بقيت بلا صوت. وبدا بهذا الصراخ كما لو أن الجنون أحاق

بعقله. أخذت وقتاً لاسترداد أنفاسي، ولأهدئ قليلاً من ضغط الدم في شراييني، ثم انحنيت له وغادرت القاعة. كانت المرة ما قبل الأخيرة لتقابلنا بعيداً عن أعين من في البلاط، وكانت أيضاً اللحظات الأكثر ألماً في كل حياتي.

الملكة في المنفى، والامبراطورية ضعيفة، وعابر سبيل يقتسم عرش البلادين.

ترى يا صديقي كيبر، لم أحك هذا المشهد لأحد من قبل. وحرصت على الحفاظ على ذكرى «من أحببت»، وإذا ما سمحت لنفسي اليوم بأن أبوح به، فلأنه يوجد دوماً وقت لرفع الحجب، ولأن الأجيال القادمة ستتساءل عن حضور سمنخ كا رع، والغياب المفاجئ للملكة. وما بدا لي مهيناً في ذلك اليوم، لم يعد كذلك الآن. لأن الوقت الذي مضى، ضمد جرحي، ولم أعد أرى الأشياء من خلال محنتي. أخذت مسافة من الأحداث. في النهاية، ما الذي حدث فعلاً؟ فبإعلان حبه، ومخاطرته بفقدان الملكة ومصر إلى الأبد، من ضمن أشياء أخرى، لم يقم الفرعون بشيء إلا أن ظل وفياً لنفسه، ووفياً لمعات، وللحقيقة. أضيف حبه للإله الواحد، للحب الذي كان يحمله لرجل واحد في عينيه. الألوهي والفاني مجتمعان معاً. وبعشقه لسمنخ كا رع، أنهى بطريقة معينة حلمه، فالأمر ما عاد يتعلق برجل أو بامرأة، وإنما يصير الإثنان منصهرين، مثل صورة إلهه.

ها أنذا أخبرك بكل شيء. أتمنى أن الإعجاب الذي تكنه لملكنا لن يلوث بهذا البوح. سأنتظر رسالتك القادمة بخوف شديد. تقبل تحياتي.

القاهرة

أخذ لوكاس في الضحك قائلاً:

ـ تمنحنا القراءة الانطباع بأننا أمام وصف الامبراطور هارديان والجميل أنتنوي. فقد كان سمنخ كا رع عشيق الملحد!

قام وأخذ يتمطى، ثم أضاف:

ـ هيا، يكاد الجوع يقتلني.

لحقت به الشابة، وبعد وقت قصير كانا يقصدان فندق «سميراميس». كان الجو لطيفاً، وكانت تنزلق فلاكة ببطء على مياه النيل القاتمة ناحية اليمين، ويصدر صوت أم كلثوم من مكان ما متخللاً الجلبة التي تحدثها أبواق السيارات.

لاحظ عالم الآثار المصرية بالقول:

ـ غريب أنك لم تعلقي على الرسالة الأخيرة. ماذا يحدث؟ هل تعبت؟ أم إنك انتهيت إلى معرفة أن المشهد الأخير الذي يرويه المدعو أنوكيس هو تتويج للسخافة؟

ـ لا شيء من كل هذا، ولكن ماذا سيفيد إقناعك بأن المشهد

المعني مقبول فعلاً؟ فمنذ بداية هذه القصة، اخترت وجهتك. أنت داخل قوقعتك، وتشعر أنك أفضل داخلها. ولا أريد استغلال صبرك.

غمز لها الفرنسي بطرفه بمتعة:

ـ ها أنت ذي عاقلة فجأة. ولكن هذا لا يمنع من معرفة انطباعك، من أجل المتعة فقط. هل تعتقدين بأن سمنخ كا رع كان عشيقاً لأخناتون؟

ـ اعتقدت أن العديد من الإشارات تصب في هذا المعنى.

واصلت بحماس:

ـ فكر. لم نجد أي آثار لنيفرتيتي ابتداءً من السنة الرابعة عشرة، وعندما زرنا الدكتور يعقوب تشبثت بأن صاحب القبر رقم ٥٥ كان أخناتون بكل تأكيد، وبما أني لم أعارضك، سألتني، فأجبتك بأني لا أعتقد ذلك، وبأن الأمر بالنسبة لي يتعلق بشخص آخر. هو رجل.

توقع لوكاس:

ـ سمنخ كا رع.

ـ حتماً. تذكر الوصف الذي قام به تيودور ديفيس. اكتشف المومياء وأوضح مسألة مهمة وهي أن الذراع اليسرى كانت مثنية واليد موضوعة على الصدر، بينما الذراع اليمنى ممدودة واليد على الفخذ. إذا كان الوضع كذلك فلا يمكنك أن تجهل أنها وضعية أنثوية.

ـ لكن. . .

ـ دعني أكمل رجاءً. بخصوص عمر المومياء، فقد حدد أكثر من مرة. كان إيليوت سميث أول من ذكر ذلك إذ قال إنها تبلغ حوالي

خمساً وعشرين سنة، ولاحقاً قدم العديد من المختصين الوصف نفسه، وبعد أن فحص بقية الرأس عارض البروفيسور دوغلاس ديري مثل إليوت سميث نسب الجسد إلى أخناتون، مستدلاً أن نهاية العظمة الثالثة العليا للضرس الطاحنة لم تكن ملحمة، ولم تكن قد ظهرت بعد، وهو ما يعني أن الشخص المعني لم يكن يبلغ خمساً وعشرين سنة عند وفاته. وفي سنة ١٩٦٣ أعاد البروفيسور روبرت هاريسون من جامعة ليفربول فحص الرفات بدوره، واستنتج أنها تعود إلى رجل يقل عمره عن خمسٍ وعشرين سنة. كل علماء الآثار المشهود لهم بالجدية اتفقوا على القبول بأن أخناتون حكم سبع عشرة سنة وأنه اعتلى العرش وهو يبلغ حوالي أربعة عشرة سنة. كان سيتوفى إذن وهو يبلغ من العمر ما بين ثلاثين سنة واثنتين وثلاثين سنة، عشر سنوات كاملة تفصل ما بين جثة القبر رقم ٥٥ وأخناتون. وكنتيجة لكل هذا لا يمكن أن يتعلق الأمر بالفرعون.

- جيد جداً. لنتصور أنك صائبة. ما الذي يدفعنا لنستنتج أنها مومياء سمنخ كا رع؟

- السن. فنحن نعلم أن سمنخ كا رع حكم بعد موت أخناتون، ونعلم أيضاً أن فترة حكمه لم تتجاوز سنة واحدة، وبالتالي فقد توفي في العشرينات من عمره، بمعنى أنه السن نفسه لمومياء قبر ٥٥، وختاماً، نعلم أنه لا يوجد أبداً في الأخبار التاريخية العمارنية، وجود شاب آخر عدا المدعو سمنخ كا رع، الذي قام بدور سياسي، أو انتمى إلى العائلة الملكية، توفي ما بين العشرين والخامسة والعشرين من عمره. تذكر أنه في سنة ١٩٦٣ سجل البروفيسور هاريسون والبروفيسور بتوي أن بعض

قطع الهيكل العظمي الموجودة في القبر رقم ٥٥ توحي بمظاهر الأنوثة، ونتيجة لذلك. . .

ـ فلنعتبر مرة أخرى أنك مصيبة، أين كتب أنه كان عشيقاً لأخناتون؟

ـ لقد حصل على اسم نيفرتيتي، نفر نيفرو آتون، ووصف أكثر من مرة بـ«محبوب آتون». و. . .

توقفت للحظة، واستجمعت أنفاسها قبل أن تختم بالقول:

ـ ودفن في هيئة أنثوية.

انفجر لوكاس ضاحكاً، ثم قال:

ـ هل تأخذين في الاعتبار هذه المعلومة؟

ـ لماذا أخفيها بحق الشيطان؟ إذا كان «زوجة» أخناتون، فأنا لا أرى مانعاً. ألا يعتبر كذلك من طرف من باشر دفنه؟ لم يفعلوا إلا الحرص الدقيق على تقديم الصورة التي كان الزوجان يمنحانها في حياتيهما. أعلم أن مقارنتي ستجعلك تغرق في الضحك، ولكن يمكننا اعتبار سمنخ كا رع، بطريقة معينة «ملكة» الفرعون.

بقي عالم الآثار المصرية صامتاً لمدة قبل أن يقول:

ـ لم نعد بعيدين عن السميراميس. يكاد الجوع يقتلني.

القاهرة.. في اليوم التالي

وضع لوكاس كتاباً أصفر على المكتب وأعلن:

ـ أعتقد أنه من الضروري، وقبل المواصلة، أن نضع النقط على الحروف بخصوص سمنخ كا رع. لست أدري إن كنت قرأت عمل الباحث الفرنسي مارك غابولد[1]، ولكنه يدافع عن فرضية أتفق معه فيها تماماً، وهي مخالفة كلياً لفرضيتك. هل سمعت عنها؟

هزت المرأة رأسها نافية، فأضاف:

ـ وصل إلى أن هناك شخصية تدعى سمنخ كا رع، نفر نيفرو آتون، وجدت وحكمت. هذا الشخص تزوج بالفعل من ميريت آتون. لكن من الواضح جداً أن اسم سمنخ كا رع غير مألوف، ومكون بطريقة غريبة. وهو اسم ابتدع بطريقة ما، بمناسبة تتويج هذا الشخص. كم دام حكمه؟ من الصعب تحديد ذلك. نجد إشارة على جرة عمارنية حيث جاء فيها «السنة الأولى، نبيذ من أرض سمنخ كا رع» هذا كل شيء. يمكننا إذن دون المجازفة بالخطأ، وفي هذه النقطة أن أتفق معك، وهي

(١) D'Akhenaton. Eoutankhamon, op, cit. 79

أنه حكم لسنة وبضعة أشهر. لكن سمنخ كا رع ليس هو من نعتقد. وبكل تأكيد، ليس هو من يصفه متراسلاكِ الظريفان.

عقدت جوديت ذراعيها مبتسمة، وسألت:

ـ ماذا ستخترع؟

ـ أنت مخطئة. فلا خيال لي، أنا أعتمد على نظرية طورها أحد العلماء.

أخذ نفساً قصيراً، ثم أضاف:

ـ إسمعي جيداً هذه الحكاية، فبعد رحيل نيفرتيتي، تزوج أخناتون بابنته ميريت آتون، وبهذا رقيت إلى رتبة ملكة لتتمكن من القيام بدورها الذي كان حتى ذلك الوقت قد انتقل إلى أمها. وأضحت مشاركة في الحكم إلى جانب والدها. وبعد وفاة هذا الأخير، كتبت رسالة إلى ملك الحيتيين سوسيليوما تطلب فيها يد أحد أبنائه. وجدت هذه الرسالة في قصيدة لسوبيلوليوما، وكتبت في زمن حكم ابنه مورسيل الثاني. يحكي النص عمليات عسكرية، ولكنه تضمن الفقرات التالية، والتي للتدقيق فقط أشير إلى أنها تفتقد إلى بعض الكلمات وأحياناً إلى جمل كاملة.

فتح عالم الآثار المصرية الكتاب الموضوع أمامه، وشرع في القراءة:

ـ «إلى بلاد قادش التي فتحها والدي، قدم المشاة والعربات العسكرية المصرية وهاجمت بلاد قادش». بعد هذا الشطر، يستمر السرد في البادية في بلاد الحوريين في قلب المملكة الميتانية، ثم يتم الحديث مجدداً عن الأنشطة المصرية «... وبينما كان والدي في الأسفل، في بلاد قارقيمش، أرسل لوباركي وتار خون دازالما إلى بلاد

الأرمك. ذهبا إذن وهاجما الأرمك، وأعادا المبعدين والمواشي والأغنام أمام والدي. ولكن عندما علم أهل مصر بالهجوم على الأرمك تملكهم الخوف، وبما أن ملكهم نب خروريا كان قد مات، أرسلت ملكة مصر التي كانت الزوجة الملكية أيضاً رسالة إلى والدي جاء فيها «مات زوجي. وليس لي ابن. ولكنهم يقولون إن أبناءك كثر، وإذا ما أعطيتني أحد أبنائك فسيصير زوجاً لي. لن أجعل أبداً من أحد خدّامي زوجاً لي! أنا خائفة». عندما سمع والدي هذا، استدعى المحاسبين طلباً للنصيحة وقال لهم «لم يحدث شيء مثل هذا أبداً في حياتي»، وأرسل والدي إلى مصر حاتوشازيتي، خادم الأمراء بعدما أوصاه قائلاً «إذهب، وعد لي بالحقيقة. فلربما أرادوا خداعي! ولربما كان لهم ابن من ملكهم! عد لي بالحقيقة». تحشر العلاقة في الاستيلاء على قارقميش هنا، ويستمر السرد بعودة المبعوث الملكي، وعندما حلّ الربيع، عاد حاتو شازيتي من مصر مرفوقاً بمبعوث مصر النبيل حاني. وبما أن والدي كان قد أعطى حاتو شازيتي التعليمات التالية عندما أرسله إلى مصر «فلربما كان لديهم ابن من ملكهم! ولربما أرادوا خداعي ولا يرغبون في جعل ابني ملكاً!»، فقد ردت الملكة على والدي في لوحة قائلة «لماذا تتكلم هكذا؟ يريدون خداعي؟ إذا كان لدي ابن، هل كنت أكتب لبلاد أجنبية؟ إنه لعار علي وعلى بلادي! لم تصدقني، حتى إنك حدثتني بتلك الطريقة! من كان زوجي مات، وليس لي ابن. لن أجعل أبداً من أحد خدّامي زوجاً لي! لم أكتب

لأي بلاد أجنبية أخرى. كتبت لك وحدك. يقال إن لك أبناء كثراً. امنحني أحد أبنائك، وسيكون زوجاً لي، وسيكون ملكاً على مصر!» إذن وبما أن نية والدي كانت حسنة، فقد استجاب لطلب المرأة واهتم بمسألة الابن.

قطع لوكاس قراءته ليلاحظ:

ـ هذا الإبن الذي قرر الملك الحيتي أن يرسله نعرفه، ويدعى زنانزا. قدم إلى مصر وتزوج من ميريت آتون، وتبنى كاسم له للتويج سمنخ كا رع. هذا النص يوضح أنه بتأخره في الرد على نداءات العديد من الموالين في الساحل اللبناني، ومن الساحل الدمشقي وبتعبه من الغارات الحيتية قام أخناتون أخيراً بإرسال بعثة إلى قادش.

ردت جوديت بقوة:

ـ ليس هناك إلا افتراض بخصوص التاريخ المحدد الذي رحل فيه زنانزا إلى مصر. لا شيء أكيد. ليس لدينا أي شهادة بخصوص حضوره إلى البلاد. وإليك ما هو أهم، ففي قبر توت عنخ آمون، وجد محفوراً في وعاء طيني اسم أخناتون ملاصقاً لاسم سمنخ كا رع، وهذا لا يدل فقط على أن الأمر لا يتعلق بالأمير الحيتي، ولكن أيضاً بأنه وجد نظام حكم مشترك بين الرجلين.

ـ أقر بأن هذا الوعاء يعتبر لغزاً، ولكن وبرغم هذا الوصف المشوّش، توجد إمكانية كبيرة لأن يكون سمنخ كا رع وزنانزا شخصاً واحداً.

ـ في هذه الحالة، يتوجب علينا قبول أنه ولمدة سنة ونصف تقريباً كان يوجد على رأس مصر أجنبي، وهو أمير حيتي المولد. أنا آسفة بروفيسور، ولكن أرى أن هذا مستحيل!

فتح عالم الآثار المصرية فمه للاحتجاج بيد أنها لم تمنح له الوقت ليفعل إذ قالت:

ـ باستشهادك بالمقاطع الحيتية، أغفلت ذكر نقطة مهمة. إذا لم تخنّي ذاكرتي، فقد حصلنا على كتابات توضح بجلاء أن زنانزا لم يصل أبداً إلى مصر إذ مات في الطريق، مقتولاً.

أشارت بسبابتها إلى الكتاب المفتوح أمام لوكاس، وسألته:

ـ هل لديك من ذكر لهذا هناك؟

وافق عالم الآثار المصرية على مضض بحركة فاضحة من رأسه، فأخذت جوديت الكتاب، وشرعت في البحث عن المقطع الذي يهمها، وبعد دقائق، أطلقت صرخة رضى قصيرة وأعادت الاقتباس:

ـ عندما أحضروا هذا اللوح، تحدثوا هكذا «لقد قتل رجال مصر زنانزا». ونقلوا هذا «مات زنانزا»، وعندما سمع والدي بنبأ موت زنانزا، بدأ يرثي لموضوع زنانزا واتجه إلى الآلهة مخاطباً «أيتها الآلهة! لم أقل سوءاً ومع ذلك قام أهل مصر بهذا ضدي. إضافة إلى هذا هاجموا حدود بلادي!»، وهذا «وبخصوص أنه لم تكن بيننا من قبل دماء مراقة، فالدم المراق بيننا لم يكن شيئاً صحيحاً. ومنذ أن أريق الدم بيننا صار ذلك جريمة كبرى. إذا ما قلتم أنكم قد تكونوا أسأتم لابني، إذن فلربما قتلتموه فعلاً!».

هز الفرنسي رأسه:

ـ دورك الآن، فقد أغفلت نقطة وهي أن موت زنانزا أبلغ إلى الملك الحيتي بواسطة رسالة مصرية، مما يعني أن الأمير كان في مصر.

ـ أو في أراض خاضعة للسلطة المصرية.

ـ في الحالتين، فنظريتي هي الصائبة لأنه إذا كان زنانزا قد اغتيل في الطريق، فكان رسول حيتي من مرافقيه هو من سيرسل إلى بلاط سوبيلوليوما!

استشاطت جوديت غضباً فقالت:

ـ من أين أتيت بأن ميريت آتون ورثت العرش بعد وفاة والدها؟ وأنها رقيت إلى رتبة ملكة لتأخذ منصب والدتها المختفية، أضيف إلى ذلك...

ـ هذا افتراض.

وأضاف بسرعة:

ـ مبني على أساس.

أخذت الشابة في الضحك، ثم قالت:

ـ في هذه الحالة، اسمح لي أن أفترض شيئاً آخر مبنياً على أساس هو أيضاً. فحوالي السنة الرابعة عشرة، اختفت نيفرتيتي فجأة من المشهد، وليس لدينا أي أثر لقبرها. ولا نتوفر على أي معلومة حول تاريخ أو ظروف وفاتها. يمكننا إذن أن نتصور المشهد التالي، وهي أنها هي في الواقع من رفعت إلى رتبة شريكة في الحكم وليست ابنتها، وبعد موت أخناتون، ستحكم وحدها تحت اسم جديد وهو آنخي خيبرو رع سمنخ كا رع.

وضعت يديها على ردفيها، ثم قالت:

ـ هل تناسبك هذه الفرضية؟

رفع لوكاس كتفيه وواصل القراءة.

من كيبر إلى أنوكيس

لست متفاجئاً مما كشفته لي يا صديقي. شككت في أن الفراق الذي حدث بين الملكة والملك في السنة الرابعة عشرة من الحكم لم يكن بسبب سياسي. ونعلم أيضاً أن شاباً احتل أهمية لدى الفرعون. وأخذ اسمه يروج. ومع ذلك، لم تكن لدينا معلومة محددة عن أصل هذا الشخص، على الأقل ليس لهذه اللحظة، ثم إن كل شيء مر بسرعة. فقد رحلت نيفرتيتي، وأشهراً بعد ذلك، حل الفجر المشؤوم لشهر بيريت، إذ وبينما كانت الطبيعة تستيقظ من خمولها، علمت من إحدى خادمات الملكة حقيقة ما جرى. فقد لازمت «الجملية أتت» الفراش منذ أيام، وقد اصفرّ لون وجهها، وأحاطت هالة قاتمة بعينيها، وغدت شفتاها جافتين. كانت تمنح كما يبدو منظر عجوز كسرتها الحياة في صراعها مع هذا المرض الذي أخذ ابنتاها والملكة الأم. ومثل الملكة الأم، كان يُسمع هذيانها. وفي بعض الليالي، كانت تتمدد على سريرها بنظراتها الساهمة، وتهمس كما لو أنها تخشى أن يسمعها أحد، باسم آمون. نعم، لقد قرأت جيداً ما كتبته «آمون». أكدت لي الخادمة أنها فاجأت الملكة أيضاً بصدد تمجيد هذا الإله المزدرى. هل كانت

تخشى لعنة الكهنة؟ ألم تفعل في كل حياتها سوى الثبات على الإله الوحيد بعكس رغبتها حتى لا تخالف زوجها؟ كيف لنا أن نعلم؟ انطفأت مثل شمعة. ولو لم تكن هناك باكياتها إلى جانبها، لكانت رحلت في عزلة تامة. ففي الساعة التي أعقبت ذلك، أعلم الفرعون بوفاة الملكة. لا أملك أي معلومة بخصوص ردة فعله عند سماعه النبأ.

وبعد وقت قصير من ذلك، عين سمنخ كا رع رسمياً شريكاً في الحكم. يا له من انقلاب!

آمل الآن أن أقتسم معك حدثاً شخصياً. تصور أن ابني زارني ليلة أمس. أعترف لك بأني تفاجأت. فلم أكن أنتظر أن يعود إلى طرق بابي مجدداً لاعتداده بنفسه. لم يأت وحيداً، فقد رافقته زوجته نب سينيت. لن تتصور ما جاء ليعلمني به، سأصير جداً! هل يمكنك أن تتصور سعادة مماثلة؟ فقد كنا نتصور كل تلك السنوات أن نب سينيت كانت عقيماً! من الواضح أننا كنا مخطئين. فالحقيقة شيء آخر. وقد كشفتها لي نارمر، إذ كانت نب سينيت مرعوبة من فكرة اكتشاف آلام الوضع. ولتفادي أن تسقط في الحمل، دبرت في السر وعملاً بنصائح جارتها، خليطاً من الحنظل وأوراق الأكاسيا والتمر. كل هذا يدق ويخلط بالعسل. تشربت خرقة من هذا الخليط الذي وضعته في مهبلها! النساء قادرات بالفعل على كل شيء. وما هي إلا ما يقرب من اثني عشر شهراً حتى باحت لزوجها بكل شيء. لم يكن لديها خيار آخر، ففي أحد الصباحات، وبعد اتصال بينهما، اكتشف نارمر متفاجئاً بأن عضوه مغطى... بالعسل! فقد انزلقت قطعة القماش تلك عن مكانها الأصلي. كان الأمر محزناً ومضحكاً في آن. محزن لأنهما فقدا ما

يقرب من خمس سنوات في هذا اللعب الصغير. سارعت إلى إرشاد نب سينيت إلى طبيب جيد مع علمي بأن نصيحتي لم تكن ذات جدوى. فمصر تتوفر على أجود الأطباء في العالم المعروف. على كل حال، فانتظار أن أصير جداً في القريب منح قلبي طاقة، حيث عاد إلى النبض كما كان في وقت شبابه الأول. وهكذا فقد تخلصت من خليطي وأعشابي الطبية واستعدت عادتي في المشي على ضفة النيل. الكل يبدأ من جديد يا صديقي أنوكيس! ما أجمل الحياة.

من أنوكيس إلى كيبر

فليحمد الإله الواحد! لو تدري كم أسعدتني رسالتك الأخيرة! وأخيراً عدت الرجل الذي أعرف. أطلعت زوجتي على الخبر، وكلفتني بأن أهنئك. إنها لحظة عظيمة. أطمئنك، وقد عشت مثل هذه اللحظة، بأنك ستعيش سعادة يشق علي وصفها. فباتصالها بالشباب تصير الشيخوخة صغيرة جداً، وتحمر خجلاً من ضعفها. سيبحث الجسد عن مصادر حياة جديدة. هذا جيد يا صديقي، ويمكنني أن أقول لك الآن إنك كنت تقلقني، ليس بسبب مرضك، ولكن لأنك كنت تمنحني الانطباع بأنك تستسلم، وبعدم التفكير إلا في أيامك الأولى. وباختصار شديد، بدوت كالنائح على الشخص الذي كنته، وليس هناك أسوأ! فإذا ما علمت آلامك ذلك فإنها ستمعن في تعذيبك. من حسن الحظ أن كل هذا صار من الماضي. عندما ستمسك حفيدك بين ذراعيك لاحقاً، لن تفكر إلا فيه. فيه وحده.

آه! الشباب! من المحتمل أنه من الأسباب التي فقد فيها أخناتون في حب مراهق. كان يأمل بدون شك أن يجدد شبابه من هذا الاتصال. وللأسف، أعتقد أن شغفه كان له تأثير معاكس عليه.

لقد كنت عندما حضر المبعوث الذي أبلغ الفرعون وفاة نيفرتيتي. في البدء، لم يظهر أخناتون أي علامة تأثر، فقد بقي جامداً وصامتاً، وحافظ على ثبات نظراته. لكن ما إن غادر المبعوث حتى استدار نحوي وأعلن بصوت مرتجف:

ـ كل شيء انتهى.

وبما أني تفاجأت من تعليقه هذا، فقد أضاف:

ـ رحل جزء مني، ولن يتأخر الجزء المتبقي من مفارقتي أيضاً. سأموت.

هناك فقط، ولأول مرة، أدركت التعب الشديد الذي يعلو سيماء وجهه، وكم أنه شاخ. استنتجت أنه كان مريضاً بذلك المرض الذي تعاقد معه منذ ولادته، والذي منحه هذا الجسد الذي نصفه رجل ونصفه الآخر امرأة. كان النصف العلوي لجسده قد ضاق بشكل غريب بينما وعند أسفل حزامه، كان نصفه السفلي قد تضاعف تقريباً، إذ تضخم ردفاه وحوضه.

أضاف:

ـ نعم، كل شيء انتهى. رحلت نيفرتيتي ولم تعد لدي حماية. كانت هي درعي. أعلم أن هناك دسائس تدبر منذ مدة.

رددت عليه عن قناعة:

ـ أنت تبالغ. لم أشعر بأي مكيدة. من يريد بك سوءا؟

صرخ:

ـ من؟ هل أنت مجنون يا أنوكيس الطيب؟ من؟ الكل! كهنة آمون الذين لم يفقدوا شيئاً من عقابهم! الجنود الذين يلومونني على عجزي

على عدم إراقة الدم، حتى لو كان دم عدوي. وربما الشعب أيضاً الذي يعاتبني على حرمانه من آلهته الصغيرة.

علّقت:

ـ لا أريد أن أخيب ظنك. لكن من المحتمل جداً أن الغالبية العظمى من شعب مصر لم تسمع أبداً عن إلهك الواحد. العديد من سكان البوادي ما زالوا يحمدون بات أو حاتور أو...

وترددت قبل أن أتهجى إسمه.

ـ «آمون».

زمّ شفتيه، واكتفى بالإعلان بكبرياء:

ـ لا يهمني! مادمت أعلم أنه في نهاية المطاف سينتصر الإله الواحد، وستغطي العالم القوة العظمى لانبعاث رع. سيتذكر الجميع يوماً ما، أني كنت على صواب. وستصيح شعوب الأرض قائلة «مآثرك لا تعد ولا تحصى، ولكنها محجوبة عن الأنظار، أيها الإله الواحد، لاأحد يشبهك».

ومن الجلي أن لحظة الضعف التي أحاقت به فجأة عند سماعه نبأ وفاة نيفرتيتي قد تلاشت. رفع جبهته وأعلن لي:

ـ قبل أيام، منحتني ميريت آتون طفلاً.

فكرت (بنت بلا شك)، وأكد بالقول:

ـ أسميناها ميريت آتون تا شيريت، وخلال أسبوع، وعندما ستتعافى ميريت آتون من آلام الوضع، سأتنازل عنها حتى تتمكن من الزواج من سمنخ كا رع الذي سأنصبه رسمياً كشريك لي في الحكم.

لم يتخل إذن عن فكرته، ولم يبعده أبداً موت نيفرتيتي عن مشاريعه. طرحت عليه سؤالاً ساذجاً:

ـ هل أنت مقتنع أنك تتصرف لما فيه خير مصر؟

ثم أضفت مسرعاً:

ـ ولما فيه خيرك؟

اقترب مني ببطء حتى مسافة نفس من وجهي، ثم قال:

ـ اسمعني يا أنوكيس. ولدت وترعرعت في الوحدة. لم ترني أمي قط. وعندما وقعت نظراتها علي كانت جوفاء، وفارغة من الحنان. فارغة كالليل عندما يخرج أبناء آوى من جحورهم. حظي أخي الأكبر فقط بكل اهتمام! فقد كان الفرعون المقبل، والسيد القادم للبلادين. لم أكن شيئاً. وهذا الجسد...

ومرر راحة يده على وجهه، ونزل بها على امتداد حوضه وأطرافه السفلى بنفور، ثم أضاف:

ـ وهذا الجسد منحني ازدراء الآخرين. هل تعتقد أني لم أسمع استهزاء الآخرين خلف ظهري؟ والسخرية من ورائي...

وبدا أنه يبحث عن الكلمة المناسبة، ليضيف:

ـ غريب جداً. لماذا؟ لأني كنت حساساً، وضعيفاً. كنت أكره الصيد، ولم أكن أهتم بكل الانجازات الجسدية؟!

توقف للحظة ثم قال:

ـ ثم أتت نيفرتيتي. أحببت قوتها، وسريعاً وجدت فيها جانبي الذكوري، وتكاملنا بشكل بديع. كان توافقنا كبيراً. لكن كان ينقص اتحادنا شيئان اثنان. أما الأول فهو الحب. كان هناك حنان بيننا، ولكنه

لم يكن أبداً حباً. كانت الصداقة بيننا ولكنها لم تكن أبداً حباً. وعندما أقول الحب، أقصد هنا ذاك الشعور الذي يمكننا من مجابهة حقارة العالم، والذي يعيد منحنا الحياة كل صباح. الشيء الثاني الذي كان ينقصنا مع ألا أحد لامني على إهماله، مستقبل مصر. لا وريث ذكراً! ست بنات! هل تعتقد أن الوضع لم يؤلمني؟ ألا تفهم أن ذلك، ورغماً عني، حفر هوة عميقة بيني وبين الملكة؟

جازفت بالقول:

- ذكر أو أنثى. بحسب ما أرى ليست المرأة السبب في ذلك دوماً. ونيفرتيتي...

- في اليوم الذي ضاجعت فيه كيا، منحتني ابناً. أم تراك نسيت؟ إنه توت عنخ آمون.

- بالتأكيد، لكن...

لم يدعني أكمل إذ قال:

- ولادة هذا الابن زادت في حفر الهوة التي ذكرت. بعد ذلك، خافت نيفرتيتي، وأخذت تشكك في نظرتي للإله الواحد، فبدأت تتحرش بي وتزعجني ليل نهار حتى أعود إلى آمون، ولكي أدفع بجيشي إلى الحيتيين، حتى إنها أرادتنا أن نهجر مدينة الأفق ونعود إلى طيبة. في الحقيقة، كان كلامها نابعاً من تأثرها بشخص شره، أقصد هنا حور محب.

رفع سبابته، وأضاف:

- ستذكر ما قلته بأن يوماً سيأتي حيث سيرفع حديث النعمة هذا للجلوس على عرش مصر، إنه قادر على كل شيء حتى على القتل للوصول إلى غاياته، ومثل كل الجنود، هو لا يقسم إلا بالسيف.

تنفس بعمق، ثم قال:

- وفي النهاية، زحف النور على العتمة، ووقعت عيناي على عيني سمنخ كا رع، وعادت لي الحياة! سمنخ كا رع لي. هو لحمي، وهو يسري في شراييني.

ثم ختم:

- لأجل هذا، لا شيء، ولا أحد يستطيع منعي من جعله يصعد درجات العرش.

التزمت بالصمت، وقد امتلأت أذناي بالكلمات التي سمعتها لتوي. ماذا أقول؟ فلا توجد حجة صحيحة، ولا كلمة تصلح للموقف. كان يمكنني أن أعيد تذكيره بأن سمنخ كا رع لم يكن من دم نبيل. وكان سيفحمني، وبطريقة قوية وصحيحة، بأن الملكة تيي لم تكن كذلك أيضاً، وبأن نيفرتيتي لم تكن أحسن منها، وكما سبق وأن كتبت لك، فقد أعماه الحب.

بعد سبعين يوماً من طقس التحنيط، دفنت الملكة بسرية بالغة في المقبرة الملكية، وإلى حدود الشهر الماضي، كانت ما تزال هناك، ليس قبل أن أعلم أول أمس، أن مجهولين دنسوا قبرها، وسرقوا تابوتها.

أين هي الآن؟ هل سنعلم ذلك أبداً؟ بعد أسابيع من جنازة الملكة تم تتويج شريك الحكم كما رغب في ذلك أخناتون، بسرية في إحدى قاعات الجزء الجنوبي من القصر.

لكن الوقت قد تأخر، وعلي أن أتركك. أقبلك بمحبة يا صديقي. آمل ألا تمنعك سعادة كونك ستصير جداً من الكتابة لي.

القاهرة

ـ هل تعتقد أن التابوت سرق؟

ـ ماذا أرد عليك؟ فكوننا لم نجده يدفع في هذا الاتجاه، ليس قبل حزيران من سنة ٢٠٠٣، أعلنت عالمة آثار بريطانية تدعى جوان فليتشر أنها تعرفت على بقايا الملكة من بين ثلاث مومياءات اكتشفت سنة ١٨٩٨ في قبر بوادي الملوك بواسطة عالم الآثار الفرنسي فيكتور لوري قائلة «بعد اثنتي عشرة سنة مضت في البحث عن نيفرتيتي، من المحتمل أنها التجربة الأكثر غرابة في حياتي». هذا ما صرحت به السيدة فليتشر في بلاغ نشر في قناة «ديسكوفري شانيل» التي مولت البعثة، حتى إنه كان لها الضمير المهني لتحدد «مع أنه لا يمكننا الحديث الآن إلا عن احتمالات قوية بخصوص هوية المومياء»، وكانت فليتشر قد اهتمت بالقبر منذ حزيران من سنة ٢٠٠٢ بعد أن تعرفت على باروكة من النوع النوبي، كانت توضع من قبل نساء العائلة الملكية في فترة حكم أخناتون. اكتشفت هذه الباروكة قرب ثلاث مومياءات مجهولة الهوية، تعود لامرأتين وطفل صغير، لكن إحدى هذه المومياءات كانت تضع

عقداً بعنق بجعة شبيهاً بعقود الملكة. ولاحظت فليتشر أيضاً أنها تملك عصابة جبهة، وحلياً على صدرها، وأن شحمة أذنها مثقوبة مرتين، وأن رأسها كان حليقاً. وعند إجراء أحد الفحوصات على المومياء، اكتشف العلماء بأن ذراعها كان مثنياً على صدرها، وأن أصابعها كانت تمسك صولجاناً ملكياً، ومن المعلوم أن مومياءات الفراعنة والملكات وحدها من كانت تمثل على ذلك الوضع.

ـ وهو ما لا يؤكد دائماً أن الأمر يتعلق بنيفرتيتي.

ـ هذا صحيح، ومن أجل إثبات هويتها قام مختصان بريطانيان أيضاً وهما داميان شوفيلد من جامعة نوتنغهام، ومارتن إفزن من جامعة شيفلد باستخدام خبراتهما في مجال التحقيق في الطب الشرعي وذلك بإخضاع جمجمة المومياء إلى فحص عن طريق الأشعة فوق البنفسجية، ولا أحد منهما استطاع تحديد هوية «ضحيتهما»، وهما معاً مختصان في إعادة تركيب الوجه انطلاقاً من الرأس في جرائم القتل التي تجهل فيها هوية الضحايا، وكان الإثنان معاً قد وضعا برنامجاً معلوماتياً على جهاز الحاسوب بصور ثلاثية الأبعاد الذي يقسم الرأس إلى مربعات حيث وضعا علامات للإشارة إلى الأماكن التي يجب أن يركب فيها النسيج البشري، ثم أضافا عضلات الوجه لمنح الوجه هيئة، وفي النهاية، قام مختص بفن الرسم من وضع النسيج الجلدي والعينين واللون والشفتين، وتفاجأ الجميع عند رؤية النتيجة النهائية، وذلك للتشابه الكبير مع التمثال النصفي المعروض في المتحف المصري ببرلين، إلا أنهما ومع

ذلك كله، حددا أن هذا التركيب لا يدل بأي حال من الأحوال بأن هذا الرأس يعود لنيفرتيتي.

ـ لا شيء واضح...

ـ وبحسب مارك غابولد، فالفرضية المشيرة إلى أن الأمر يتعلق بمومياء نيفرتيتي تعتمد على أن هذه الأخيرة تضع عقداً وباروكة من النوع النوبي، لكنه يحدد بأنها حجج ضعيفة جداً، لأنها ليست سمات خاصة بنيفرتيتي وحدها دون غيرها، ففي متحف القاهرة هناك خمس إلى ست مومياءات لها السمات ذاتها. وإلى هذا، أعلنت عالمة الآثار المصرية سوزان جيمس من جامعة كمبريدج حذرة بأن المعطيات المعروفة والمنشورة «قبل» بعثة فليتشر تشير إلى ضعف احتمال أن يتعلق الأمر بمومياء نيفرتيتي. ويبدو أن الجدال قد عاد إلى نقطة البداية الآن، مادام بعض المختصين لا يضعون إثبات الهوية الملكية للمومياء موضع شك فقط، وإنما جنسها. ويؤكد بعض علماء الآثار المصريين بالتحديد، بأن الأمر يتعلق بجسد «ذكري»، وهو ما يعارض النظرية التي تساندها الخبيرة البريطانية، وبحسب المجلس الأعلى للآثار في مصر فإن الاختبارات تشير إلى أن الجثة تعود إلى شخص ذكر يبلغ من العمر ما بين ست عشرة سنة وتسع عشرة سنة، أما مصلحة الآثار لجامعة يورك والتي تعمل فيها السيدة فليتشر فهي تدعم «بحزم» الرأي القائل بأن الأمر يتعلق بامرأة ما بين الثامنة عشرة والثلاثين من العمر، وتبرر قرارها لخصائص عظام الحوض والصدر. لكن المجلس لا يوضح بأن «اتساع الردفين يشير إلى أنه صبي وليست فتاة». من جانبه، يذكر ستيفن باكلي

من جامعة يورك، بأن المومياء حددت هويتها مبدئياً من قبل فيكتور لوري، باعتبارها تعود لذكر بسبب الرأس الحليق. ولأختم، فعالمة الآثار المصرية سوزان جيمس التي درست المومياءات الثلاث والتي أعلنت شكوكها في استنتاجات زميلتها، تدعم أن اختبار الحمض النووي (إي إن دي) فقط، هو الكفيل بوضع حد لكل هذا الجدال.

فتح لوكاس ذراعيه بطريقة قدرية، ثم قال:

- الطريق المسدودة.

من كيبر إلى أنوكيس

لم أكن أعلم ان المقبرة الملكية دنست. فلتحل اللعنة على من قام بمثل هذا العمل المخزي!

أرغب في أن تمنحني كل انتباهك الآن. فالسنتان اللتان مرتا لم تمنحا مؤشرات إلى توقع ما هو جيد. فما أسمعك إياه أخناتون بخصوص التهديدات التي ترهق كاهله، لم تكن وهماً أو هذياناً من جانبه. لقد قتلوه. نعم يا أنوكيس. لقد تجرؤوا على فعل ذلك. لقد قتلوه مستعينين بالعلم حتى يبدو موته طبيعياً. أنت تعلم بوجود سموم مصنوعة بدقة متناهية لكي لا يكتشف وجودها. من فعل ذلك؟ ليس القتلة المفترضين هم من ينقص، فالمتعصبون لآمون، والمتعصبون بكل اختصار، والجنرالات... في هذه السنة السادسة عشرة، كان أولئك الذين يتمنون أن يتوقف حكم الإله الواحد يشكلون عدداً كبيراً. لم يحزنني أن يكون الفرعون قد اغتيل، مادام الموت يعد حياة أخرى، لكن ما جرح إحساسي، وجعل الدموع تصعد إلى عيني، هو أن تختفي جثته مثل جثة الملكة.

علمنا أنها دفنت أول مرة في المقبرة الملكية، ولكن ماذا حدث بعد ذلك؟ هل لديك معطيات حول الموضوع؟

من أنوكيس إلى كيبر

لا أتوفر على أي معلومة يا صديقي كيبر. وبخصوص نهاية أخناتون لا أشك في كلامك. أنا أكيد من أنهم اغتالوه، وأعتقد أنه بإمكاني تأكيد الطريقة التي فعلوا بها ذلك. ففي ليلة احتضار «من أحببت»، استدعيت من قبل سمنخ كا رع. كانت لحظة مأساوية أحتفظ بصورتها ورائحتها. كانت تصدر من الغرفة حيث كان الفرعون يستريح رائحة محمومة. لم أفهم أبداً إلى ما يعزى كل ذلك. كان أخناتون ملقى على ظهره، بعينيه شبه المغمضتين، وكان يحشرج، وكان الزبد يلمع في ملتقى شفتيه. وكان طبيبه حاتيا حاضراً. دنوت منه، وكان قلبي يخفق بسرعة. غمغمت «لن يموت»، فرد علي حاتيا «للأسف!».

انحنى على السرير، ومرر ذراعه خلف كتفي الملك، ثم رفعه قليلاً، وسقاه جرعة دواء. لم أجرؤ في تلك اللحظة، على السؤال عن أصل الدواء وممّا شكّل. وبعد مرور وقت، ألف سنة في اعتقادي، أو هي ساعة ربما، كانت زفرات سمنخ كا رع المتقطعة تمزق الصمت. جلدني اليأس الذي كان يصدر عنه. كان مثل طفل يفقد أباه. ثم، وفجأة، انقطعت الحشرجات، وبعفوية تامة، وبمبالغة أعترف بها،

أخذت يد الفرعون بكل قواي كأنما أحاول أن أبقيه. كان ذلك صبيانياً. فتح عينيه جيداً. ركز ناظريه على السقف المضاء بالكاد بلهب المشاعل، وتمتم بصوت لاهث «هكذا يتشكل الجنين في النساء، وهكذا تخلق البذرة في الرجال. . .». كانت هذه آخر كلماته.

أما البقية، فأنت تعرفها. فقد دفنوه جوار زوجته في المقبرة الملكية المشيدة في مدينة الأفق. ودنس قبره كما حدث لقبر نيفرتيتي، وتم تغيير مكان جثته. أين أخذوها؟ سألت كثيراً أناساً هنا وهناك، من دون أن أتوصل إلى جواب شاف. بالمقابل، صار بحثي قصيراً جداً. فمجرد نطق إسم أخناتون صار مدعاة للنقمة وللاعتداء. لكن وبالمقابل، اعتقدت أني فهمت أنهم وضعوا الزوج الملكي في مكان سري في الموقع القديم، هناك حيث كان يرقد الملوك والزوجات الملكيات الكبريات وأبناؤهم والمستحقون، قبل ارتقاء الإله الواحد. أقصد هنا، وادي الملوك.

أريد أن أسر لك برأيي في الطريقة التي قُتل بها الملك. فبعد أيام من موته، تباحثت مع سمنخ كا رع. حاولت أن أعرف المزيد عن المرض الذي أصاب أخناتون. لم يستطع المسكين أن يخبرني شيئاً، عدا أنه ومنذ بضعة أشهر أخذ الملك يشتكي بانتظام من آلام في بطنه. شخّص طبيبه آني ذلك على أنه انقباض مزمن في الأمعاء، ووصف له شرب وصفة أعدها له بنفسه. وبطريقة غريبة، وعوض أن يتحسن حال الملك، ازداد سوءاً. وهكذا قصدت طبيبك نيفري الذي أذكرك أنه كان طبيباً في البلاط. تكلمت معه حول هذه الوصفة الغامضة. في البداية، اكتفى بالفرار كسبيل في الرد علي. ولكن وعندما تحرشت به، انتهى

إلى الإسرار لي بعدما جعلني أقسم بكل الآلهة ألا أعيد ما سمعته منه أبداً، بأن الخليط المعلوم يضم الكالوميل وهو داوء يفترض فيه معالجة آلام البطن، وله وظيفة مليّنة.

من النظرة الأولى يبدو أن الدواء الذي وصفه آني مطابق تماماً لقوانين الطب، من النظرة الأولى فقط، لأن نيفري أسرّ لي أنه إذا ما خلط الكالوميل ببعض الأعشاب المعروفة من قبل السحرة وبعض الأطباء، وخاصة إذا ما تم تجاوز جرعات معينة، فإنها تؤدي إلى الموت المحقق. وهكذا، ليس هناك من شك أنه تم اغتيال الملك.

ماذا أقول أكثر من هذا؟ فقد مات سمنخ كا رع بعدما تولى بالكاد الحكم، وخلفه توت عنخ آتون وهو بالكاد يبلغ من العمر التاسعة. كان صغيراً جداً ليحكم. وصغيراً جداً ليفهم. وبالكاد على العرش، وجد نفسه محاطاً بأب الإله آي، وبحور محب. فهما معاً حكما مصر خلال السنوات العشر لحكم ابن أخناتون. وكان أول قرار لهما، استعادة الدين القديم، وهجر مدينة الأفق. وكان كهنة آتون ضحية لعقابهما. ويوماً بعد يوم، فرغت المدينة من سكانها، وتوفي توت عنخ آمون وهو يدخل سنته التاسعة عشرة، في ظروف غامضة أيضاً، فاعتلى آي العرش وحكم لخمس سنوات.

وها نحن اليوم، أنا وأنت، تحت حذاء حور محب، وضجيج المطارق ما يزال يطن في الكرنك وفي كل مصر، والمدنسون يستمتعون بذلك. مدينة الأفق مهجورة، وعدا بعض أبناء آوى الذين يتجولون هناك ليلاً، ما من أحد ظل يعيش فيما كان الحلم الكبير للرجل الذي أحببناه.

قوي بالمعلومات التي مددتني بها، وبكل أجزائنا المقطعة، سأكتب هذه السيرة. علي أن أفعل ذلك، فأنا لا أريد أن يغرق اسمه في النسيان. ألم أقل له عندما عصف به الحزن بسبب فقدانه للصغيرة ميريت آتون بأن «النسيان هو من يقتل، وليس الموت».

الوداع يا أخي كيبر. أضمك إلى صدري.

وقعت على أثر عازف القيثارة الذي يعنيك أمره، ميروركا. وأعلمته رغبتك في حضوره. لكني لا أعتقد أنك بحاجة إليه بعد الآن. فسيصير حفيدك من الآن فصاعداً أعذب موسيقاك.

القاهرة

أعلنت جوديت

ـ كنت أتأكد عندما كنت تقرأ. فهل يتعلق الأمر بصدفة أم لا؟ وجدت بالفعل أن الكالوميل هو نوع من الكلوريد الزئبقي والذي يعرف كمسحوق أبيض بدون طعم، استعمل منذ القديم كمليّن، وكمعقم معوي. ويحدد أيضاً في بعض الحالات بأن هذه المادة يمكن أن تتحول داخل الأعضاء وتصير سامة. وهناك قصة متعلقة بهذه النقطة بالتحديد، ففي شهر تموز من سنة ١٩٩٦ أعلنت الصحف الأمريكية بأن مصلحة الصحة في ولاية تكساس، منعت من الاستعمال وسحبت من نقط البيع مرهم تجميل يحضّر في المكسيك، ويوزع في الولايات المتحدة الأمريكية. فقد اكتشف أن العديد من النساء أصبن بتوعك بعد استعماله، وأكدت التحاليل احتواء المرهم على الكالوميل.

أدخل عالم الآثار المصرية آخر ورقة في لفافة من نحاس، ثم قام وقصد النافذة المفتوحة على حدائق المتحف، ثم قال:

ـ نظرية اغتيال أخناتون مشكوك فيها مثل النظرية التي قالت بأن نابليون تمّ تسميمه بواسطة سم الزرنيخ من قبل الإنجليز في سانت

هيلين. مادمنا لم نتوصل إلى المومياء يبقى كل شيء مجرد حدس وتخمين.

ثم سارع إلى إبداء ملاحظة:

ـ ثم وإذا ما اعتمدنا على فرضياتك، يمكننا أيضاً تصور أن الفرعون قد مات ضحية للداء الذي أشار إليه الدكتور يعقوب.

ـ داء باركر وسيمونس؟

ـ تماماً. يعلمنا أنوكيس في إحدى رسائله الأخيرة، بأن النصف العلوي لجسد أخناتون قد هزل بشكل غريب، وتضاعف تقريباً حجم الجزء السفلي لجسده. وختم بأن التضخم أصاب الردفين والحوض. يبدو أن هذا الوصف يدافع إذن عن نظرية المرض. ماذا تعتقدين؟

لم تجب الشابة. لحقت بعالم الآثار المصرية قرب النافذة، ثم سألت:

ـ الآن وقد انتهينا من قراءتنا. أما تزال مقتنعاً بأن هذه الرسائل ملفقة؟

استدار فيليب لوكاس وتأمل جوديت بابتسامة عريضة، ثم قال:

ـ نعم ولا.

ـ ماذا تقصد؟

تردد قليلاً للحظة، ثم قال:

ـ هل تلومينني إذا كشفت الحقيقة؟

ـ لا أفهم. ماذا تقصد من هذا التحذير؟

تردد مجدداً، ثم قال:

ـ أعرف الكاتب.

جحظت عينا الشابة، فقال:

ـ نعم. . . الكاتب. إنه، أنا.

وضعت يدها على فمها لتمنع نفسها من قول:

ـ أنت؟

ـ أنا.

ـ هل تريد أن تقول إنك اختلقت كل أجزاء هذه الرسائل؟

ـ بتواطؤ مع صديقنا حسن، عالم الآثار المصرية. ثم كلفته بأن يوصلها لك.

احتقن وجه جوديت، وانفجرت هذه المرة:

ـ بذيء! أنت بذيء!

ـ أنا عالم. الأمر مختلف.

ـ لكن لماذا؟ لأي سبب؟

كانت على وشك البكاء، فأخذ يدها قائلاً:

ـ إهدئي. لم أفكر إلا في كتابك الذي تعدّينه عن فرعوننا.

ـ كتابي؟

ـ ألم تخبريني بأنه يعني لك الشيء الكثير، وأنك قررت أن تقومي به بشكل جيّد؟ أقتبس من كلامك «لا شيء يمكنه أن يجعلني أغير رأيي بروفيسور. وعلى كل حال، وحتى أكون صريحة معك، فقد بدأت الكتابة بالفعل».

ـ ما علاقة هذا بسخريتك؟

ـ سأشرح لك الأمر.

أخذها برفق إلى المكتب، ودعاها للجلوس، ثم قال:

ـ عرفتك طالبة. كنت، وقد قلتها لك من قبل، من بين ألمع طلابي، إلا أن لك عيباً كبيراً، وهو خيالك الجامح. بيد أن الكتاب الذي قررت كتابته يمنع جموح الخيال أو النزوة. ما حاولت أن أوصله لك، هو أنه لا توجد حتى يومنا هذا، نظرية نهائية حول أخناتون. كل النظريات تدافع عن نفسها والقليل منها مؤكدة. وفي هذه الساعة التي نتحدث فيها قد يظهر شيء جديد، فلا يكاد يمر يوم دون أن يأتي اكتشاف جديد ليضع معارفنا موضع شك. وحتى لا أذكر غيرها، فالبعثة الأثرية الفرنسية لبوباستيون المدارة من قبل آلان زيفي، لا تكف عن إخراج الأشباح من رمال السقارة. وبفضلهم تمّ بعث المربية مايا حاضنة توت عنخ آمون، من بين أشياء أخرى. أردت فقط من خلال هذه الخدعة أن أحذرك. اكتبي كتابك. أشجعك بحرارة على فعل ذلك، ولكن اكبحي ميلك إلى الاعتقاد بسرعة مفرطة وسهولة كبيرة. دعي خيالك يشرد بين الفينة والأخرى، لكن لا تفقدي الواقع أبداً. بالإضافة إلى . . .

لم تعد جوديت تسمع شيئاً، فقد أخذت حقيبتها وهرعت إلى الخارج.

القاهرة.. هذه الأيام

فتح فيليب لوكاس المغلف الذي سلّمه إياه لتوه بواب فندق سميراميس. تعرّف على خط جوديت فتنفس بارتياح، إذ مضى أسبوع دون أن يسمع أخباراً عنها، كما أنها ترفض الرد على الهاتف.

ثم شرع في قراءة رسالتها:

عزيزي البروفيسور لوكاس..

فكرت كثيراً في هذه الأيام الأخيرة. تأملت. ترددت حول الموقف المتبنّى إزاء السبب الداعي إلى لعبتك الصغيرة، حتى إن فكرة إرسال قنينة مملوءة بالكالوميل لك خطرت على ذهني. خمنت في النهاية أنني وباغتيالك كنت سأعطي مثالاً كبيراً للظلم. نعم الظلم، لأنه بفضلك فتحت عيني. معك حق، فقد كنت دوماً أميل إلى منح إيماني لأول المعلومات التي تصلني، ما دامت تحمل الدهشة في طياتها.. عندما كنت صغيرة بعد، كنت أتشرب من فم جدي الحكايات والأساطير. وشكلت الإلياذة والأوديسا

لمدة طويلة كتابي ووسادتي. كنت أنام جوار يوليس، وكنت أرتعش لآخيل، وأغزل مع بينيلوبي.

أعترف أني ممزوجة ببعض السذاجة.

عيبان كبيران بالنسبة لمن يكرس حياته لمهنة علمية. أعدك بأن يكون كتابي حول أخناتون صارماً ما أمكن. لكنك أيها المشكك، تمر مرور الكرام على شيء بالغ الأهمية، وهو الإذن المخول للناس بالحلم والتخيل. فالحلم والخيال هما منبع الممكن، أضف قدراً من الجنون وستحصل على الوصفة السحرية التي ستمنح البعض الوصول إلى ما يعتبره البعض الآخر مستحيل الإدارك.

أنظر إلى حياة شليمن، فقد هدهدت كل طفولته بالقصص الساحرة المنتشرة في المنطقة التي ترعرع فيها. وبمناسبة عيد ميلاده، منحه والده كتاباً كهدية، وفي إحدى لوحات الغلاف يمكن ملاحظة قصور طروادة مهاجمة ومشتعلة بالنيران من قبل اليونانيين. سأل شليمن[1] الصغير أين توجد هذه المدينة المذهلة؟ فرد الوالد وابتسامة تعلو شفتيه بأن طروادة لم توجد أبداً، وأنها أسطورة اخترعها هوميروس. «لا، احتجّ الطفل، سأجد يوماً ما بقايا مدينة بريم!» وهو ما حدث فعلاً.

(١) هنري شليمن مكتشف طروادة بتركيا وهو صاحب القولة المأثورة «الموهبة تعني الطاقة والمثابرة لا أكثر» (المترجم).

يمكنني أن أذكر لك العديد من الأمثلة المشابهة حيث يلعب الخيال دوراً مهماً في تاريخ الاكتشافات العظيمة.

في النهاية يا بروفيسور لوكاس، أعادتني لعبتك الصغيرة إلى الصرامة، ولكنها أراحتني أيضاً لرؤيتي للعالم. فإذا كان للعالم الحقيقي حدود، فإن العالم المتخيل غير محدود...

فلنتناول العشاء معاً في الغد، إذا كان لديك وقت، وسأشرح لك بصوت حي كم أحب اللامحدود.

أنتظر اتصالك.

المخلصة جوديت فابر

خاتمة

لوتيس[1] سنة ٣٥٠ من عهدنا

حوالي ألف وسبعمئة سنة بعد حكم أخناتون.

أمر جوليان بأن تفتح أبواب القصر. أدار فاتحو الأبواب المصنوعة من خشب شجر الفرو مزالجهم، ليتمكنوا من رؤية عدد كبير من الرومان المجتمعين في حقل مارس. كنا في الشتاء، وكان هناك هواء بارد يسري على امتداد الأشجار. كبح جوليان قشعريرة، وضمّ إليه أطراف معطفه. كانت قسطنطينوبل بعيدة جداً، وأثينا بعيدة أيضاً، وكان على قريبه الإمبراطور قسطنطين أن يحارب في مكان ما من كابادوس.

أخذ جوليان يعيد إلى ذاكرته، وهو يقترب من جنوده، كل الطريق التي قطعها ليصل إلى هذه اللحظة المجيدة. والصورة الأولى التي عادت إليه بطبيعة الحال، كانت مشهد المأساة. والداه وكل عائلته، مروا على حد السيف بأمر من قسطنطين. لقد عاش كل ثانية من الفظاعة حيث والده وأمه مطروحان أرضاً، يسبحان في بركة من الدم. مجزرة حقيقة. كان جوليان بالكاد يبلغ سبع سنوات، وبطريقة معجزة، سيتم إعفاؤه هو وأخوه غير الشقيق غالوس.

---

(١) باريس الحالية أطلقه عليها الرومان (المترجم).

اجتثت صرخة عظيمة جوليان من أفكاره. كانت عظيمة حد تصور أنها دوي رعد.

احتضنه الجيش.

وفجأة، هبّ إليه بعض المتطوعين ورفعوه على درع، بينما أخذت الحناجر تصرخ بطريقة حماسية:

ـ يحيا جوليان!

ثم...

ـ يحيا الإمبراطور جوليان!

أقفل جوليان عينيه، وفكر «طلبت إشارة واحدة من الإله، وهاهو ذا يمنحني إياها. إنه يطلب مني ألا أتعارض مع جنودي»[١].

وبكل تأكيد، لم يكن كل شيء سهلاً، فالإمبراطور قسطنطين، ما يزال على قيد الحياة، لكن، لاحقاً وبمساعدة القدر، سيموت وسيصير جوليان سيد الإمبراطورية الوحيد.

في النهاية، سيتمكن من تحقيق حلم مراهقته!

سينتهي إله المسيحيين، وستنتهي قصة هذا الإله الواحد. سيضع جوليان ابن الشمس حداً لقضية التوحيد السخيفة. إله واحد؟ إله مخترع من قبل ابن نجار من نازاريت؟ هذا اليهودي المنشق؟ يا له من جنون!

غداً، وبفضل جوليان، سيعاد الاعتبار للآلهة اليونانيين، وعلى رأسهم هيليوس، الإله الشمسي، والشمس غير المهزومة! غداً سيعوض

---

(١) Jamblique, Les Myster d'Egypte, Editions des Places, 2003, p56-57.

هذا الرمز على الألوية الرومانية الصليب، أداة التعذيب التي أرادها قسطنطين، الإمبراطور الروماني الأول الذي تعرض لفخ المعمودية.

ألا تحجب كل شعوب الأرض بالشمس؟ حتى في الهند، تمجد الأناشيد قوتها العظمى. الشمس ووسيطها ميثراً.

نعم، ستستعيد الحقيقة حقوقها غداً.

فبمجرد تسلمه السلطة، سيعيد ممتلكاتهم إلى المعابد وإلى الطقوس الوثنية، وسيلغي الامتيازات الممنوحة لكهنة المسيحية.

سيعطي أوامره بأن توضع منصات في المعابد حيث سيعلم الشعب قانون الإيمان الوحيد، المستحق بأن يتلى:

النور واحد في كل مكان وخالد، وهو حاضر بشكل لا يقبل القسمة داخل كل الكائنات، وهو يملأ الكون كله بقوته اللامحدودة... فبتقليده تقوم السماء والأرض بإتمام دورانهما، وتتم ملاحقة المبادئ والغايات، وتحقق الاستمرارية والتناسق مع الجميع...

لا عقيدة توحيد بعد الآن أبداً، أبداً. فقد لُطخت أيادي تابعيها بالدماء، بالكثير من الدماء.

* * *

هذا الكتاب

ليكن يومك رائقاً أيها الصديق. تسلمت ردك على خطابي وأشكرك عليه. نعم، وكما قرأت فأنا أعمل حاليا على كتابة نبذة عن «من كان مفيداً لآتون». لماذا تستغرب؟ فباعتباري من القلة الأحياء الذين عاشوا إلى جواره، كان لزاماً عليّ الاضطلاع بهذه المهمة. لقد تعرضت سيرته للكذب، وعبثت الأيادي بذكراه كثيراً، حتى خلصت إلى أنه من الضروري وضع الأجيال القادمة أمام صورة مغايرة عن تلك المتداولة في البلادين.

